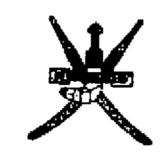


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الأخبار والآثار

تأليف
العلامة المحقق الشيخ سالم بن عبدالله بن
راشد آل بوسعيدي العقري النزوي

تحقيق
محمد علي الصليبي

الجزء الاول

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



ذلك مباهاةً للمتقين وادّكاراً للآخرين

وانّما اردتّ ذلك تبصرةً لضعيفٍ مسترشدٍ

ومعونةً لطالبٍ مستفيدٍ وعدّةً لعابدٍ مجتهدٍ

وسبباً لنيل الثواب وذخيرةً ليوم الحساب

أن أودعتُ ما استحسنتُ من ذلك كتاباً وألحقتُ

كلّ معنى منها باباً ليأخذها طالب التوالي درساً وحفظاً

ويستثمرها معنىً ولفظاً ويستنبط غرائبها ويستدرك

عجائبها ويجعلها أملاً ويمتثلها عملاً ليحصل

له نفعها ويتمّ له فضلها لا نقاد لنيل الخير سبيل

وما التوفيق الا بالله ناسخه ومؤلفه العبد الحقير

المعترف في ذلك بالتقصير سالم بن عبد الله بن راشد بن سعيد

الروي وطناً والعقري سكناً وذلك في عام ثلاث

وسبعين سنة والف سنة من هجرة سيد المرسلين محمد صلى الله

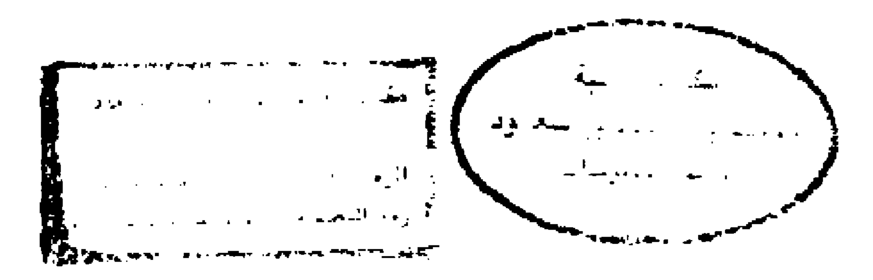
عليه وسلم تسليماً كثيراً

احدى صفحات مخطوطة الآثار وهي بخط مؤلف الكتاب



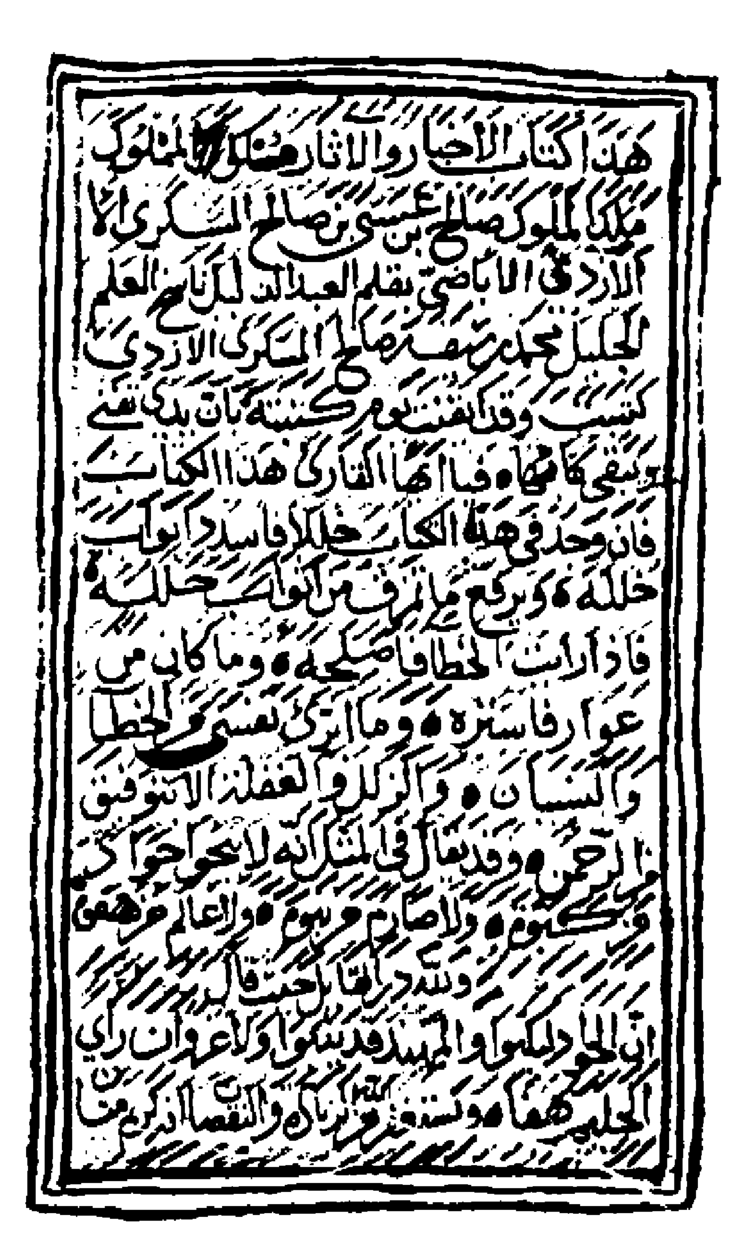
٢

كتاب الاخبار والآثار تأليف العلامه سالم بن عبدالله بن راشد
آل بوسعيدي العقري النزوي
سنة ثلث وسبعين والف سنه



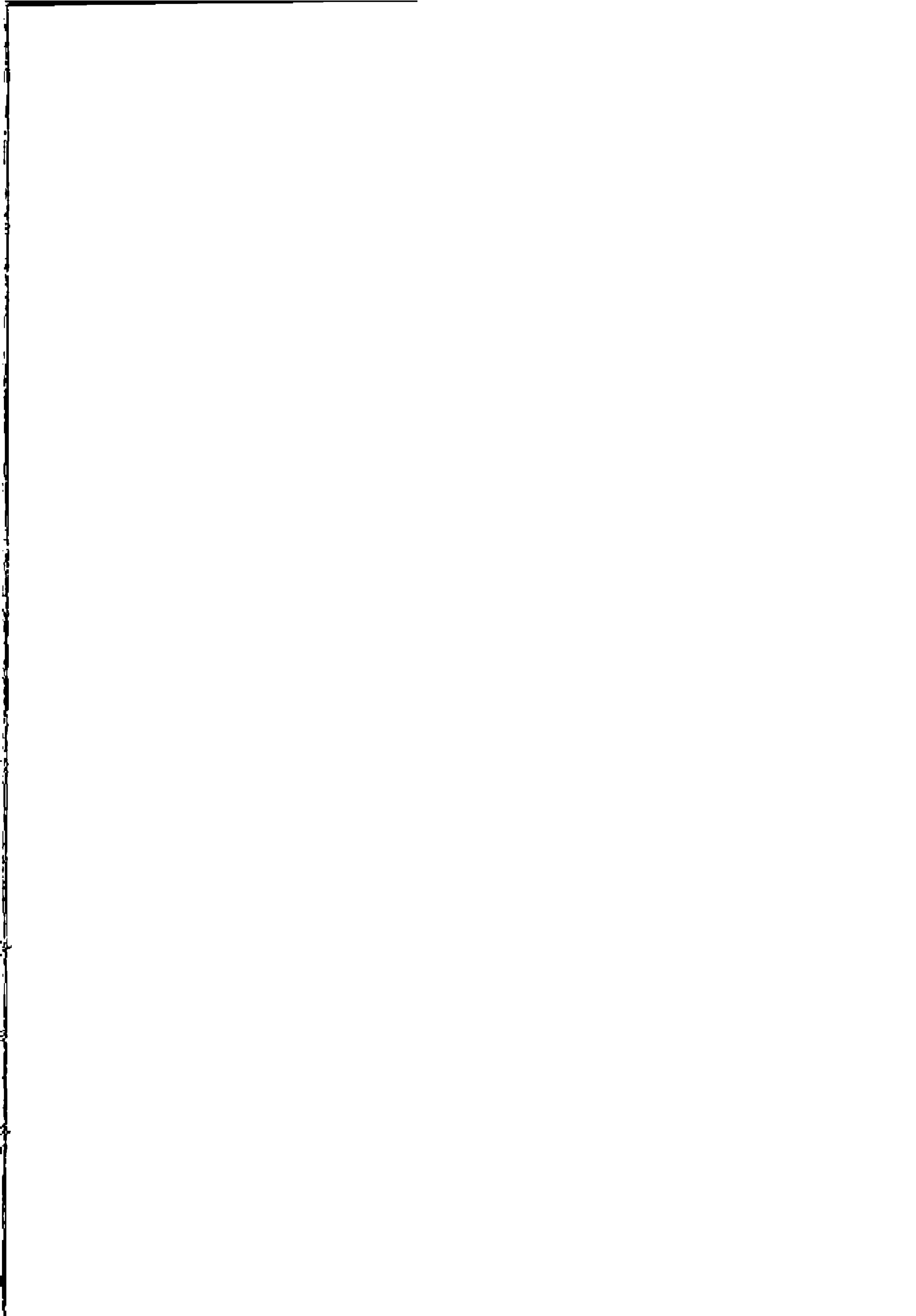
الصفحة الثانية من مخطوطة كتاب الآثار والأخبار





هذا كتاب الأخبار والآثار من ملك الملوك
ملك الملوك صالح عيسى بن صالح السكري الا
الازدي الاباضي بقلم العبد الذليل [illegible] العلم
الجليل محمد بن سيف بن صالح السكري الازدي
كتبت وقد انتسخ من نسخة بأن بدى شي
يبقى كما هو فيا أيها القارئ هذا الكتاب
فإن وجدت في هذا الكتاب خللا أو فسادا أو
خللا [illegible]
فإذا رأيت الخطأ فأصلحه وما كان من
عوار فاستره وما أبرئ نفسي من الخطأ
والنسيان والزلل والغفلة إلا من وفق
الرحمن وقد يقال في المثل إنه لا يخلو أحد
من [illegible] والإمام [illegible] والعالم من هفوة
ولله در القائل حيث قال شعر
إن الجواد قد يكبو وإن الصارم قد ينبو ولا عجب أن راي
الحليم هفا [illegible]

الصفحة الثالثة من مخطوطة كتاب الآثار والأخبار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي اختار لنا الاسلام دينا وجعل السعيد من التزم حدوده وتأدب بآدابه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى وشموس المعرفة .

أما بعد . .

فالله سبحانه وتعالى وهو الخبير بعباده أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال عامرة بالخير والهدى ، وكان في دعوته وعبادته وفي حربه وسلمه ، وفي أسرته وبين أصحابه ، وفي كل مظهر من مظاهر حياته ؛ مصداقا لقول الله ـ تعالى ـ فيه : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وأنموذجا فذا لقوله صلوات الله وسلامه عليه : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

وقد اضطرت دعوته الصادقة القوية وأخلاقه السامية كثيرا من العقلاء الذين هداهم الخلق النبوي ، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين ؛ إلى نبذ معبوداتهم ، والاصغاء لداعي الحق ، والاستماع لآيات الله البينات عاملين بها مخلصين دينهم لله وصاروا نورا يهتدى به إلى طريق التدين الصحيح ، فازداد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ولم يترك ﷺ وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها وأمر أصحابه بالاقتداء به والسير على منهاجه .

إن الدعوة إلى الله حياة الأديان وأنه ما قام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب ولا ثبت مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة ومن يمعن النظر فيما قصه الله ـ تعالى ـ في كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من أنباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد اتفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية ، وإخلاص العبادة لله ، والخضوع له ـ تعالى ـ والايمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال والترغيب في طاعة الله جل وعلا والترهيب من مخالفته وعصيانه والحث على التحلي بالأخلاق الحسنة والتحذير من الأخلاق السيئة .

ولقد كان المسلمون في الصدر الأول ولا سيما على عهد الخليفتين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يهتمون بأمر الدين وقد كانت خاصة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين صحبوا النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وتلقوا عنه متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الاسلام وحراسته ومقاومة كل ما يمس شيئا من عقائده وأحكامه وآدابه ومصالح أهله وممن أحرز قصب السبق في هذا المضمار الحسن البصري وأبو ادريس الخولاني وعمر بن عبدالله بن زرارة الهمداني كان يكنى أبا ذر وابن السماك وهو أبو العباس محمد بن صبيح وسفيان الثوري والامام ابن الجوزي ، هؤلاء وغيرهم كثير برعوا في الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى الحق .

ويندرج تحت هذا الفن : وعظ ، وتذكير ، وقصص ؛ فالوعظ والموعظة والعظة النصح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيدة : هو تذكيرك الانسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب .

وفي الاصطلاح : يطلق على القول الحق الذي يلين القلوب ويؤثر في النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة ، ويزيد النفوس المهذبة إيمانا

وهداية .

والتذكير : تعريف الناس نعم الله عز وجل عليهم وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والقصص : تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها والقَصَّاصُ من يفعل ذلك وهو في الغالب عبارة عمن يروي أخبار الماضين .

ومن هنا يكون الوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل ؛ وغايته صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين وفضله عظيم وشرفه جسيم فإنه متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ولما كان الانسان مركبا من الجسم والروح وكان كلاهما عرضة للأمراض والعلل كان لا بد محتاجا إلى طبين ومتشوقا إلى علاجين ؛ علاج الجسم وعلاج الروح ولا شك أن أفضل الطبين ؛ ما أصلح أشرف الجزأين .

ومعلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها وكثيرا ما تودي بحياتها إلى الهلاك إذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها .

والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها وقد يفقدها حياتها وذلك بورودها موارد الغي والضلال وانهماكها في اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهي وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور وسيئات البدع ونبذ الآداب الدينية ، والأخلاق المحمدية ، وارتكاب كل ما لا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح ومن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها .

وعلى الجملة فالدعوة إلى الله بالوعظ والارشاد هي العلاج الوحيد لصلاح العالم . والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به . ولا شك أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد وزاد البلاء وساء حال المجتمع الانساني .

ولقد أدرك العالم العماني الجليل والعلامة التقي الورع الحكيم الشيخ سالم بن عبدالله بن راشد آل بوسعيدي ـ رحمه الله ـ كل هذه الأمور التي سبق ذكرها وأدرك أهمية دور الدعوة والوعظ والارشاد في ذلك فقام ـ جزاه الله خير ما يجزي به الصالحين ـ بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة التي تصحح القلوب من أمراضها وتنبه العقول من غفلتها وتطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل وتنير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال وتتحلى بالفضائل والكمال .

والكتاب فيما حواه من علم غزير صورة واضحة لما كان عليه المؤلف من تقوى وعلم وورع حيث استطاع بما وهبه الله ـ عز وجل ـ من نور الحكمة وقاطع الحجة وساطع البرهان وقوة البيان ومتانة العلم أن يجعل من كتابه كنزا ثمينا مملوءا بأنفس الجواهر وأجمل الحلل التي يتحلى بها كل من سلك سبيل الدعوة إلى الله والتي أدرك هذا العالم الجليل عظم منزلتها وعلو قدرها من كتاب الله الكريم في قوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ .

والمؤلف في ذلك ينهج منهج الامام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) ، فقد جمع في كتابه القيم كل ما يحتاجه الانسان في أمر معاشه ومعاده

مستشهدا بالأدلة النقلية والعقلية محتجا على ذلك بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ثم جاء بما أثر عن الصحابة والتابعين كما ذكر لنا الكثير مما جاء ذكره على لسان الأنبياء السابقين مثل سيدنا عيسى وموسى وداود ـ عليهم السلام ـ وكثيرا ما يستشهد بأقوال الشعراء في الحكم والفضائل .

ولعلنا بذلك ندرك أهمية هذا الكتاب الذي يصنف بين أهم الكتب التي تعتبر المعين الذي لا ينضب للداعية والحجة القوية في الرد على المعارضين والمضللين والمرجع في الأحكام للفقهاء والمتفقهين ، وصدق الله جلت قدرته حيث يقول : ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾ .

كما ان هذا الكتاب يعطي دليلا واضحا على أن العمانيين لم يتركوا فنا من فنون المعارف والعلوم إلا طرقوه وألفوا فيه ، فقد أجادوا في الفقه والأحكام وفي الوعظ والارشاد وفي التفسير والحديث وفي اللغة والأدب والفلك وعلوم البحار وكل ما من شأنه أن يرقى بالانسان ويبلغ به درجة الكمال .

وكما يبدو من الصفحات الأولى للمخطوط الذي بين أيدينا يتضح أن المؤلف من علماء القرن الثاني عشر الهجري ، ولعل تاريخ الانتهاء من التأليف كان سنة نيف وسبعين وألف سنة للهجرة النبوية الشريفة .

وما أن بزغ ضوء النهضة المباركة حتى دبت الحياة في كل شيء ، وكان أن صدرت التوجيهات السامية لجلالة سلطان البلاد المعظم بطبع هذه المؤلفات لتجد طريقها الى المكتبات العالمية ، ولتكون شاهد عيان على النهضة العملاقة التي تشهدها السلطنة في كل المجالات ، ولله الحمد ؛ تلك النهضة الشاملة لكل ما على أرض عمان عمرانا وزراعة وعلوما ومعارف .

ولقد قدرت وزارة التراث هذه المسئولية الضخمة التي ألقيت على عاتقها فقامت بها خير قيام وعلى أكمل وجه فأصبحنا ولا يمر يوم إلا وبين يدي القارىء فن جديد من فنون المعرفة ومنارة جديدة يعم نورها ربوع هذا الوطن الغالي .

ولعلنا ندرك من نظرتنا لتاريخ تأليف هذا الكتاب عمق جذور المعرفة والثقافة والحضارة لهذا القطر العربي الاسلامي وما سار عليه أبناؤه منذ بزوغ فجر هذا الدين الحنيف .

فالمؤلف والحق يقال جمع في كتابه الذي سماه (الأخبار والآثار) من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وآثار وأقوال السلف الصالح ما به توجل القلوب ويزداد المؤمن إيمانا وينخلع قلب العاصي ويقشعر جلده ويسارع إلى التوبة والعمل الصالح .

خطة تحقيق الكتاب

بتوفيق الله وعونه تم تحقيق هذا الكتاب على نسخة دار المخطوطات والوثائق بوزارة التراث القومي والثقافة وهي بخط الشيخ الفاضل محمد بن سيف بن صالح المسكري الأزدي ، وقد تم نسخها - على ما يفهم من الصفحة الثانية من المخطوط - سنة نيف وسبعين وألف سنة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد نسخت بخط جيد جميل إلا أننا لاحظنا عليها ما يأتي :

تداخل الآيات القرآنية وعدم تنصيصها وكذلك الأحاديث النبوية ، كما أنه لوحظ سقط كثير من الجمل والعبارات أثناء النسخ ثم سجلها الناسخ بالهامش مما كان يصعب على القارىء في بعض الأحيان ربط هذه الجمل والعبارات بما قبلها وما بعدها .

كما أن هناك كثيرا من الكلمات أو أجزاء الكلمات التي سقطت من الناسخ دون الاشارة إليها وبعض العبارات التي فيها تقديم وتأخير مما قد يخل بالمعنى في بعض الأحيان .

فكان لزاما علينا وهذه الحال ضبط الآيات القرآنية وتنصيصها ووضع الهوامش لها وتحقيق الأحاديث النبوية وتصحيحها ووضع العبارات والجمل في مكانها الصحيح وإعادة الكلمات الساقطة ، كذلك توضيح معاني الكلمات التي وردت في الأحاديث والآثار من حيث اللغة وقد أشرنا إلى كل

ذلك بهامش الكتاب ولما كان الناسخ ـ جزاه الله خيرا ـ قد نسخ الكتاب دون مراعاة لترتيب الأبواب ترتيبا منهجيا حديثا ، وذلك تبعا لعلاقة كل باب وربطه بما قبله وما بعده ، فقد قمنا بترتيب هذه الأبواب ترتيبا علميا ، فارتأينا أن يقع الكتاب في جزأين ، يتضمن الجزء الأول كل ما يتصل بالعقيدة والعبادة ، ويتضمن الجزء الثاني كل ما يتصل بالفضائل وآفات الأعضاء والأخلاقيات والآداب والحكمة .

ولعلنا بهذا الجهد المقل نكون قد وفقنا للايفاء بحق هذا الكنز الثمين من تراثنا الانساني الحافل وإخراجه بالصورة المشرفة اللائقة بحجم هذا العمل الانساني الضخم .

والله نسأل أن ينفع به المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وأن يجزي القائمين على هذا العمل خير الجزاء إنه نعم المولى ونعم النصير .

محققه :
محمد الصليبي

الباب الأول

في فضيلة العلم

قال تعالى : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [٢] ، وقال الله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [٣] ، وقال ابن عباس : «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام» وقال الله تعالى : ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [٤] ، وقال الله تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون﴾ [٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [٦] ، رد حكمه في الوقائع الى استنباطهم فألحق رتبتهم برتبة الانبياء في كشف حكم الله .

وقال الله تعالى : ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ [٧]

---

١ - الآية ١٨ من سورة آل عمران
٢ - الآية ١١ من سورة المجادلة
٣ - الآية ٢٨ من سورة فاطر
٤ - الآية ٩ من سورة الزمر
٥ - الآية ٤٣ من سورة العنكبوت
٦ - الآية ٨٣ من سورة النساء
٧ - الآية ٤٩ من سورة العنكبوت

الأخبار

قال ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده»[1] .
وقال : «العلماء ورثة الانبياء» .

وقال عليه السلام : «يستغفر للعالم ما في السموات وما في الأرض»[2] ، وقال عليه السلام : «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارج الملوك» .

وقال عليه السلام : «افضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتيج إليه نفع وان استغني عنه أغنى نفسه» .

وقال عليه السلام : «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد» أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل .

وقال عليه السلام : «لموت قبيلة أيسر من موت عالم» .

وقال عليه السلام : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشهداء»[3] • وقال عليه السلام : «من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب» .

وقال عليه السلام : من حمل من أمتي أربعين حديثا لقي الله يوم القيامة فقيها عالما[4] ، وقال عليه السلام : «أوحى الله إلى إبراهيم يا ابراهيم اني عليم أحب كل عالم» .

---

١ ـ رواه البيهقي عن ابن مسعود
٢ ـ رواه ابن مسعود
٣ ـ رواه مسلم عن أبي هريرة
٤ ـ رواه أبو داود عن أبي هريرة

وقال عليه السلام : «العالم أمين الله في الارض» . وقال عليه السلام : «صنفان من أمتي اذا صلحوا صلح الناس : الأمراء والفقهاء» ، وقال عليه السلام : «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» ، وقال عليه السلام : «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء والعلماء والشهداء» . قال عليه السلام : «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه»[1]

وقال عليه السلام : «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجه» وقال : «انكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه العمل فيه خير من العلم وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه العلم فيه خير من العمل» وقال عليه السلام : «بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة»[2]

وقيل : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فقال : «العلم بالله عز وجل» قال : أي الاعمال تزيد ؟ قال : «العلم بالله عز وجل» فقيل : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم ؟ فقال : «إن قليل العمل ينفع مع العلم وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل» ، وقال عليه السلام : «يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ولم اضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم» وهم المخلصون الذين آثروا الآخرة على الدنيا قال النبي ﷺ : «من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة» ، وقال عليه السلام : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»[3]

---

[1] رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة
[2] رواه مسلم عن جابر
[3] رواه الربيع عن أنس

لأن

وقال : «لئن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة» ، وقال : «اطلبوا العلم ولو بالصين» ، وقال : «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل والعالم والمستمع والمحب لهم» ، وقال ﷺ : «لا ينبغي للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت عن علمه» ، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه : «حضور مجلس علم افضل من صلاة ألف ركعة وعيادة الف مريض وشهود الف جنازة» ، فقيل يا رسول الله : ومنْ قراءة القرآن ؟ قال : «وهل ينفع القرآن الا بالعلم»

وقال عليه السلام : من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة» .

الآثـــــار

داود

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ خير سليمان بن داوود بين العلم والمال ، والملك ، فاختار العلم ، فأعطي المال والملك معه .

وقال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل ان يرفع ، ورفعه ، ان يهلك رواته ، فوالذي نفسي بيده ، ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء ، ان يبعثهم الله علماء ، لما يرون من كرامتهم ، وإن أحدا لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها . وقال الحسن : في قوله تعالى : ﴿آتنا في الدنيا حسنة﴾ هي : العلم والعبادة ﴿وفي الآخرة حسنة﴾ هي : الجنة . وقال الاحنف : كاد العلماء ، ان يكونوا أربابا ، وكل عز لم يؤكد بعلم ، فإلى ذل مصيره ، وقال

رواه الشيخان عن ابن عمر

الآية ٢٠١ من سورة البقرة

. الآية ٢٠١ من سورة البقرة .

بعض الحكماء : اذا مات العالم ؛ بكاه الحوت في الماء والطير في السماء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقال ابن عباس : العلم أفضل من المال والعلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم لا يعطيه الله الا لمن أحبه والمال اكثر ما يعطيه الكفرة لقوله تعالى : **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة﴾**[1]

والعلم يزيد بالبذل والانفاق ، والمال ينقص بالبذل والنفقة ، وصاحب المال اذا مات انقطع ذكره والعالم اذا مات فذكره باق ، وصاحب المال يسأل عن كل درهم ، من اين اكتسبه وأين انفقه ، وصاحب العلم يرفع له بكل حديث أو مسألة درجة في الجنة .

قال ابن عباس : ذللت طالبا فعززت مطلوبا ، وكذلك قال ابن ابي مليكة : ما رأيت مثل ابن عباس اذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها ، واذا تكلم ، فأعرب الناس لسانا ، واذا أفتى ، فأكثر الناس علما .

وقال ابو الدرداء : لئن أتعلم مسألة ، أحب الي من قيام ليلة ، وقال أيضا . العالم والمتعلم شريكان في الخير ، وسائر الناس همج لا خير فيهم .

وقال ايضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابع . وقال عطاء : مجلس ذكر ، يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو .

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : موت الف عابد قائم الليل وصائم النهار أهون من موت عالم عاقل بصير بحلال الله وحرامه .

وقال الشافعي : طالب العلم أفضل من النافلة .

وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو الى العلم ليس بجهاد فقد نقص ،

---

١ ـ الآية ٣٣ من سورة الزخرف

رأيه وعقله .

وعن معاذ بن جبل يرفعه الى النبي ﷺ انه قال : «تعلموا العلم فإن تعليمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهل قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والضراء والوزير عند الاخلاء والقريب عند القرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة هداة يهتدى بهم أدلة في الخير تقتفي آثارهم وترمق اعمالهم ويقتدى بفعالهم وينتهى الى رأيهم وترغب الملائكة في صحبتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والارض ونجومها لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالس الملوك والدرجات العلى في الدنيا والأخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ويوحد وبه يعمل لله ويحمد وبه يتروع لعله - يتورع - وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال والحرام وهو امام والعمل تابعه يلهمه الله السعداء ويحرمه الاشقياء»(1)

فصل
في فضيلة العلم

يا عليّ عليك بمذاكرة أهل العلم فإنهم يعرفونك بالحلال والحرام ، يا عليّ ، عليك بملازمة العلماء ومراحتهم بالركب ، فإن العلم يحيي القلوب الميتة بنور الايمان كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر .

يا عليّ عليك بمجالسة العلماء الفضلاء ، أهل الخشية ، فإنها تفيدك

---

١ - رواه الخطيب عن معاذ وورد ذكره في الجامع .

استعدادا ، لتحصيل الكمالات ، واستنباطا للمجهولات ، وعليك بتعظيم الفقهاء وتكثير العلماء فإنه من اكرم فقيها لقي الله تعالى وهو عليه راض .

وأسعد الناس من خالط كرام الناس ، وليس أحد أكرم عند الله بعد الأبنياء من العلماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، ولم يخلفوا دينارا ولا درهما ، وإنما خلفوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بإرث الأنبياء وحشر معهم ، وليسوا بأرفع درجة منه الا درجة واحدة ، ومن أهان فقيها لقي الله وهو عليه غضبان ومن صافح عالما أو طالب علم فإنما صافحني وحرم الله جسده على النار ، ومن اكرم عالما أو متعلما فكأنما اكرمني معهم . ومن إكرمني اكرمه الله بنعيم الجنة كرامة يقصر عنها الأولون والآخرون ، ومن زار عالما أو متعلما فكأنما زارني ، ومن زارني كنت له شفيعا يوم القيامة ، ومن مشى إلى عالم ولو قدمين وجلس معه ولو ساعتين وسمع منه ولو مسألتين أعطاه الله يوم القيامة جنتين ؛ مثل كبر الدنيا مرتين ، ومن كسا طالب العلم ثوبا كساه الله من ديباج الجنة حلتين خضراوين يتبختر فيهما بين الخلائق ، ومن ساعد طالب العلم ولو بدرهم واحد فكأنما أنفق سبعمائة درهم في سبيل الله تعالى .

والنظر الى وجه العالم والمشي إليه عبادة ، والنظر الى بابه ومصافحته عبادة .



الباب الثاني

في فضيلة العلم وتحريم الكتمان

القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾ (1) . وهو ايجاب التعليم . وقال تعالى : ﴿وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (2) وهو تحريم الكتمان . وكما قال في الشهادة : ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ (3) وقال تعالى : ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة﴾ (4) ، وقال تعالى : ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (5)

الاخـــبار (السـنة)

قال النبي ﷺ : «ما أتى الله عالما علما إلا أخذ عليه الميثاق كما أخذ على النبيين أن يبينوه ولا يكتموه» (6) .

---

1 ـ الآية ١٨٧ من سورة آل عمران
2 ـ الآية ١٤٦ من سورة البقرة
3 ـ الآية ٢٨٣ من سورة البقرة
4 ـ الآية ١٢٥ من سورة النحل
5 ـ الآية ٢ من سورة الجمعة
6 ـ رواه ابن نظيف في جزئه وابن الجوزي في العلل عن أبي هريرة .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من كتم علما آتاه الله . ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[1] ، وفي رواية عن رسول الله عليه السلام : انه قال : «إذا ظهرت البدع فعلى العالم ان يظهر علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الا أن يكون له عذر يقيه ولا يقبل منه صرف ولا عدل»[2] والصرف : الفريضة ، والعدل : النافلة .

وقال رسول الله ﷺ لما بعث معاذا الى اليمن : «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها»[3] ، وقال عليه السلام : «من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين نبيا صديقا» .

وقال عيسى عليه السلام : «من عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات» .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : «اذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة . فيقول العلماء بفضل علمنا تعبَّدوا وجَاهَدوا . فيقول الله عز وجل : أنتم عندي كبعض ملائكتي اشفعوا تشفعوا . فيشفعون ، ثم يدخلون الجنة» ، وقال عليه السلام : «ان الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعا من بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى لم يبق الا رؤساء جهال إن سئلوا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[4] .

وقال عليه السلام : «نعم الهدية ونعم العطية كلمة حكمة تسمعها فتطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة» .
وقال عليه السلام : «ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» .

---

١ ـ رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة

(٢) رواه الإمام جابر بن زيد عن الأخبار المقاطيع برقم ٩٤٣ .

٣ ـ رواه البخاري ومسلم من طرق عدة

٤ ـ رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو

وقال عليه الصلاة والسلام : «ما أفاد المسلم أخاه فائدة افضل من حديث حسن بلغه فبلغه» .

وقال عليه الصلاة والسلام : «كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة» .

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الى الله ويرغبون اليه ، والثاني يعلمون الناس . قال : «أما هؤلاء فيسألون الله إن شاء اعطاهم وان شاء منعهم . وأما هؤلاء فيعلمون الناس وانما بعثت معلما» ثم عدل اليهم وجلس معهم وقال : «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة أمسكت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ» ، فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثاني للنافع ، والثالث للمحروم منها .

وقال عليه السلام : «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا عن ثلاث علم ينتفع به وصدقة جارية وولد صالح يدعو له بالخير»[1] . وقال عليه السلام : «الدال على الخير كفاعله» .

وقال : «لا حسد الا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلط على انفاقه في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[2] . وقال عليه السلام : «على خلفائي رحمة الله» قالوا : ومن خلفاؤك ؟ قال : «الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله» .

---

١ ـ رواه مسلم عن أبي هريرة

٢ ـ رواه مسلم عن ابن مسعود وذكره (منهج الطالبين جـ ١)

الآثـــار

قال أبو سعيد : روى لنا أبو الحسن ـ رحمه الله ـ أنه قال : نظر المؤمن في كتاب ولو قبل موته بساعة زيادة له في دينه .

ومن مناجاة الله لموسى عليه السلام : (من دق في الدين نظره جل في القيامة خطره) وقال عمر : ـ رضي الله عنه ـ من حدث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذلك العمل .

وقال ابن عباس : معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر .

وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل .

وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة كل واحد مصباح زمانه ليستضيء به أهل عصره .

وقال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أي بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة الى حد الانسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنا . قيل : وما هو ؟ قال : ان تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

وقال يحيى بن معاذ : العلماء ارحم بأمة محمد من آبائهم وامهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الأخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره .

وقيل : علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الأمانة ، والوديعة ، والوصية ، والفتوى .

وقال بعضهم : كان أسرعهم الى الفتوى أقلهم علما ، وأشدهم دفعا أورعهم . قال : وكان شغل الصحابة في خمسة : قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك لما سمعوا من قوله ﷺ : «كل كلام ابن آدم عليه لا له الا ثلاثة ؛ أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر وذكر الله تعالى» . وقد قال الله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾[1] .

---

١ - الآية ١١٤ من سورة النساء



الباب الثالث

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء الدنيا

قال النبي ﷺ : «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلم» .

ويروى أنه قال ﷺ : «لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا» .
وقال ﷺ : العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم وعلم في القلب فذلك العلم النافع» . وقال أيضا : «يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق» وقال أيضا : «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار»[1] .

وقال أيضا : «من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا» وقال النبي ﷺ : «ان العالم يعذب عذابا يطبق به أهل النار استعظاما لشدة عذابه» أراد به العالم الفاجر .

قال ﷺ : «القضاة ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم وقاض قضى بالجور وهو لا يعلم فهما في النار»

---

١ - رواه ابن ماجة عن أبي هريرة و[illegible] في الجامع

وقال النبي ﷺ : «اذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا الارحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم»

وقال رسول الله ﷺ : «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا وطوبى للغرباء» فقيل : من الغرباء ؟ قال : «الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي والذين يحيون ما أماته الناس من سنتي» .

وفي خبر آخر : «هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم» .

وفي حديث آخر : «الغرباء ناس قليلون صالحون بين ناس كثير من يبغضهم اكثر ممن يحبهم» .

وقال عليه السلام : «هلاك امتي ، عالم فاجر وعابد جاهل وشر الأشرار شرار العلماء وخيار الأخيار خيار العلماء» . وقال ﷺ : «سيكون عليكم امراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد بريء ومن كره فقد سلم ومن رضي وتابع أبعده الله» . وقال رسول الله ﷺ : «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم» . وفي خبر عنه عليه السلام أنه قال : «الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا فإذا فعلوا ذلك فاتهموهم على دينكم» . وعنه عليه السلام أنه قال : «لا تزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمل قراؤ ها الى أمرائها وما لم يُزكِّ علماؤ ها فجارها وما لم يهن أشرارها أخيارها فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده وسلط عليهم جبابرة فساموهم سوء العذاب» .

وقال ﷺ : «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء» .

الآثـــار

وقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . فقالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ فقال : عليم اللسـان جاهل القلب واللسـان والعمل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم ، فقد جهل . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور به كما يدور الحمار في الرحى فيطوف به أهل النار فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه»(1) وانما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم .

وكذلك قال الله تعالى : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾(2) وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه : «مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع» .

وفي أخبار داود صلوات الله عليه : «إن أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي ، يا داود ؛ لا تسألن عني عالما اسكرته الدنيا فيضلك عن طريق محبتي أولئك قطاع طريق عبادي ، يا داود ؛ اذا رأيت لي طالبا فكن له خادما ، يا داود ؛ من رد إلي هاربا كتبته مجاهدا ومن كتبته مجاهدا لم أعذبه أبدا» .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة اذا طلب بهما الدنيا .

---

1 ـ رواه الطبراني وابن ماجة عن أبي سعيد

2 ـ الآية 145 من سورة النساء

وقال عمر رضي الله عنه : اذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه في دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب . وكتب رجل إلى أخ له إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم .

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآتمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين المحمدية ؟

وقال سهل : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء الا الاخلاص . وقال : الناس موتى إلا العلماء ، والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون مغرورون إلا المخلصين والمخلصون على وجل حتى يختم لهم بهم.

وقال سفيان الثوري : كانوا يتعوذون من فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة كل مفتون .

وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال : «من طلب علما مما يبتغي به وجه الله ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة .

وقال بعض السلف : العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين ، وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه .

وروى أبو الدرداء ؛ أن النبي عليه السلام قال : «أوحى الله إلى بعض الأنبياء : (قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم قلوب الذئاب السنتهم

أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر . إياي يخادعون وبي يستهزئون لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم حيران» .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، فلا ينتفع يومئذ بالعلم عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح، ينزل عليه قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك اذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله ينابيع الحكمة، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه فتظن أنه يخشى الله بلسانه ، والفجور بيّن في أعماله فما أخصب الألسن يومئذ وأجدب القلوب ! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا أن المعلمين علموا لغير الله والمتعلمين تعلموا لغير الله وفي الانجيل مكتوب : «لا تطلبوا علما حتى تعملوا بما علمتم» . وقال حذيفة بن اليمان : انكم في زمان من ترك عشر ما يعلم هلك وسيأتي زمان من عمل بعشر ما علم نجا وذلك لكثرة البطالين .

وقال كعب : يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوّفون ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بألسنتهم، يقربون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه اذا جالس غيره، أولئك الجبارون اعداء الرحمن . وقال وهب بن منبه لعطاء الخرساني : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون الى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم .

وقال ذو النون المصري : كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها، واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا وطلبا لها ، وكان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكسب الرجل بعلمه مالا .

وقال ابن مسعود : نزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا، وسيأتي قوم يثقفونه مثل الغناء ليسوا بخياركم، والعالم الذي لا يعمل كالمريض يصف الدواء والجائع يصف لذائذ الأطعمة ولا يجده .

وقال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ انما العلم الخشية . وقال الحسن : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله عليه حتى تعملوا ، فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية . وفي ذلك قال الله : ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ [1]

وفي الخبر : «مما أخاف على أمتي زلة العالم ، وجدال منافق في القرآن» .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : «أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : زلة العلماء وميل الحكماء وسوء التأويل» وروي عن جابر موقوفا ومرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال : «لا تجلسوا عند كل عالم الا عالما يدعوكم من الخمس الى الخمس، من الشك الى اليقين، ومن الرياء إلى الاخلاص، ومن الرغبة الى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة الى النصيحة» .

وقال يحيى بن معاذ : العالم اذا لم يكن زاهدا فهو عقوبة لأهل زمانه . وقال أبو الليث السمرقندي : يعرف العالم بعشرة أشياء : الخشية لله ، والنصيحة لله ، والشفقة على المتعلمين منه ، واحتمال الأذى منهم، وترديد المسائل لتفهيمهم صابرا على تعليمهم، يبرهم حد طاقته، حليما متواضعا لهم، عفيفا «يعني غير طماع في أموال الناس» مديما على النظر في الكتب، ويكون تعليمه لوجه الله وقلة الحجاب، بأن يكون بابه مفتوحا للوضيع والشريف والغني والضعيف، وأن يكون عاملا بعلمه معلما لغيره، خائفا من ربه، راضيا بقضائه وقدره وبما قسم له من الرزق، غير جاع للدنيا ولا طماع، ولا يخاف من سلطان ويقول الحق ولو كان مراً، ويقضي بينه وبين خصمائه بالقسط ولا يميل عنه [2] ولا يتواضع لأجل مال ولا جاه بل لوجه الله فقط، صادقا في أقواله

---

١ ـ الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

٢ ـ في الأصل اليه

وأفعاله،معينا للمظلوم على من ظلمه،ولا يأخذ رشوة،ويكون محبا لأهل الدين والصلاح،مبغضا لأهل المعاصي ناهيا لهم ويهديهم الى الخيرات ويريد بنشر العلم تكثير الفقهاء وتقليل الجهلة واظهار دين الاسلام،وتقوية قواعده،والفرق بين الحلال والحرام،خالصا لوجه الله الكريم،مقتديا بأفعال نبينا الرؤوف الرحيم،راغبا في الأخرة زاهدا في الدنيا الا فيما لا بد له منه وما يليق بحاله، متيقنا بما وعد الله من فضيلة العلم،راجيا ثوابه خائفا من عقابه .

فصـــــل

وعلى العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم عليه مما هو مأمور به ومسئول عنه ؛ من مراقبة الله تعالى ، واصلاح نفسه وقلبه ، وله في ذلك شغل شاغل عما يفرق همه ويقسي قلبه ، وينسيه ذكر ربه ، لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها ؛ مصحوب بالآفات التي تقدح في الاخلاص ، وإخلاص الأعمال شرط في وجود صحة القبول للأعمال .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾[1] يعني خالصا ، فسمي الخالص كثيرا ؛ وهو ما خلصت فيه النية لله تعالى ، ولا يوافق يوم القيامة أحدا ، أفضل من عالم زاهد ورع .

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار والحلم والصبر والتواضع ، وتواضعوا لمن تُعلِّمون ، وليتواضع لكم من يتعلمه منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه

---

١ ـ الآية ٤١ من سورة الأحزاب

قال : «علماء هذه الأمة رجلان : رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذلك يصلي عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون، يقدم على الله يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علما في الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا ، واشترى به ثمنا ، يأتي يوم القيامة ملجما بلجام من نار، وينادي مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علما في الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ به طمعا ، واشترى به ثمنا ، يعذب به حتى يفرغ من حساب الناس» .

عن معاذ بن جبل موقوفا ومرفوعا في رواية أن رسول الله ﷺ قال : «من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع» .

وفي الكلام تنويق زيادة ، ولا يؤمن على صاحبه الخطأ ، وفي الصمت سلامة وعلم .

ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره ، فذلك في الدرك الأول من النار .

ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان فإن رد عليه شيء من علمه أو تُهُوّن في شيء من حقه غضب ، فذلك في الدرك الثاني من النار .

ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا ، فذلك في الدرك الثالث من النار .

ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا ، فيفتي بالخطأ والله يبغض المتكلفين ، فذلك في الدرك الرابع من النار .

ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر بذلك علمه ، فذلك في الدرك الخامس من النار .

ومن العلماء ؛ من يتخذ علمه مروءة ونبلا في الناس ، فذلك في الدرك السادس من النار .

ومن العلماء ؛ من يستفزه الزهو والعجب فإن وَعَظ عنف وإن وُعِظ أنف ، وذلك في الدرك السابع من النار .

وقال الأوزاعي : شكت الطواويس ما تجد من نتن جيف الكفار ، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه .

وقال الفضيل : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة إلى النار قبل عبدة الأوثان .

وقال أبو الدرداء : ويل لمن لم يعلم مرة وويل لمن لم يعلم ولم يعلم ـ لعله ولم يعمل ـ سبع مرات.[1]

وقال حاتم الأصم : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ، ولم يعمل به ، ففازوا بسببه وهلك .

وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

وقال ابن السماك : كم من مذكر بالله ناسٍ لله ، وكم من مخوف من الله جريء على الله ، وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ، وكم من داعٍ إلى الله فار من الله ، وكم من تالٍ لكتاب الله منسلخ من آيات الله .

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : اذا زل العالم زل بزلته عالَم من الخلق .

وقال : ثلاث بهن ينهدم الزمان : إحداهن زلة العالم .

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ انه قال لعبدالله بن سلام : من أرباب

---

(1) روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو في مسند الإمام الربيع ، لكنه بهذه الرواية جاء في زوائد المسند .

العلم ؟ قال : الذين يعملون به . قال : فما ينفي العلم من صدور العلماء ؟ قال : الطمع .

وعن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أنه قال : (ما أكثر الأشجار وليس كلها مثمرة ، وما أكثر العلماء وليس كلهم بمرشد ، وما أكثر الثمار وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافعة) .

وعن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : إذا لم يعمل العالم بعلمه يستنكف الجاهل أن يتعلم ؛ لأن العالم إذا لم يعمل بالعلم لا ينفع العلم إياه ولا غيره وإن جمع العلم بالأوقار[1] .

وقال سفيان بن عيينه : ليس يحسن على الناس الجهل فمن عمل بما يعلم فهو من أعلم الناس ، ومن ترك العمل بما يعلم فهو جاهل .

وقال رجل للحسن البصري : إن فقهاءنا يقولون كذا . فقال الحسن : وهل رأيت فقيها قط ، إن الفقيه الزاهدُ في دنياه الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه .

ويقال : اذا اشتغل العالم بجمع الحلال صار العوام يأكلون الشبهة ، واذا صار العلماء يأكلون الشبهة صار العوام يأكلون الحرام ، واذا صار العلماء يأكلون الحرام صار العوام كفارا .

قال الفقيه : لأن العلماء اذا جمعوا الحلال والعوام يقتدون بهم في الجمع وهم لا يحسنون العلم فيقعون في الشبهة ، وإذا أخذ العلماء في الشبهة وتحذروا من الحرام فالجهال لا يميزون بين الشبهة والحرام ، فيقعون في الحرام ، وإذا جمعوا من الحرام ، فيقتدي بهم الجهال ويظنون أنه حلال فيكفرون ، إذ استحلوا الحرام .

---

١ ـ أي جمعه بالأحمال

ويقال : إذا كان يوم القيامة تعلق الجهال بالعلماء ويقولون : انتم قد علمتم فلم تذكرونا ولم تنهونا حتى وقعنا فيما وقعنا .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أي الناس أشر ؟ قال : «العالم إذا فسد» .

ويقال : إذا فسد العالِم يفسد بفساده العالَم .

وعن بعض الحكماء أنه قال : تعلُّم العلم في زماننا تهمة أي رغبة والاستماع مؤانسة ، والقول به شهوة ، والعمل به نزوع النفس .

وقال الفضيل بن عياض : إذا كان العالم راغبا في الدنيا حريصا عليها ؛ فإن مجالسته تزيد الجاهل جهلا ، والفاجر فجورا ، وتكسر قلب المؤمن ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾[1] .

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : هم أهل الكتاب فرقوا دينهم وحرفوا الكلم عن مواضعه فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم .

وقيل : شبهوا على ضعفائهم فشبه الله عليهم . ومن علامات علماء الآخرة ؛ أن لا يكون العالم يسارع الفتوى بل يكون متوقفا متحرزا ما وجد إلى ذلك سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث رسول الله ﷺ أو بإجماع الأمة أو بقياس جلي ؛ أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدري ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين رأي ؛ احتاط ودفع عن نفسه ، وأحال إلى غيره ، إن كان في غيره غنية . هذا هو الحزام ؛ لأن خطر تقليد الاجتهاد عظيم .

وكذلك قال جابر بن زيد ـ رحمه الله ـ : لقد أدركت جماعة من أصحاب

---

١ ـ الآية ٩ من سورة الأنعام

رسول الله ﷺ إذا سئل أحدهم عن حادثة أو نازلة ود لو أن أخاه كفاه فتياه ، فأصحاب رسول الله ﷺ يخافون من أن يسألوا فيجيبوا بما عندهم وأنتم تتصبون للناس وتسألونهم أن يستفتوكم ما أظنكم تحبون السلامة لأديانكم ، ولا تخافون العقوبة من ربكم ، فاتقوا الله واحذروا الفتيا فإذا سئلتم فإياكم أن تقدموا على ما ليس لكم به علم .

ومن علامات علماء الآخرة ؛ أن يكون العالم غير مائل إلى الترفه في المطعم والتنعم في الملبس ، والتجمل في الأثاث والمسكن ، بل يلزم طريقة الاقتصاد في جميع ذلك كما ذكر أبو الحر علي بن الحصين ـ رحمه الله ـ في رسالته إلى الامام عبدالله بن يحيى الكندي ـ رحمه الله ـ قال فيها : فالله الله يا أخي أن تعمى بعد البصر وتضل بعد الهدى وبعد معرفة الاسلام وبعد الاخلاص لله بالتقوى ، فإن أولي الألباب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب ، ولم يكونوا أهل نسيان ولا غفلة ولا أهل راحة ولا فترة ولا أهل تلذذ بالدنيا ومطايب عيشها ، ولم يكونوا أصحاب نعيم ولا فخر ، ولا أهل إبل ولا بقر ، ولا أصحاب خيلاء ولا كبر ، ولا أهل رغبة ، ولا أهل ولا ولد ؛ إلا ما أعطاهم الله ـ تعالى ـ تخوفا أن يفسدهم ذلك عن الله فيأشروا ويبطروا ، ويمرحوا ، ويشغلهم ذلك عن الذي وكلوا به والذي هم به معنيون ، فكان الأقل من الدنيا أحب اليهم من الأكثر ، وكان الجوع أحب اليهم من الشبع ما لم يجهدوا وهم في الشبع على أنفسهم أخوف ، وفي الجوع أرجى وأذكر ، وكان الفقر أحب اليهم من الغنى وهم في الفقر أعبد وأتقى وفي الغنى أنسى لله وأعصى لضعفهم عن الشكر وحبسهم ما ليس لهم ، واستئثارهم به الرجاء الذي رجوه من الأجر في البلاء ، يخافون من الاثم في الرخاء ، ولم يكونوا بطالين بالعشي[1] والضحى ، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

---

١ ـ أي متعطلين بالليل والنهار

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون العالم شديد التوقي في محدثات الأمور وان اتفق عليه الجمهور ، فلا يغره اطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثرهم ، إن كان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولايات وتولي الأفات ـ لعله الأوقاف والوصايا ومال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ـ أو كان أكثرهم في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ، ومراقبة الباطن والظاهر ، واجتناب دقيق الاثم وجليله ، والحرص على ادراك خفيات شهوات النفس ومكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن ، ويعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف ، فمنهم أخذ الدين ولذلك قال علي : أخيارنا أتبعنا بهذا الدين .

وأما علماء الدنيا : فإنهم يتبعون غرائب التفريع في الحكومات والأقضية ، ويتعنون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم وإن وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل والنهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع منهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثارا للقبول والتقرب من الخلق على القرب من الله ـ تعالى ـ ؛ وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل تكدر عليه صفوة نوائب الزمان ، ثم يرد يوم القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العاملين ، وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين .

وقال سعيد بن المسيب : اذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه ؛ فإنه لص .

وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض الى الله من عالم يزور عاملا[1] .

وقال ميمون : ما أسمج[2] بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد ، ويسأل

(١) أي عاملاً من العمال ، كأنه يعني ... الخ
(٢) أسمج : أقبح .

عنه فيقال : إنه عند الأمير . قال : وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم .

وفي موضع آخر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم ؛ فإن كل محب يخوض فيما أحب .

ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني اسرائيل ، يخبرون السلطان بالرخص وما يوافق هواه ، ولو أخبروه بالذي عليه ، وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم ، وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم .

وعن الحسن قال : كان رجل يغشى هذا السلطان وكانت له منه منزلة ، فلزم بيته ورفضهم ، فكلمه بنوه وقالوا له : تركت حظك من السلطان ومنزلتك منه ، فلم يلتفت إليهم فقالوا : والله لئن دمت على هذا لتموتن هزلا . فقال : والله لئن أموت هزلا أحب إلي من أن أعيش فاسقا سمينا .

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن : أما بعد ؛ فأشر علي بقوم أستعين بهم على أمر الله ـ تعالى ـ ، فكتب إليه : أما أهل الدين ؛ فلم يريدوك ، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة .

وقال علي ـ في خطبته ـ : ذمتي رهينة وأنا زعيم لمن صرحت له العبر أن لا يُهيّج على التقوى زرع قوم ، ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله رجل قمش[1] علما أغار في أغباش[2] الفتنة سمّاه أشباه الناس وأراذلهم عالما ، ولم يغن في

---

١ ـ جمع العلم من هنا وهناك

٢ ـ ظلام الفتنة

العلم يوما سالما ، نكر فاستكثر مما قل منه خير مما كثر حتى اذا ارتوى من آجن ، واكتنز من غير طائل ، وجلس للناس مفتيا لتلخيص ما التبس على غيره ، وإن نزلت به احدى المبهمات هيأ حشو الرأي من رأيه فهو من قطع الشبهات في مثل غزل العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب، ركّاب جهالات خبّاط عشوات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، ويذرو الرواية ذرو الريح الهشيم تبكي منه الدم ، ويستحل بقضائه الفرج الحرام ولا ملئ والله بإصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لما فرط به، أولئك الذين حلت عليهم المثلات، وحقت عليهم النياح والبكاء أيام حياة الدنيا .

وقال علي أيضا : إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب .

وقال بعض السلف : من ضحك ضحكة مج من العلم مجة .

وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة به على المتعلم : الصبر ، والتواضع ، وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة به على المعلم : العقل ، والأدب ، وحسن الفهم .

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء وكان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ : يا أخي ؛ بلغني أنك قعدت طبيبا تداوي المرضى ، فإن كنت طبيبا فتكلم فإن كلامك شفاء ، وإن كنت متطببا فالله الله لا تقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل .

وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة ، فمن أين أخذته ؟ فقال : خصني به رسول الله ﷺ ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني ، وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وفي لفظ آخر ؛

كان الناس يقولون : يا رسول الله ؛ ما لمن عمل كذا وكذا ؟ فيسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله ؛ ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم . فكان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن . فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بأعداد من بقي ، ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر يسأله عن نفسه ؛ هل يعلم به شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك .

وكان عمر إذا دعي إلى جنازة نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها ، وإلا ترك . فكان يسمى صاحب السر .

وقال الحسن : محُدثان أحدثا في الاسلام : رجل ذو رأي سوء ، زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف يعبد الدنيا ، لها يغضب ولها يرضى ، وإياها يطلب ، فارفضوهما إلى النار .

وقد روي عن ابن مسعود موقوفا ومسندا أنه قال : انهما اثنان : الكلام والهدى . فأحسن الكلام ، كلام الله ـ تعالى ـ ، وأحسن الهدى ، هدى محمد ﷺ ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها وإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، الا كل ما هو آت قريب الا إن البعيد ما ليس بآت .

وفي خطبة النبي ﷺ : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكمة وجانب أهل الذل والمعصية ، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة» .

وكان ابن مسعود يقول : حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير

العمل . وقال : أنتم في زمان ؛ خيركم فيه المسارع إلى الأمور ، وسيأتي بعدكم زمان يكون خيركم المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات .

وقال أيضا : أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم ، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم تابعا للهوى .

وقال حذيفة : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وأن منكركم معروف زمان قد أتى ، وأنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق ، وكان العالم فيكم غير مستخف به .

ولما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري وقال : يا مروان ؛ ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة ؛ هي خير مما تعلم ، إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت .

فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم والله لا صليت وراءك اليوم ، وإنما أنكر ذلك ؛ لأن رسول الله ﷺ كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر . وفي الحديث المشهور : «من أحدث في ديننا هذا ما ليس فيه فهو رد»[1] .

وفي خبر آخر : «من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» قيل : يا رسول الله ؛ وما غش أمتك ؟ قال : «أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها» .

وقال ﷺ : «إن لله ـ تعالى ـ ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله لم تنله شفاعته» .

وقال بعض العلماء : ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء ،

---

١ ـ رواه مسلم عن عائشة

وما سكت عنه السلف ، فالكلام فيه تكلف .

وقال آخر : الحق ثقيل من جاوزه ظَلَم ، ومن قصر عنه عجز ، ومن وقف معه اكتفى .

وقال ابن عباس : إن الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها . وقال سهل الشتري : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، واستماع كلام أهل الغفلة ، وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله بل ينبغي أن يتهم في كل ما يقول ؛ لأن كل انسان يخوض فيما أحب ، ويدفع ما لا يوافق محبوبه .

وقال أبو معاوية عزان بن الصقر في سيرته بعد نسبه : أئمة المسلمين نسأل الله اللحاق بهم والاتباع لهم والأخذ بسنتهم وأن يجعلنا ممن يطلب العلم للعمل ولا يطلبه للجدل فإنه أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض لمن أراد الله هدايته ، وهو زين لمن يعلمه يريد به رضاء ربه فعلمه وعمل به فهو زين له في دنياه ونجاة له في عقباه ذلك للعاملين ما علمهم الله لم يتعلموا العلم لطلب رئاسة ولا لسياسة ، ولا طلبوا به شرف المنازل ، ولا للمطامع ، ولا للمآكل ، ولا يطلبون أن يكونوا به يكرمون ، ولا به إلى السلطان يتقربون ، قد أكرموه عن الأدناس ، ولم يتقربوا به إلى الناس ، فأولئك زادهم الله علما وزادهم حلما وفهما،فهم أولي العلم ممن أراد به تقربا إلى السلطان وأمكن من نفسه كيد الشيطان ، فسعى به اليهم وتوسل به عندهم ، وكان جمعه للعلم لهم ، فأولئك قد جعل الله لهم في القلوب البغض وأولئك قد استحقوا من الله السخطة ، فلا جعلنا الله كذلك ، ولا على سبيل أولئك .

وعن ابن عباس أنه قال : لو أن أهل العلم أخذوه بحقه لأحبهم الله وملائكته والصالحون من عباده ولها بهم الناس ، ولكن طلبوا الدنيا فهانوا على الناس .

وعن ابن مسعود ـ رحمه الله ـ قال : لو أن أهل العلم وضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم ولكن وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا منهم فزهدوا فيهم .

وعن وهب بن منبه أنه قال : من طلب الدنيا بعمل الآخرة نكس الله قلبه وجعل اسمه في أهل النار .

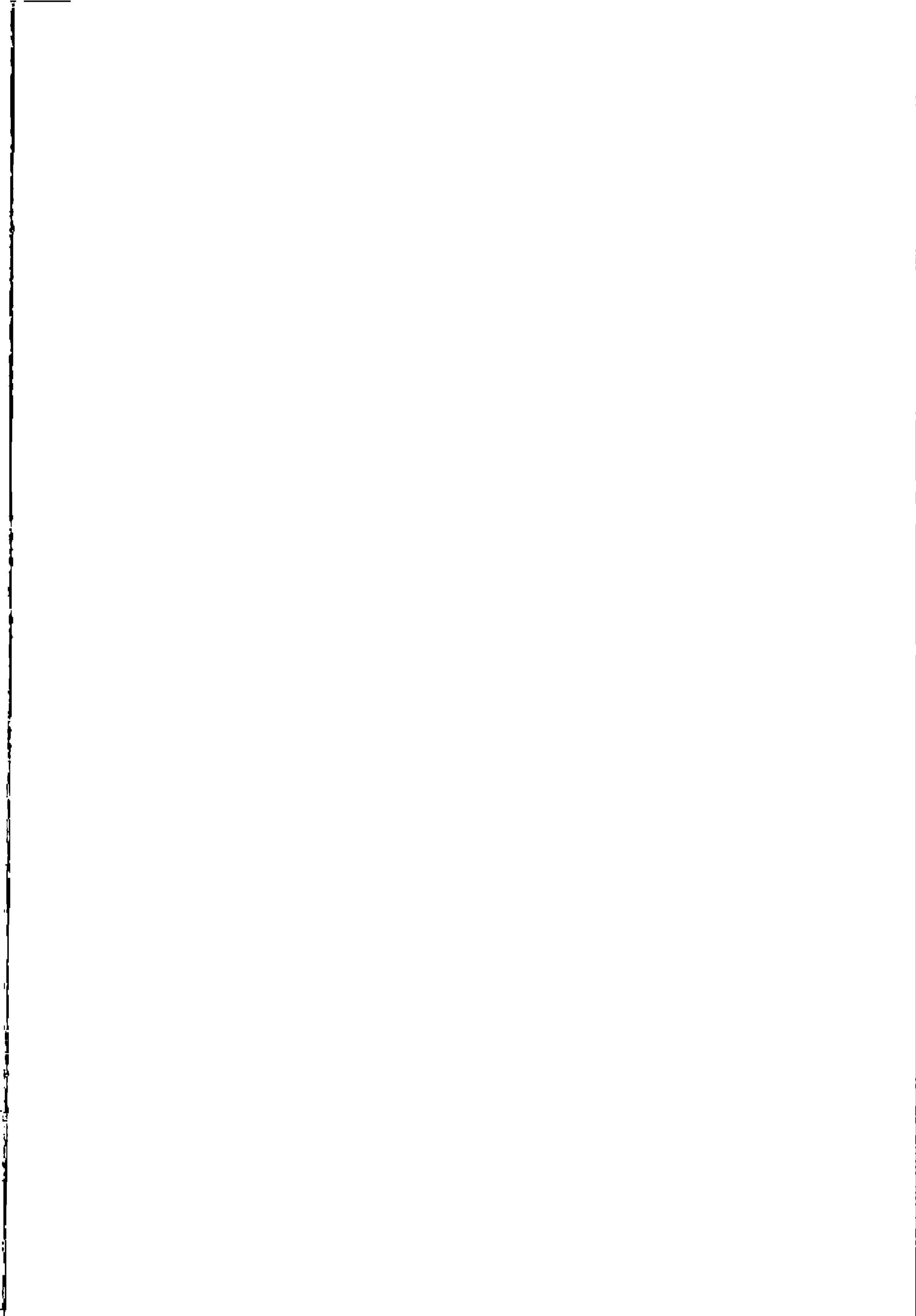
جابر بن زيد في قوله ـ تعالى ـ : **﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾**[1] قال : هم علماء السوء .

وجاء عن النبي ﷺ : «من أكل بعلمه جاء يوم القيامة وليس في وجهه مغرة لحم»[2] .

---

١ ـ الآية ٦٩ من سورة مريم

٢ ـ مغرة : الطين الأحمر



الباب الرابع

في العقل

الأخبـــار

قال ﷺ : «إن أحب المؤمنين إلى الله من أنصف نفسه في طاعة الله ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه وأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح ونجح» .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «علم الرجل وعقله محسوب من رزقه» وقيل : إن عقول كل أمة على قدر ما بهم .

وقال ـ عليه السلام ـ : «أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم» .

وعنه ﷺ : «العقل عقلان : دنياوي وأخراوي ؛ فأما عقل صاحب الدنيافعقيم ـ أي لا ينتفع به ـ وأما عقل صاحب الأخرة فمثمر» .

وقال ﷺ : «أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل وجد المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله أوفرهم عقلا» .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ولكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن وعدته العقل،ولكل شيء مطية ومطية المؤمن العقل،ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل،ولكل قوم غاية وغاية العبادة العقل،ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل،ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل،ولكل أهل بيت قيِّم وقيِّم بيوت الصديقين العقل،ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل،ولكل امرىء عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل،ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل» .

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله»[1] .

وعن النبي ﷺ : «خالطوا الناس في أخلاقهم وخالفوهم في أفعالهم» .

وقال ﷺ : «أول ما خلق الله ـ تعالى ـ العقل فقال له : أقبل فأقبل ثم قال : أدبر فأدبر ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك ، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب» قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2] .

الآثــــار

قالت العلماء : العقل جوهر مضيء خلقه الله ـ تعالى ـ وأنزله في الدماغ وجعله نورا في القلب يدرك الغايات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة وحقيقة ما يبعدك عن مراتع المهلكات ويعرف بها عواقب الأمور بعلوم تستفاد ،

---

١ ـ رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري

٢ - الآية ٢٤ من سورة الروم

وقيل : العاقل إذا والى بذل في المودة نصره ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويختصم معاديه بعدله إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بشكره ، وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر ومنح له العفو والصفح .

وقال النبي ﷺ : «يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا به ما أمرتم به وما أنهيتم عنه، واعلموا أنه يمجدكم عند ربكم، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وان كان دميم المنظر حقير الخطر دنيء المنزلة رث الهيئة، وأن الجاهل من عصى الله ـ تعالى ـ وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نظيفا ، والقردة والخنازير أعقل عند الله ممن عصاه، ولا تغتروا بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنكم من الخاسرين» .

وروي أن الله ـ تعالى ـ أرسل جبريل إلى آدم ـ عليهما السلام ـ بالعقل والايمان والحياء . فقال له : اختر أيها شئت ، فاختار منهم العقل . فقال جبريل للايمان والحياء : انصرفا فقد اختار عليكما العقل ، فقال الايمان : أمرني ربي ـ عز وجل ـ أن أكون حيث يكون العقل لا أفارقه أبدا . وقال الحياء : أمرني ربي ـ عز وجل ـ أن أكون حيث يكون الايمان لا أفارقه أبدا . فاجتمعت هذه الخصال الثلاث في آدم ـ عليه السلام ـ .

وفي الخبر : مثل هذا الدين كالشجرة المثمرة في الحديقة ؛ الايمان أصلها ، والصلاة عمودها ، والزكاة ماؤها ، والحج أوراقها ، والأمر بالمعروف ظلها ، والنهي عن المنكر منارها ، وحسن الخلق ثمرها ، ولا يكمل الايمان إلا بالخلق الحسن ، والدليل على صحة جلالة العقل وعلوه وشرفه ؛ أن لله على عباده شيئين ؛ وهما الأمر والنهي ، وكلاهما موقوفان على العقل كما جاء في محكم التنزيل : ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾[1] وأولو الألباب هم أهل العقول .

---

١ ـ الآية ١٠٠ من سورة المائدة

وقال بعض الحكماء : العاقل من تمسك بثلاثة أشياء إلى ثلاثة أشياء : من تمسك بالصدق والاخلاص فيما بينه وبين الله في الطاعات ، ومن تمسك بالصبر والقناعة فيما بينه وبين نفسه في النوائب والبليات، ومن تمسك بالبر والمروءة فيما بينه وبين الخلق في المعاملات فهو العاقل حقا .

وقال حكيم : للعاقل سبع علامات يعرف بها: هو أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه، وأن يتواضع لمن دونه، وأن يسابق إلى فعل الخيرات إلى من هو أعلى منه، وأن يذكر ربه دائما، وأن لا يتكلم إلا عن العلم، وأن يعلم منفعة الكلام من موضعه ، وإذا وقع الشر التجأ إلى الله .

ويقال : شهوة العاقل من وراء فكرته ، فإذا عرضت له شهوة سبقتها فكرته في العواقب ، وفكرة الأحمق وراء شهوته فهو يبادر إلى الشهوات غير مفكر فيما يجره من الآفات ، وأرباب الغفلة لا فكرة لهم في الآخرة وهمهم ما يأكلون ويلبسون وينكحون ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (١) .

---

١ - الآية ٧ من سورة الروم

الباب الخامس

في فضائل الايمان وفوائد الذكر

الآثـــار

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلا قام إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أنا ولا فخر» ثم قال الرجل : ثم من يا رسول الله ؟ قال : «اذا عد الصالحون فأت بأبي بكر» قال : ثم من يا رسول الله ؟ قال : «اذا عد المجاهدون فأت بعمر بن الخطاب» ثم قال رسول الله ﷺ : «عمر مني حيث حل وأنا من عمر حيث حللت فمن أحب عمر فقد أحبني ومن أبغض عمر فقد أبغضني» فلما قبض النبي ﷺ قام ذلك الرجل إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا خليفة رسول الله ؛ من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : عمر بن الخطاب . فقال : لأي شيء قدمته على نفسك ؟ قال : لخصال ؛ لأن الله ـ تعالى ـ باهى به الملائكة ولم يباهِ بي ولأن جبريل ـ عليه السلام ـ أقرأه السلام ولم يقرئني ولأن جبريل ـ عليه السلام ـ قال : يا محمد ؛ أشدد الاسلام بعمر والقول ما قال عمر ولأن الله ـ تعالى ـ صدقه في كتابه ولم يصدقني .

وعاتب رسول الله ﷺ بعض نسائه فأتاهن عمر بن الخطاب فقال :

لتنتهين عن رسول الله ﷺ أو لينزلن فيكن قرآن ، فأنزل الله - عز وجل - : **﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن﴾** [1] (الآية) ، ولأن عمر قال : يا رسول الله ؛ ليدخل عليك البار والفاجر فلو ضربت الحجاب . فأنزل الله : **﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾** [2] . ولأنه قال : لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى ، فأنزل الله - تعالى - : **﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾** [3] .

فلما قبض أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - قام ذلك الرجل إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ؛ من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر الصديق فمن قال غير هذا فهو مفتر عليه ، وعليه ما على المفترين .

وقيل : ان جبريل أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجرا [4] بعمامة من استبرق ، فقال : يا محمد ؛ من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ قال : فقام رسول الله ﷺ سريعا يجر ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات .

وعن علي بن أبي طالب ، أن الايمان يبدو لمظة بيضاء في القلب كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل الايمان ابيض القلب كله ، وأن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب كلما ازداد النفاق ازداد السواد في القلب ، فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله .

وقيل : لا يكون الرجل من المؤمنين حتى يحاسب نفسه أشد محاسبة شريكه ، وحتى يعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه من حلاله أو من حرامه .

---

١ - الآية ٥ من سورة التحريم

٢ - الآية ٥٣ من سورة الأحزاب

٣ - الآية ١٢٥ من سورة البقرة

٤ - معتجراً : لاوياً العمامة على رأسه .

وروي عن النبي ﷺ قال : «إن الايمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[1] .

المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين هم عنده . وكان جابر - رحمه الله - يقول : ما وضع الله نور الايمان في قلب عبد إلّا جادت يداه .

عن النبي ﷺ : «طوبى لمن زارني - لعله رآني - وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى - سبع مرات - لمن آمن بي ولم يرني» .

وقال النبي ﷺ : «هذا الدين مثل شجرة نابتة ؛ الايمان بالله أصلها ، والصلاة عروقها ، والزكاة ماؤها ، والصيام شعبها ، وحسن الخلق ورقها ، والكف عن محارم الله ثمرها ، فكما لا تكمل الشجرة إلا بالثمر الطيب فكذلك الايمان لا يكمل إلا بالكف عن محارم الله» .

وقيل : علامة السعيد ثلاثة ؛ إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وما طبع الله أولياءه إلا على الخوف والمقام المحمود، فهم أولى الناس عهودا ، وأصدقهم وعودا، وأبرهم وأكدهم في الشدة والرخاء، لا يضيمون جارا ، ولا يطلبون ثأرا، ولا يدينون بالحسد، ولا يعيلون على أحد، أبدانهم مع الناس حاضرة ، وقلوبهم متعلقة بالآخرة ، قد شغلوا عن الناس بشأنهم، تفكروا في احسانهم وإساءاتهم، نعيمهم في الدنيا، ولذتهم ذكر الله، ومناجاتهم وخلوتهم ، فمن تبعهم نجا ونال كما رجا، فهو من أوفى لله لما أوثقه فأظمأ لله هواجره[2] ، واسهر لله نواظره، صابرا قائما قانتا لله محتسبا في طاعة مداوما، فأوجب الله لهم الرضاء، وحكم لهم بالجنة وقضى .

ومن أوصافهم تطهير النفس من كل خلق دنيء ، وتحليتها بكل سَنِيٍّ ،

---

١ - رواه الديلمي

٢ - جمع هاجرة وهو وقت الحر الشديد

يتحملون الأذى ولا يؤذون ، ويحملون كَلّ[١] الناس ، ولا يحملون كَلَّهم على أحد ، ويعينون على أسباب البر ، ويغيثون الملهوف ، ويرشدون الضال ، ويعلمون الجاهل ، وينبهون الغافل ، لا يتخذون حجابا ولا حجابة ، وكل من طلبهم وجدهم ، وكل من أرادهم وصل إليهم ، لا يستترون عن أحد ، ولا يمنعون سائلا ، يَقْرُون الضيف ويؤنسون المستوحشين ، ويؤمنون الخائف ، ويشبعون الجائع ، ويسقون العطشان ، ويكسون العاري ، ويعينون الخادم ، ولا يتركون فضيلة ، ولا يفعلون رذيلة ، ومن أحوالهم ؛ النظر في عيوبهم والاشتغال بنفوسهم والتغافل عن عيوب الناس ، ولا يعتقدون في أحد إلا خيرا ، يعودون ألسنتهم بالخير ، ويغضون البصر عن فضول النظر ، والاسراع في المشي ، والصمت إلا عن الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن أحوالهم نشر محاسن الناس ، وستر عيوبهم ، إلا المبتدعة ، فيجب على كل أحد التعرف بحالهم ليأخذ الناس حذرهم منهم .

ومن أحوالهم ؛ أنهم لا يحسدون ، ولا يحرصون ، ولا يغتابون ، ولا يرتابون ، ولا يبطرون ، ولا يفخرون . كلامهم حكمة ، ونظرهم عبرة ، وصمتهم فكرة ، ليست لهم راحة ولا فترة عن ذكر الله ، كلامهم سداد وعيشهم سداد ، لا يخوضون إلا في حرمة الموفقة في المعاش المطلبة والمصلحة عيشهم ولا يتمتعون إلا لتزود معادهم ، لا ينامون إلا عدة لعبادته ، ولا يأكلون إلا بلاغا إلى آجالهم ، ولا يكتسبون إلا تعففا ، ولا ينفقون إلا تعطفا ، ولهم في كل حركة نية ، وفي كل طاعة همة ، وفي كل صالحة مهمة ، عشقوا الجنة وهاموا بها ، فلا يهمهم إلا ما يقربهم إليها أو يقربها إليهم يَهْذُون[٢] بذكرها ، ويهيمون بحبها ، أطالوا فيها فكرهم ، وصدقوا فيها همتهم

---

٢ - يهذون بذكره : هذّ الشيء هذّا ، وهذْذا : قطعه سريعا ، و - القرآن : أسرع في قراءته (وهو غير محمود) ، و - الحديث : سرده . هذى فلان : هذْيا وهذيانا : تكلم بغير معقول أو غيره فهو هاذٍ وهذّاء ، ويقال : هذى فلان بالشيء إذا ذكره في هذيانه .

١ - كلّ الناس : العيال والثقل .

حتى صارت لهم بالمغيب رأي العين ، فهم ينظرون إلى زهرتها وبهجتها وبسطها ونمارقها وزرابيها[1] ورياضها وحدائقها وحجالها وظلالها وغرفها وشرفها ، فهانت عليهم الدنيا في جنبها، ووجدوها محفوفة بالمكاره والشدائد، فعلموا أن لا وصول إلى ذلك دون احتمال المشقة، والصبر على المضرة، ومجاوزة ما حولها من الأهوال ، وما دونها من الأوجال ، فشمروا وجدوا في المطالب ، ووطنوا أنفسهم على البلايا والمصائب ، واشتروها بأنفسهم ، واتقوها بأبدانهم ، وتلقوها بوجوههم حتى بلغوا ما أرادوا ووصلوا ما استكادوا ، طوبى لهم لقد فازوا فوزا عظيما وأثيبوا بما صبروا ثوابا جزيلا ، إن لأهل الجنة لسيما[2] يعرفون بها ، قوم صاموا عن الدنيا واستشعروا التقوى فصبروا على البلوى وصدقوا بالحسنى ، وعملوا للعقبى ، عزفوا عن الشهوات ، وتورعوا عن الشبهات ، رهبان الليل أحبار النهار، قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون .

وفي الأثر : إن العبد المطيع الذاكر لله ـ تعالى ـ إذا أصابته شدة أو سأل الله حاجة قالت الملائكة : يا رب ؛ صوت معروف من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله إذا دعاه أو سأله قالت الملائكة : يا رب ؛ صوت منكر من عبد منكر . ولا عمل من الأعمال أنجى منه من عذاب الله ، وهو للعبد سبب لنزول السكينة عليه وحفوف الملائكة ونزولها لديه ، وهو للسان شاغل عن الغيبة والكذب وكل باطل ، والذاكر لا يشقى جليسه ، ويسعد به أنيسه ، ومجلسه لا يكون عليه حسرة يوم القيامة ، ولا يكون عليه تره[3] ولا ندامة .

والذاكر حي وإن مات ، والغافل وإن كان حيا فهو من الأموات .

والذكر لله يطرد الشيطان ويقمعه، ويكسره ويمنعه، ويرضي الرحمن

---

١ ـ النمارق : الوسائد التي يتكأ عليها والزرابي : البسط الفاخرة (٢) سيما : علامات

٣ ـ المراد بالتره الظلم

ويسخط الشيطان، ويزيل الهم والغم من القلب، ويجلب الفرح والسرور، ويذهب الترح[1] والشرور، ويقوي القلب والبدن، ويصلح السر والعلن، ويجلب الرزق وييسره، ويكسو الذاكر مهابة ويلهم به من كل صوابه، وهو أعز شرف وأعلى مجد، وبه يحيا القلب كما يحيا الزرع بوابل المطر، وهو قوت الأرواح كما أن الغذاء قوت الأشباح، وجلاء القلب من الصدأ الذي هو الغفلة واتباع الهوى، وهو شجرة ثمرتها المعارف، وهو رأس مال كل عارف، والله مع الذاكرين بالقرب والولاية والمحبة والتوفيق، ويعدل عتق الرقاب، والجهاد في سبيل الله والمشقات الصعاب، والقتل في سبيل الله، والعطب

وانفاق الورق والذهب، ويورث القرب من الرب، ويفتح باب المعرفة في القلب، وهو سبب للعتق من النيران، والأمان من النسيان، جالب للنعم ودافع للنقم، ويقوي الجوارح ويسهل العمل الصالح، أمن للخائف ونجاة من المتالف، تشهد له البقاع كما تشهد لكل عامل عصى وأطاع، يرفع العامل إلى أرفع الدرجات ويوصله إلى أعلى المقامات، ويجمع على الذاكر قلبه المتفرق وشمل ارادته وعزمه المتمزق، ويفرق جرمه وذنبه وجند الشيطان وحزبه، ويقرب من قلبه الآخرة، ويبعد عن قلبه الدنيا، ومن لم يزل لسانه رطبا بذكر الله ـ تعالى ـ واتقاه في نهيه وأمره أوجب له دخول الجنة.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾[2] تطاول إبليس ـ لعنه الله ـ وقال: أنا شيء من الأشياء يكون لي نصيب من رحمته، وتطاولت اليهود والنصارى، فلما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾[3] يعني أجعل رحمتي للذين يتقون الشرك ويؤتون الزكاة يعني يعطون الزكاة ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[4] يعني يصدقون بآيات الله ـ تعالى ـ فيئس إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ من رحمته،

---

١ - الترح: الحزن، وهو ضد الفرح.

٢ - الآية ١٥٦ من سورة الأعراف

٣ - الآية ١٥٦ من سورة الأعراف

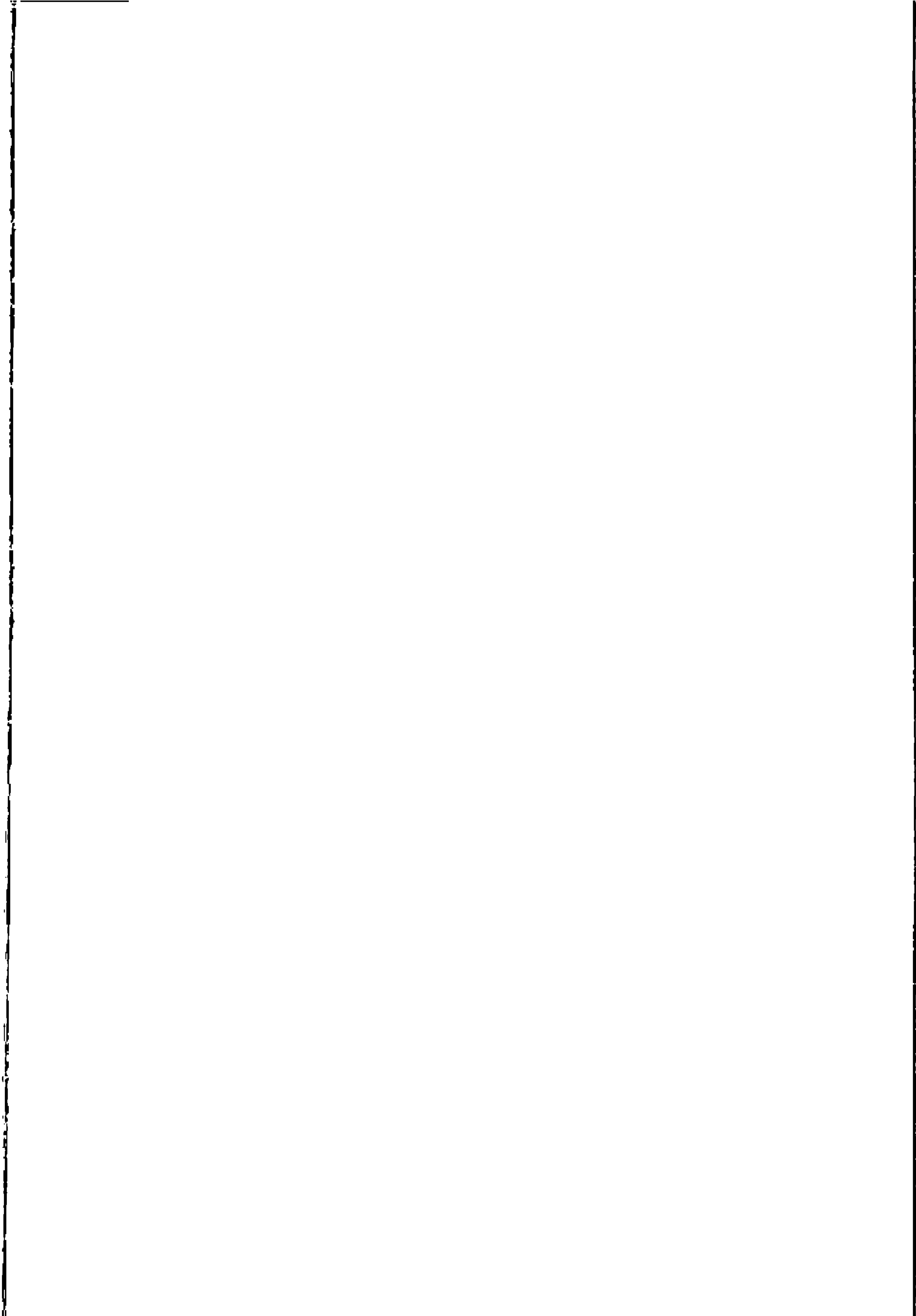
٤ - الآية ١٥٦ من سورة الأعراف

وقالت اليهود والنصارى : نحن نتقي الشرك ونؤتي الزكاة ونؤمن بآياته . حتى نزل قوله ـ عز وجل ـ : ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾[1] يعني يصدقون محمدا ـ عليه السلام ـ ، فيئس اليهود والنصارى وبقيت الرحمة للمؤمنين خاصة .

فالواجب على كل مؤمن أن يحمد الله ـ تعالى ـ على ما أكرمه من الايمان وجعل اسمه من جملة المؤمنين .

---

١ ـ الآية ١٥٧ من سورة الأعراف



الباب السادس

في صفة المؤمنين

الأخـــبار

قال النبي ﷺ «إن الله حرم على النار الهين اللين القريب» ، وعنه ﷺ : «ان الله يصلح بصلاح الرجل أهله وولده وأهل دويرته وأهل الدويرات من حوله ، ولا يزالون في حفظ الله ما كان بين أظهرهم» ، وعنه ﷺ : «من أخاف عبدا أخافه الله ومن أحزن مؤمنا أحزنه الله ومن أغاظ مؤمنا أغاظه الله» . وقال : «المؤمن كالجمل الألوف إن قيد انقاد وان استنيخ[1] استناخ ولو على صخرة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس» .

وعنه ﷺ : «المؤمن يسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن الى الماء البارد» . وعنه ﷺ من طريق ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : «الأرواح جنود مجندة وأنها لتلتقي بالليل فتشام كما تشام الخيل فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف ولو أن مؤمنا دخل مسجدا فيه مائة منافق ليس فيهم الا رجل واحد مؤمن لجاء حتى يجلس الى ذلك المؤمن ، ولو أن منافقا دخل مسجدا فيه مائة مؤمن ليس فيهم الا منافق واحد لقام ذلك المنافق حتى يجلس مع ذلك المنافق» .

---

١ ـ استناخ : برك ويقال : أناخه فاستناخ .

وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال : «انما الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق . فالمؤمن ﷺ وليّ الله وحبيبه أعطاه الله لسانه وعمله وقلبه ، وأما الكافر فقد أذلّه الله وأما المنافق اعطاه الله لسانه ومنعه قلبه وعمله» .

وعنه ﷺ من طريق الحسن قال : «يأتي على الناس زمان يكون أهل الجوع أئمة الهدى ومفاتيح ـ لعله ـ ومصابيح الليل لا تضرهم فتنة تمر بهم الفتن مثل الليل الأسود الايمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي لا يضرهم خذلان من خذلهم يدورون مع الحق حيث دار . هم أمان الناس من العذاب» من استذلهم في الدنيا أذله الله في الآخرة .

الآثـــار

المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه أوسع شيء صدرا وأذل شيء نفسا لا حسود ولا حقود ولا عتاب ولا مغتاب طويل الغم بعيد الهم ضحكه تبسم واستفهامه تعلم ومراجعته تفهم كثير علمه عظيم حلمه لا يعجل ولا يبخل ولا يحيف في حكمه ولا يجور في علمه لا عنف ولا صلف سهل ان غضب رفيق ان طلب وثيق العهد والوعد قليل الأذى والفضول لا يتعدى على من يؤذيه ولا يخوض فيما لا يعنيه إن دعي بسب لم يسب وإن سأل ومنع لم يغضب ، لا يشمت بالمصيبة ولا يذكر أحدا بغيبة مشتغل عن عيوب الناس بعيوب نفسه كثير الفضل رحب سهل مجالسته سليمة ومخالطته غنيمة قليل المراء كثير المعونة ورع عن الحرمات وقاف عن الشبهات لا يخرق الثناء سمعه ولا يدخل الطمع قلبه .

صادق اللسان جميل الثناء على الرحمن مصداق لأهل الصدق مواد لأهل الحق أب لليتيم والأرملة حفي لأهل المسكنة مرجو لكل شدة مأمول لكل كريهة هين لين رقيق النظر عظيم الحذر بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس رطب اللسان بذكر الله قنوع برزقه قائم لله بحقه مترقب لحلول أجله قد هانت

عليه الدنيا وعلم أنها زائلة فزهد فيها وعظم عنده أمر الآخرة وعلم أنها دائمة فرغب فيها يطلب الدنيا من حلها متجاف عن الدنيا وأهلها في الشدة صبور وفي الرخاء شكور يسأل عن دينه العلماء ويناطق الحكماء خوفا أن يكون من أهل الضلالة والعمى خشوع قلبه يزيد على خشوع بدنه وجوارحه عامل بفرائض الله وسننه لا متكبر ولا متجبر ولا مستكف ولا متعسف ولا منتهك ولا متهوك[1] ، يعلم الدين من جهله ، ويبذل الحق لمن سأله ، متوسع في الدنيا بما وسعه ، أثار بالمعروف نهاء عن المنكر غضاب لله لا يبرىء من الناس بغير حجة ولا يخلع إلا بالحجة الواضحة .

وقيل : يأتي على الناس زمان لا يكون للمؤمن فضل على عبده في دينه بما يموجون في باطلهم وتكون الأمة أعز من المؤمن .

وروي عن النبي ﷺ : «سيأتي على أمتي زمان يكون طفلهم شاطرا[2] وشابهم مقامرا وكهلهم كافرا وشيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن منكر . وسيأتي على أمتي زمان إن إئتمنتهم خانوك وان شاريتهم أربوك ، وإن حدثتهم كذبوك ، وإن غبت عابوك واغتابوك» وقال بعضهم : علامة المؤمن انك تراه قريبا بعيدا ، أعمى بصيرا ، عالما غافلا ، معترما صابرا ، فطنا معرضا ، ضاحكا باكيا ، خلطا متوحشا ، ألوفا نافرا ، مهموما مسرورا ، عاقلا أحمق ، عالما جاهلا ، راغبا زاهدا ، آمنا خائفا راضيا ساخطا ، عزيزا ذليلا ، متواضعا متعطفا ، سلس القياد ، صعب المرام ، حلوا مرا ، أُنسه الوحدة ، وفرحه الحزن ، وسروره الهم ، وضحكه أنَّة ، إن رأيته خلته تخليطا ، وإن كلمته أبْلَه ، وان اختبرته اختبرت ملكا متوجا ، لا يخلط هزلا بجد ، ولا يؤثر دينا على آخرة ، مشغول عن الخلق بنفسه ، الناس منه في راحة ونفسه منه في تعب .

---

١ ـ متهوك : هَوَك فلان : حفر الهوكة ، و ـ فلانا : حمقه وحيره . اهاك فلان : تحيّر وتهور ، تهوّك فلان : اهاك وسقط في هوة الردى ، واضطرب في القول . والهُوكة : الحفرة .

٢ ـ أي متصف بالدهاء والحباثة

وقال الحسن : من علامات المؤمن ، قوة في دين وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكياسة في رفق وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا يفضحه بطن ، ولا يستخفه حرص ، ولا تقصر به نيته ينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ولا يبخل ، ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء . قال الشيخ أحمد بن التطر :

وهين ولين سهل عريكته حتى اذا سيم[1] يوما دينه صعبا
مثل الرديني لا يثنى عزيمته صعب شكيمته مر وإن عذبا

وقال بعض الحكماء : اكمل الرجال من صدق لسانه وعدل سلطانه ، ودفن عيبه وخزن شينه [2] وحسن خلقه وتم وقاره ، وصدق أخاه ، ووصل جاره وأرضى جليسه ، وصار كلامه إن كل اعتذر ، وان أساء استغفر ، وإن أحسن إليه شكر ، وإن اعتدى عليه عفا ، وإن أغضب كظم ، وإن قطع وصل ، وإن فتن اعتصم ، وإن اشتهى تعفف ، وإن أصاب لم يفخر ، وإن اخطأ لم يجحد ، وإن استغنى لم يبطر ، وان افتقر لم يجسر ، وان ابتلي لم يجزع ، وإن احتاج لم يكذب ، وإن ركب لم يبغ ، وإن قدر عفا ، وان مُلِك زكى ، وان مَلَك نصح ، وإن ضعف تجامل وان شُتِم صفح ، وإن رفع تواضع ، وان حدث استمع وإن زل رجع ، وإن برىء لم يستهزىء ، وإن ظفر لم يتكبر ، وان حمد لم يَغُلّ ، وإن ذم لم يؤذ ، وإن أسر لم يفش .

وقال معاذ بن جبل : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى

---

١ ـ سيم : سام سوما : ذهب على وجهه حيث شاء ، وذهب في ابتغاء الشيء ، و ـ الماشية : رعت حيث شاءت ودامت على الكلا . و ـ الطير على الشيء : حامت . و ـ الابل والريح وغيرها : مرت واستمرت في سرعة أو في سكون ، و ـ الشيء : لزمه ولم يبرح عنه . و ـ الانسان ونحوه ذلا أو خسفا أو هوانا أولاه اياه وأراده عليه ، و ـ فلانا الأمر : كلفه اياه وألزمه به .

٢ ـ أي أخفى عيوبه وقبائحه

يخلف جسر جهنم .

وعن الحسن ، إن المؤمن هو الطلق الباذل البذول ، الرفيق الوصول ، يُقطع فيصل ، ويؤذي فيحلم ، ويشتم فيكرم ، صبور عند كل بلوى ، لا يجدد ثوبا ، ولا يرفع بيتا ، قد تهدمت بالاستغفار ذنوبه ، ومن علامات المؤمن ؛ أنه رحمة وبركة فإذا دخل منزله فرح به أهله وعياله ودابته ودنوا منه ، والمنافق يدخل بالجفاء والأذى تنفر عنه الدابة والمرأة ، ويستريحون الى خروجه .

وقال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المؤمن منك ثلاثا : إن لم تنفعه فلا تضره ، وان لم تفرحه فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وعن الحسن ؛ المؤمن ملجم أو قال : أنه لا يتكلم او قال : في فمه لجام يعني بذلك أنه لا يتكلم الا بعلم . ووجدت عن بعض العلماء أنه سئل . ما علامة قبول الحسنات ؟ قال : الزيادة منها وهذا لعمرى من أبين العلامات ، لأن المؤمن يجد للعمل حلاوة ، والمخذول لا يجد ما يجد المقبول .

وقيل : من ترك فضول النظر وفق للخشوع ، ومن ترك فضول الكلام وفق للحكمة ، ومن ترك فضول الطعام وفق للعبادة ، ومن ترك فضول المزاح ، وفق للبهاء ، ومن ترك فضول الضحكة ، وفق للهيبة ، ومن ترك فضول التجسس وفق لصلاح عيوبه .

وقيل : النائم الطاهر كالقائم الصائم .

وقيل : اذا اجتمع قوم يذكرون الله عز وجل اعتزل الشيطان والدنيا . فيقول الشيطان للدنيا : الا ترين الى ما يسعون ؟ فتقول الدنيا : لو تفرقوا لأخذت بأعناقهم ولو أن ثواب المجلس الذي يذكر الله عز وجل يبدو للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارته ، وكل ذي سوق سوقه .

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : المجلس الصالح يكفر عن المؤمنين الف الف مجلس من مجالس السوء» .

ولا يكون العبد مؤمنا بلسانه شاكا بقلبه لأنه لا يكون إيمان بغير خشية ، ولا يكون نسك بغير معرفة ، ولا دين بغير شريعة ، فمن دين الله الورع عن محارمه والوفاء بعهده ، ولزوم فرائضه واستكمال دينه ، فاعرضوا أعمالكم على كتاب الله صبحا ومساء ، فمن كان عمله موافقا لكتاب الله على إحسانه إليه ، واصطناعه المعروف عنده ، طلب عند الله المزيد ، ولم يأمن مع ذلك مكر الله ، ولم يوجب لنفسه الجنة ، وكان على ما قسم له من ذلك خائفا وجلا .

ومن كان مخالفا بعمله كتاب الله ؛ نظر وأبصر وتفكر ، وراجع التوبة ، واستغفر من الخطيئة قبل نزول الموت وانقطاع العمل ، وانقطاع المدة ، وذهاب الحيلة .

الباب السابع

صفة الجاهل والمنافق

الأخـــــبار

قال رسول الله ﷺ : «من صفة الجاهل يظلم من خالطه ، ويتعدى على من هو دونه ويتطاول على من فوقه كلامه بغير تدبير وان تكلم أثم وإن سكت سها وان عرضت له فتنة سارع اليها فأردته وان رأى فضيلة أعرض فأبطأ عنها لا يخاف ذنوبه القديمة ولا يرتدع فيما بقي من عمره من الذنوب .

يتوانى عن البر ويفضي عنه غير مكترث بما فاته من ذلك وضيعه فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الذي حرم العقل .

وعن النبي ﷺ قال : «من لم يتق الله فلا خير فيه ولا خير معه»[1] ، جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «ان من أشر منزلة عند الله يوم القيامة من يخافه الناس لفحش لسانه»[2] .

وقال عليه السلام : «اشتد غضب الله على عبد ستر الله عليه ذنبا فأفشاه على غيره» ، وقال : «ما من انسان يسمع كلام قوم وهم له كارهون إلا وضع الله في أذنيه الآنك يوم القيامة»[3] .

---

١ ـ رواه البيهقي عن ابن عمر

٢ ـ رواه الترمذي عن ابن مسعود

٣ ـ الآنك الزيت المغلي على النار

وقال عليه السلام : «يأتي عليكم زمان يكون المنافق فيه أشبه بالمؤمن من الغراب بالغراب ومن ذكر منافقا بما ليس فيه كان حتفه على يديه» وجاء في الحديث : «القوا المنافق بوجه مكفهر» أي بوجه منقبض لا شر ـ لعله ـ لا بشر فيه[1] ـ ولا طلاقة . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : «لا تمشوا مع الأشرار فتشبهون بهم فإن للحكماء فيهم عبرة وعبرة الحكماء لهو السفهاء ولهو السفهاء عبرة الحكماء .

الآثـــار

وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الآية : ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾[2] فسأل اعرابيا من الكنانة ما الحرجة فيكم ؟ قال : الحرجة فينا الشجرة تكون من الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء . فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل اليه شيء من الخير .

وقال معاذ : لو أن الجاهل أمسى وأصبح ، وله من الحسنات واعمال البر بعدد الرمل وشيكا ان لا يسلم له منها مثقال ذرة ولو أن العاقل امسى وأصبح له من الذنوب بعدد الرمال لكان وشيكا بالنجاة والسلامة والتخلص منها . فقيل لمعاذ : كيف ذلك ؟ فقال : ان العاقل إذا زل وأخطأ أدرك نفسه بالتوبة ، والعقل الذي قسم الله له ، والجاهل هو بمنزلة من يبني ويهدم فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله إن صلى أعرض وإن صام عرض فيحبط أجره ، وان أتاه سائل عرض به وتبرم به نفسه فيشتمه ويؤذيه ثم يتصدق عليه فيحبط أجره ، وان حج أو اعتمر أذى أصحابه وبخل ويحمل عليهم كله

---

١ ـ في الأصل اشر

٢ ـ الآية ١٢٥ من سورة الأنعام

فيكون ما يأثم اعظم مما ينال من الثواب والأجر ، وان سأله أبواه حاجة آذاهما ويرفع الصوت عليهما ثم يقضي لهما حاجتهما وهو مدبر ، فبالحري ان لا يؤذيهما ولا يمينهما فيسخط الله بسخطهما ، فإذا تدبرت أمر الجاهل علمت ما يفسد اكثر مما يصلح .

وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله ، والعاقل يعتمد على عمله ، والمنافق لا يقف عند شبهة ، ولا يزيغ عن محرم كحاطب ليل لا يبالي ما صنع ولا فيما لا يدع ، همه الدنيا لها يغضب ولها يرضى عمله الخطايا ، اذا حدث كذب ، واذا إؤتمن خان ، واذا وعد أخلف ؛ فالمسكين لو حل به ملك الموت رأيته مسودا وجهه ينظر الى دنياه التي استخصها لنفسه ، يتمنى الرجعة إليها بقلبه فإذا وضع في قبره فإذا الأرض تكلمه لقد كنت تمشي على ظهري وأنت مبغض إلي وقد صرت اليوم في بطني فتنضم إليه الارض فتختلف اضلاعه ثم يضرب بعمود من نار فيملأ عليه قبره نارا الى يوم القيامة .

وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه . وقيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ، وغلام عاقل خير من شيخ جاهل . وقيل : زهد العامي مضلة ، وقرب الأشرار مضرة ، وقيل : لا فقر كالجهل . وقيل : إياك وصحبة الجاهل كما قيل في ذلك شعرا :

ولا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه   فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ما المرء ماشاه   وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

ويقال : المعصية شهية وبئة[1] ، والطاعة ثقيلة مرئة .

وفي الخبر ؛ أن الحق ثقيل مرىء[2] ، والباطل خفيف وبيء .

وقيل صحة البدن مع المعاصي خدعة ، وحلول النعم على المذنبين

---

١ ـ كثيرة الوباء

٢ ـ يريد أن الحق مع انه ثقيل إلا انه طيب

عقوبة ، ويروى عن الله تعالى : «يا ابن آدم اذا كنت في نعمتي وأنت في معصيتي فاحذرني» . وقيل : أصيب في بعض الكسبرى صرة فيها حنطة مثل النوى عليها مكتوب هذا نبت زمان كان العمل فيه بطاعة الله عز وجل .

أبو محمد ـ رحمه الله ـ جاء في الخبر : أن من تواضع لصاحب دنيا ذهب ثلثا دينه ، ومن وقر ذا بدعة فقد أعان على هدم الاسلام .

وبلغنا أنه كان يقال في الحكمة : ان لسان المؤمن من وراء قلبه وإن قلب المنافق من طرف لسانه ؛ لأن المؤمن اذا أراد ان يتكلم بكلام تدبره في نفسه ، فإن كان خيرا أخرجه وأبداه وإن كان شرا غمه وواراه ، وان المنافق يتكلم بما أتى على لسانه ولا يدري ماذا له وماذا عليه كما يقال : لسان من يعقل في قلبه وقلب من يجهل في فيه ، ابرويز : اجهل الناس من يعتمد في أموره على من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ، وقيل : الجهل مطية من ركبها ذل ، ومن صحبها ضل ، ومن أشد الجهل مصاحبة ذي الجهل ، ومن أقبح الحال مجادلة ذي المحال .

وقيل : دولة الجاهل عبرة للعاقل ، وعالم معاند خير من جاهل مساعد . وقيل : خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل ، ومن قل عقله كثر جهله . وقيل : الجهل انكى عدو ، والعاقل أفضل مرجو ، والجاهل يطلب المال والعاقل يطلب الكمال ، ونظر العاقل بقلبه وخاطره ، ونظر الجاهل بعينه وناظره ، وقيل : الجهل شر الأصحاب ، والذم أقبح الأثواب .

إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق ، فإن أتتك منها بغية مع جهل أو فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل ، والزهد في العقل ، فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات ، وليس من أمكنه شيء من ذاته مثل ما ـ لعله ـ من استوجبه بآلته وأدواته ، وليس للمرء أن يفرح بحالة ينالها بغير عقل ، ولا جبلة يحلها بغير فضل ، فإن الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه في

رتبته ويرده الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير من . . . . . . [1] ويصبح وليه معاديا .

وقيل لا مال أعود من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل .

وقيل : من جهل المرء ان يذل نفسه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في اكرام دنياه ، فهو من دنياه في زوال ، ومن هواه في ضلال ، ومن جهل مواطيء قدمه عثر في دواهي ندمه ، ومن جهل قدره عدا طوره ، ومن جهل قدره جهل كل قدر ، ومن ضيع أمره ضيع كل أمره ، ظن العاقل أصح من يقين الجاهل .

الغرة[2] ثمرة الجهل ، ومن سوء الاختيار مودة الأشرار .

استحراج ـ لعله ـ استراح الجاهل من حيث تعب العاقل .

كما قيل :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

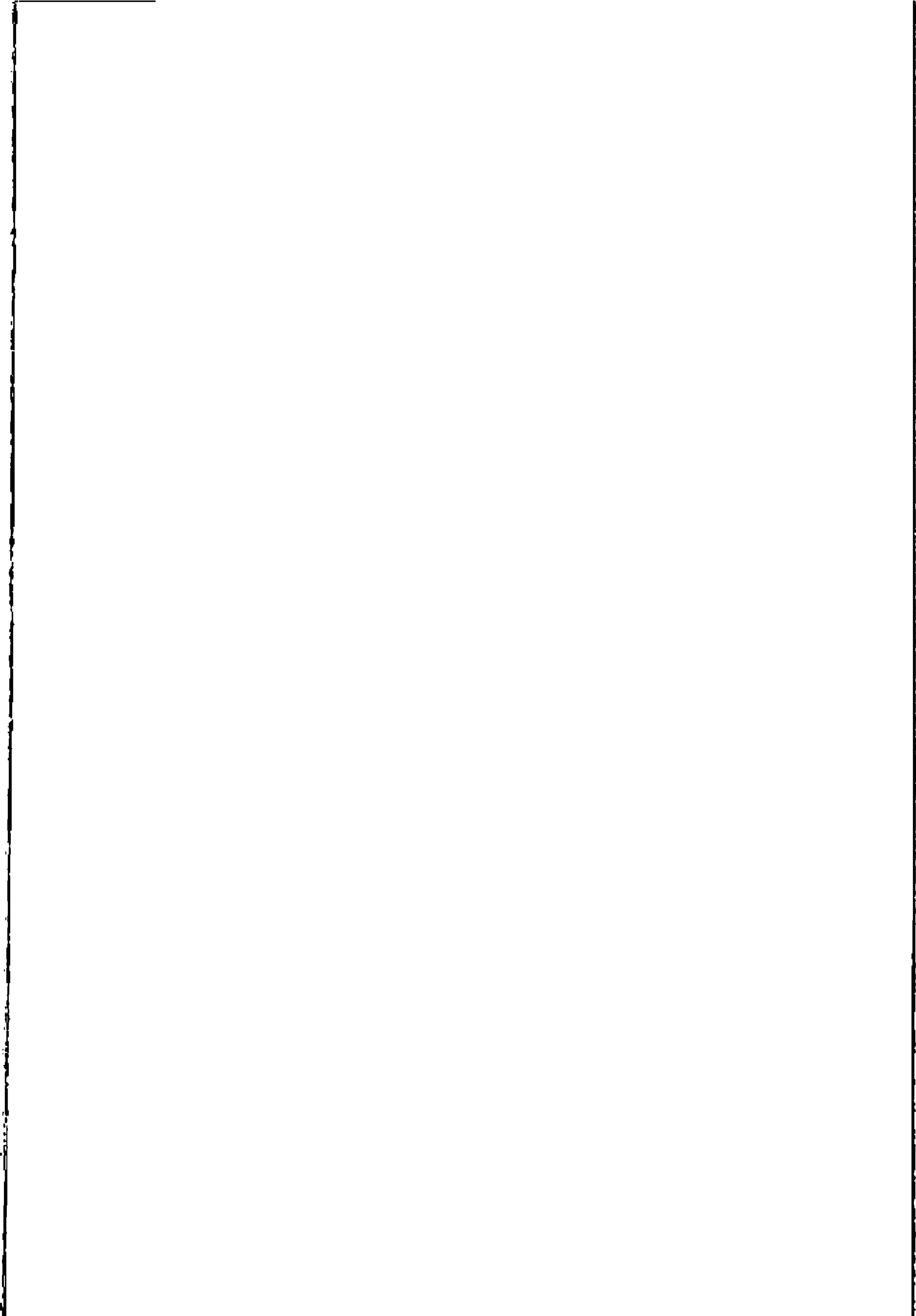
وقيل : اصطناع العاقل احسن فضيلة ، واصطناع الجاهل اقبح رذيلة ، فاصطناع العاقل يدل على استحكام العقل واصطناع الجاهل يدل على استحكام الجهل ، وكل امرىء يميل الى مثله ، وكل طائر يأوي الى شكله ، ولا يقمع السفيه الكلام ولا يردع الجاهل الا الحسام .

ومن دلائل الحمق دلالة بغير آلة ، وصلف بغير شرف . كلام العاقل قوت ، وجواب الجاهل كسكوت ، لا يحملنك سب الجهول أو جرأة السفيه عليك على إجابة له ، فحلم يغني صبرك خير من سفه يشفي صدرك .

---

١ ـ وجد الفراغ في الأصل

٢ ـ ثمرة الجهل



الباب الثامن

في العهد والوعد

قال الله عز وجل : ﴿والموفون بعهدهم اذا عاهدوا﴾ [١] وقال تعالى : ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ [٢] ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ [٣] ثم ضرب عز وجل مثلا لناقض العهد فقال : ﴿ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾ [٤]

يقول : من اعطى من المسلمين المشركين عهد الله وميثاقه من اهل الحرب أو من غيرهم ونقض عهده فإنه ينصب له يوم القيامة لواء يجر عند ظهره فيقال هذه لغدرة فلان .

وقيل الأحمق ضال مضل إن أونس تكبر ، وإن أوحش تكدر ، وإن استعطف تخلف ، وإن ترك تكلف ، مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ، ومجاورته غرر ، ومؤالته ضرر ، ومقاربته عمى ، ومفارقته شفاء .

---

١ ـ الآية ١٧٧ من سورة البقرة

٢ ـ الآية ١٥٢ من سورة الأنعام

٣ ـ الآية ١٠ من سورة الفتح

٤ ـ الآية ٩٤ من سورة النحل

الأخـــبار

عن النبي ﷺ : «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» .

وعنه ﷺ : «احق ما أوفي به عهد الله»

وعن النبي ﷺ أنه قال : «هلاك هذه الأمة عند نقض مواثيقها» .

وعنه ﷺ : «العدة عطية» وقال ﷺ : «عدة المؤمن كأخذ باليدين» وفي خبر عنه عليه الســلام : «عدة المؤمن أخذ بالكف» زيد بن ارقم عن النبي ﷺ أنه قال : «اذا وعد الرجل أخاه أو كان نيته أن يفي فلم يج المعطى فلا إثم عليه»[1] أبو هريرة عن النبي ﷺ : «إذا وعدت أخاك قليلا أو كثيرا فلتستبدل بالمودة بغضاء» ، ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قول الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد﴾[2] الآية . يريد أنه كان بينه وبين ابليس لعنه الله وعد لا يبرح حتى يعود إليه ، وكان في ضميره أنه لو أقام سنة لم يخلف موعده فأتاه جبريل عليهما السلام فقال : ان الفاجر الذي سألك ان تقعد له حتى يعود اليك هو ابليس لعنه الله فلا تفعل له ولا كرامة . فسماه الله صادق الوعد .

وقيل : وعد رجلا ان يقيم مكانه حتى يرجع إليه فأقام ثلاثة أيام في الميعاد[3] حتى رجع اليه الرجل ، وقيل : انه وعد رجلا سنة فانتظره سنة .

وروي أنه عليه السلام : وعد رجلا بظاهر المدينة فنسي الرجل الموعد ففقد ﷺ من المدينة ثلاثة أيام فخرج الناس في طلبه والرجل معهم ناسيا لوعده فقال رسول الله ﷺ : «لو لم تأت لكان المحشر من ها هنا» وقال رجل : بايعت

---

١ ـ يريد فلم يحضر الذي وعده

٢ ـ الآية ٥٤ من سورة مريم

٣ ـ هكذا في الأصل ولعله يقصد في المكان

رسول الله ﷺ قبل ان يبعث فقلت له : مكانك حتى آتيك فقعد ثلاثة أيام ثم أتيته فوجدته في مكانه فقال : «يا هذا ما أشفقت علي اما أنا انتظر من ثلاث»[1]

الآثـــار

قال أبو محمد ـ رضي الله عنه ـ : لم يختلف أصحابنا فيما علمت أن من أعهد إماما عادلا ثم أخلفه من غير عذر فقد ركب ذنبا عظيما ، وإن أخلف غير إمام عدل فهو آثم ، وهذا قول محتمل للتأويل ، وعندي ؛ ان معنى ذلك ـ والله اعلم ـ ان خلف الامام فيما يجب من فرض طاعته من حق الله تبارك وتعالى وخلفه كبير من الذنوب فإن كان أخلف عهد الامام فيما يجري بين العامة في المعاملات والوصول للبر فالامام داخل معهم ، لأن الامام ورجلا من المسلمين لا يجوز ظلمهما وواجب برهما ، واعتقاد التعظيم لهما وتعظيم شأنهما ، إلا أن يكون خلف العهد مما يلحق منه ضرر في دين أو نفس أو مال .

قال المؤلف : على هذه الصفة . الوفاء بالعهد فريضة ، وناقضه هالك ضامن لما تلف ، هكذا يوجد ، والله أعلم .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : لا يعد أحدكم وعدا ولكن قل : أسمع ما تقول فإن يقدر شيئا كان إن شاء الله ، فإن وعدته فلا تخلف ، فإنه من أبواب النفاق ، وكان يقال : ثلاث لا يجتمعن الا في منافق : ان حدث كذب ، وان وعد أخلف ، وان إؤتمن خان .

وقال سفيان : لم يعد الله من نفسه شيئا قط الا تم عليه . وقال : للكذب منازل ، فأسوأها أثرا وأعظمها ضررا اخلاف المواعيد . عن عبدالله ابن عمر أنه كان وعد رجلا من قريش أن يزوجه ابنته فلما كان عند موته أرسل

---

١ ـ يريد ثلاثة أيام

إليه فزوجه وقال : إني كرهت أن القى الله بثلث النفاق . .

أبو الحسن ـ رضي الله عنه ـ ما كان من عهد في أمر الدين فلا يحل نقضه ، وما كان من عهد بينه وبين إمام عدل أو بين المسلمين أو بين أحد من أهل الملل والشرك فيجب الوفاء به .

وقال الله عزو وجل : **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾**[1] ، يسأل الله ناقض العهد عن نقضه . وقال الله : **﴿والذين ينقضون عهد الله﴾**[2] ، الى قوله : **﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**[3] ، ففي هذا ما يؤكد الوفاء بالعهد ويشدد في نقضه .

قال أبو مالك ـ رضي الله عنه ـ بين العهد والوعد فرق مختلف حكمهما ، فنقض العهد من كبائر الذنوب ، ومن أخلف وعده ونقضه بعد أن اعطاه من نفسه كان آثما ، وصفة العهد ان ينقض عهد الله ، ونهى الله تعالى فيما تعبد من أمر الدين ، أو ينقض عهدا أخذه عليه امام عدل ، وما يكون بينه وبين أحد من الناس فيما لا يكون في خلفه إتلاف مال أو نفس أو ادخال ضرر كثير فهذه صفة العهد .

وصفة الوعد ؛ هو من وعد وعدا لا يتعلق عليه به حق المخلوق أو كان في خلفه كالساهي وما يؤدي الى كثير ضرر على الانسان فهذا ونحوه مما يأثم الناس فيما بينهم ولا يبلغ فاعلوه الى الكفر والهلاك ، قال ابو محمد ـ رضي الله عنه ـ من وعد رجلا وعدا ثم أخلفه فإن أتلف بخلفه مالا أو نفسا فهو ضامن ، والله اعلم .

---

١ ـ الآية ٣٤ من سورة الاسراء
٢ ـ الآية ٢٥ من سورة البقرة الرعد
٣ ـ الآية ٢٥ من سورة الرعد

الباب التاسع

في اخاء أهل التقى

قال الله عز وجل : ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾ [1] فالاخوة في الله من أوثق عرى الاسلام ودرجاتهم في الجنة اعلى الدرجات وليس بعد الفرائض أفضل من ادخال السرور على المسلم .

الاخبـــار

وروي عن النبي ﷺ انه قال : أوثق عرى الاسلام الحب في الله والبغض في الله ، وأفضل العبادة حسن الظن بالله وحلاوة التواضع .

وعنه ﷺ قال : «عليكم بإخوان الصدق فإنهم زينة في الرخاء وعصمة عند البلاء» .

وعنه ﷺ انه قال : «المرء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له»[2] .

وعنه ﷺ : «اذا احب احدكم أخاه فليسأله عن اسمه واسم أبيه وقبيلته وعشيرته فإن ذلك هو حق الاخاء» ، وروي عن النبي ﷺ : «المؤمن مرآة أخيه ينصح له إذا غاب ويميط عنه الأذى ويوسع له في المجالس» وفي الحديث :

---

١ - الآية ١٠ من سورة الحجرات

٢ - الحديث مكرر

«من زار أخاه أو عاد مريضا نادى مناد من السماء أن طاب ممشاك وتبوأت في الجنة منزلا» وروي عن النبي ﷺ انه قال : والذي نفسي بيده لا تموتوا حتى تتحابوا» .

وكان يؤاخي بين المهاجرين والانصار ويقوم الأنصار بشأن المهاجرين . وقال : «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الايمان» . وقال : «من اكرم أخاه المؤمن كان حقا على الله ان يحمله على درج الجنان» .

وعنه ﷺ : المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه» . وعنه ﷺ : «من لقي أخاه يسره سره الله يوم القيامة» .

وعنه ﷺ : «إذا كانت لأحدكم الى أخيه حاجة فليكن هو الذي يأتيه فإنه أحق بذلك» .

وعنه ﷺ : «من ذب عن عرض أخيه المسلك كان له حجابا من النار» .[1]

جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من صاحب يصاحب صاحبا ولو ساعة من نهار إلا سأله الله عن صحبته إياه هل أحب له ما أحب لنفسه» .

وقال ﷺ : «المشي مع أخ مسلم في حاجة أحب الى الله من اعتكاف شهرين» .

وعن النبي ﷺ : «اني لأعرف ناسا من أمتي بمنزلة شريفة يوم القيامة ما هم أنبياء ولا شهداء وإن الانبياء والشهداء ليغبطونهم بمنزلتهم عند الله ، قلنا

---

١ ـ رواه الترمذي عن أبي الدرداء

يا رسول الله من هم ؟ قال : قوم تحابوا في الله على غير مال تهادوه بينهم ولا نسب تواصلوا به الا رحم الله الاسلام والحب في طاعة الله وإن لوجوههم نور الشمس لا يفزعون إذا فزع الناس ولا يخافون إذا خاف الناس» .

وقال : «ما من مسلمين يتحابان في الله إلا كان أفضلها عند الله منزلة يوم القيامة أفضلها حبا لصاحبه ومن أحب عبدا مسلما في الله فكأنما أحب الله» .

وعنه عليه السلام : «لا يزال اهل الارض مرحومين ما تحابوا وأدوا الامانة وقروا الضيف وعملوا بالحق وأنهم قد بريء من البخل من أدى زكاة ماله» .

أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة «أين المتحابون من أجلي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»

قال أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال : بلغني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين والمتأدبين فيَّ» . أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «اذا أحب الله عبدا قال : يا جبريل إني قد أحببت عبدي فلانا فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي في السماء الا إن الله قد احب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض واذا أبغض عبداً فمثل ذلك» .

جابر بن زيد عن النبي ﷺ قال : «مثل قلب المؤمن كمثل الفضة الجيدة اذا دخلت النار وأحميت لم يزدد الا خيرا» . وقال النبي ﷺ : «القلوب أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» .

---

١ ـ رواه الطبراني

أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة والله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» . [1] .

وعنه ﷺ انه قال : «للمسلم على المسلم ثلاثون حقا لا براءة له منها يوم القيامة إلا باداثها وهي : أن يغفر ذنبه ويرحم غربته ويستر عورته ويقبل معذرته ويرد غيبته ويديم نصحه ويرعى صحبته ويحفظ خلته ويعود مرضته ويحضر موته ويشهد جنازته ويجيب دعوته ويقبل هديته ويكافىء صلته ويشكر نعمته ويحسن نصرته ويقضي حاجته ويسمع مسألته ويشمت عطسته ويرد سلامه ويرشد ضالته ويطيب له كلامه ويبدي أفعاله ويصدق أقسامه ويتولاه ولا يعاديه وينصره ظالما أو مظلوما فاما نصره ظالما فيرده عن ظلمه وأما ينصره مظلوما فيعينه على اخذ حقه ولا يسلمه ولا يخذله ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ثم قال : «لا يدع احدكم من حق أخيه شيئا الا طالبه الله عز وجل يوم القيامة» .

الآثـــار

فالواجب على المسلمين مراعاة هذه السنة واتباعها في اخوانهم المسلمين عند هفواتهم وزلاتهم ، واذا سقط احدهم أخذوا بيده وستروا عليه .

أبو محمد رحمه الله روى عن النبي ﷺ أنه أوصى المسلمين بعضهم ببعض وأمرهم بالرعاية في ذلك والستر على بعضهم بعضا وأن لا يهتكوا اخوانهم عند هفواتهم وزلاتهم وندبهم الى الستر عليهم . وقيل : من حمل أخاه على شسع نعل فكأنما حمله على دابة في سبيل الله . وقيل : كان أصحاب

---

١ ـ رواه مسلم عن أبي هريرة

رسول الله ﷺ يمشون فإذا قطعت بينهم الشجرة ثم التقوا تصافحوا وقالوا : أمانة . وقيل : ما تصافح الأخوان في الله الا تناثرت ذنوبهما كما يتناثر ورق الشجر . وقيل : لقاء الاخوان جلاء الأجفان .

وقال بعض العلماء : صديق مساعد . عضد وساعد .

وقال بعضهم :

همـوم رجال في أمـور كثيـرة ... وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين فرقا ... فجسمهما جسمان والروح واحد

وروي أن أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط ، ومسلم متصدق متعفف ، ورجل رحيم القلب لكل ذي قريب ومسلم .

وقال عمر ـ رحمه الله ـ رحم الله من اهدى إلينا مساوئنا . وقال أيضا ـ رحمه الله ـ اذا اخذ احدكم من لحية أخيه شيئا فليره إياه ولا يكون ملقا [1] وإن رجلا تناول من لحيته ﷺ شيئا ثم أراه إياه فقال : «أماط الله عنك ما تكره» وقال بشير ينبغي للمسلم ان لا يمنع أخاه من شيء يمكنه ان يفعله وينبغي للمسلم أن يكون وأخوه متناصحين متحابين ، وأن يبذل كل واحد ماله للآخر ولا يمكر به ، وكذلك كانوا لما آخى بينهم رسول الله ﷺ .

قال أبو محمد : حق المسلم أوجب فيما تعبد الله تعالى به أولى من حق الأدب .

جابر بن عبدالله قال : ما رآني رسول الله ﷺ مذ اسلمت الا تبسم .

وقال ابن عباس : احب اخواني الي الذي إن غبت عذرني وإن جئته

---

١ ـ ولا يكون (ملقا) . ملق الرجل : صار شديدا وملق الشيء : ملّسه ، وتملق الرجل وله تملُقا وتملاقا : ملقه ، والملِق : الضعيف ، وفرس ملق : يقفز ويضرب الأرض بحوافره ولا جري عنده ، والملِق : الذي يعد ولا يفي ويتظاهر بما ليس عنده ، والملّاق : كثير التملق الذي لا يصدق وده .

قبلني . وقيل طلع على ابي الحر رجل من عمان فلما نظر اليه ابو الحر قام قائما من الحلقة واعتنقه وقبل جوانب عنقه .

وعن أبي محمد الحريري قال : شاهدنا أقواما كانوا لنا غذاء من الطعام ، وزاداً من العمل ، وهديا من الضلالة ، ونورا من العمى ، استراحت بهم أسرارنا ، وصحت بهم خواطرنا .

وقال بعض المسلمين : لا يجوز للمسلم أن يصادق منافقا ولو كان في الصداقة تقية ؛ لأنه ربما غر بذلك غيره .

قال الله تعالى : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ [1] الآية .

وقال بعض المسلمين : واجب على من استمسك بالدين أن لا يعدل عن آثار المسلمين ، ولا يرى في حيز المنافقين ، ويقال : تفقدوا اخوانكم في كل يوم ثلاثة أيام[2] ثم اسألوا عنهم أشهد أم غيب ؛ فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وان كانوا مصابين فعزوهم ، وإن كانوا غيبا فتفقدوا شأنهم .

وقيل : أخ لك كلما لقيك وعظك خير لك من أخ كلما لقيك وضع في يمينك درهما ، وقد بلغنا أن الاخوين اذا تلاقيا في الله نزل عليهما مائة رحمة فتسع وتسعون لأبرهما بصاحبه . وقيل خير الاخوان من ساعد أخاه في العاجل والأجل ، والسراء والضراء .

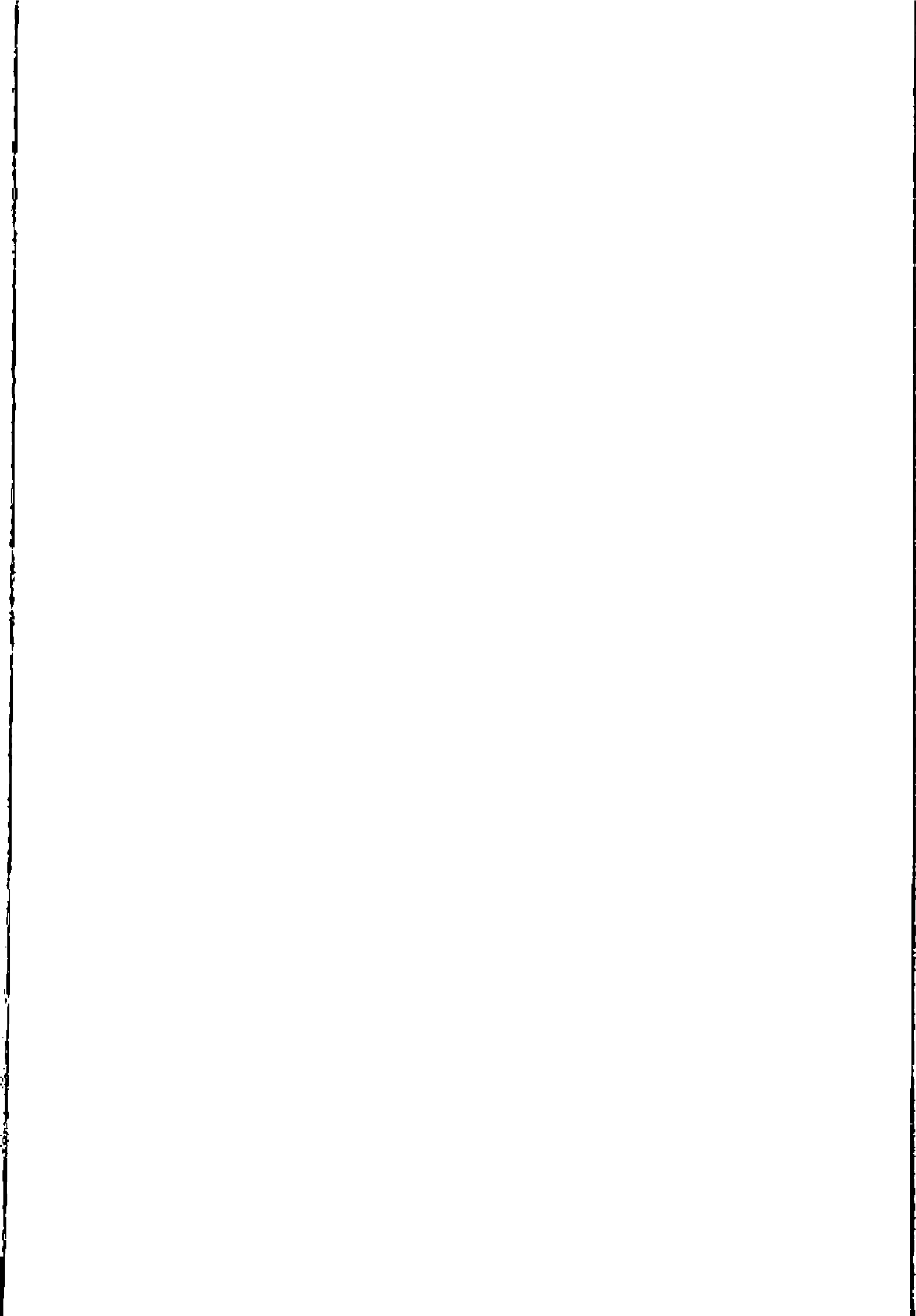
وقال علي : إن لأهل الدين علامات يعرفون بها : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، ورحمة الضعفاء ، وقلة مؤاتاة النساء ، وبذل المعروف ، وحسن الخلق ، وسعة الحلم ، واتباع العلم ، وما يقرب إلى الله تعالى .

---

١ ـ الآية ١١٣ من سورة هود

٢ ـ لعله أراد ثلاث مرات

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : «أول ما يرفع من هذه الأمة . الامانة والخشوع ، حتى لا يكاد ان يرى خاشعا» . وقيل : ان ركبا خرجوا حاجين ومعتمرين ، فعطشوا . فناداهم صوت يفهمهم ولا يرونه . ان رسول الله ﷺ حدثنا «وأن المسلم أخو المسلم وعين المسلم ، وأن بين ايديكم في موضع كذا غدير ماء . فاعدلوا إليه فاستقوا واسقوا» .



الباب العاشر

ما جاء في حامل القرآن

الأخـــــبار

روي عن النبي ﷺ : «من قرأ القرآن ورأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله» [1] ويروى عن النبي ﷺ : «ما من شفيع أعظم عند الله منزلة يوم القيامة من القرآن» [2] .

وقال ﷺ : «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة والأنبياء عليهم السلام والشهداء قادة أهل الجنة» [3] .

ومن أراد أن يستر نفسه من النار ويديم نعم الله فليصنع معروفا إلى فقير لم يقدر له على جزاء .

وقال ﷺ : «من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بيتا في الجنة» .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن لله أهلين من الناس» . قيل

---

١ ـ رواه الترمذي عن ابن مسعود

٢ ـ رواه مسلم عن أبي أمامة

٣ ـ رواه أبو داود عن أبي موسى

من هم يا رسول الله ؟ قال : «هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» .

وروي عنه ﷺ أنه قال : «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قيل له : ما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : قراءة القرآن» .

وروي عنه ﷺ أنه قال : «عليكم بالقرآن فإنه كلام رب العالمين» . وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حيث قال له[1] : حدثنا بحديث ننتفع به يا رسول الله . فقال : «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والأمن يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فعليكم بالقرآن» .

وقال النبي ﷺ : «من قرأ ربع القرآن أوتي ربع النبوة ومن قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة ومن قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة ومن قرأ ثلثي القرآن أوتي ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة في الجنة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له : اقبض فيقبض فيقال له : هل تدري ما في يدك فإذا في اليمين الخلد وفي الأخرى النعيم .

ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبة الله ما استطعتم»[2] .

إن هذا القرآن حبل الله وهو النور البين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد» .

عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أفضلكم من تعلم القرآن أو علمه»[3] وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «القرآن

---

١ ـ رواه مسلم وابن ماجة

٢ ـ رواه مسلم عن أبي هريرا

٣ ـ رواه البخاري عن عثمان بن عفان

شافع مشفع وماحل أي شاكي مصدق فمن شفع له القرآن يوم القيامة نجا ومن محل به القرآن كبه الله يوم القيامة على وجهه» .

عن أنس أن النبي ﷺ قال : «القرآن أفضل من كل شيء فمن قرأ القرآن فقد وقر الله ومن استخف بالقرآن فقد استخف بحق الله» .

حملة القرآن هم المحففون برحمة الله المعظمون بكلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله .

الآثـــار

وقال بعض المسلمين : يروى عن النبي ﷺ أنه قال : «أولى الناس بهذا القرآن من عمل به لا من قرأه» . وبلغنا عن النبي ﷺ أنه قال : «نجا بهذا القرآن قوم عملوا بما فيه وان لم يكونوا قرأوه» .

حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : «من قرأ القرآن طاهرا ونظر حتى يختمه غرس الله له شجرة في الجنة ولو أن غرابا فرخ في ورقة منها ثم نهض يطير لأدركه الهرم قبل أن يقطع تلك الورقة» .

قال المؤلف : وذلك لمن كان مستقيما على الكتاب والسنة .

وقال بعض : وذلك لمن يعمل ولو لم يكن يقرأه فهو سالم والذي يقرأو ولم يعمل به فهو هالك لأنه لم يحل حلاله ولم يحرم حرامه ، ولم يمتنع عما حرم القرآن فينتهي عن ذلك ويتبع ما أحل القرآن فيعمل بذلك فهو هالك ولا ينتفع بقراءة القرآن ، وإن كان يتلوه بكرة وعشيا يتدبره حرفا حرفا فهو هالك إن لم يعمل بما في القرآن . ويروى أنه من اتبع القرآن هبط به إلى رياض الجنة ، ومن لم يتبع القرآن ـ لعله يتدبره ـ زخ في قفاه ويقذفه في الجحيم .

وقال مكي : أولى الناس بهذا القرآن من عمل بما فيه وان لم يحفظه ، وأشقى الناس بهذا القرآن من حفظه ولم يعمل بما فيه .

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله والناس نائمون وبنهاره والناس مفطرون وبحزنه والناس يضحكون وبصمته والناس يخوضون وبورعه والناس يخلطون وبخشوعه والناس يختبطون .

وينبغي لحامل القرآن ان يكون مستكينا لينا ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا .

وينبغي لحامل القرآن أن لا يلهو مع من يلهون ولا يسهو مع من يسهون ، ولا يلغو مع من يلغون تعظيما للقرآن .

وينبغي لصاحب القرآن أن يخلص طلبه لله - عز وجل - فقد قال ابن مسعود : من قرأ القرآن يبتغي به وجه الله - تعالى - كان له بكل حرف عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - : ان عدد درج الجنة على عدد آي القرآن ، فليس أحد ممن دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن تقيا لله مخلصا ، وينبغي له أن لا يطلب بالقرآن شرف المنزلة عند أبناء الدنيا مثل الملوك وغيرهم وأن يخلص جميع أفعاله لله - عز وجل - ، فإن كان داخله شيء من ذلك فليتب إلى الله - تعالى - منه ، وليعتقد الاخلاص لله ، وينبغي له أن يكون لله حامدا ولنعمته شاكرا وله ذاكرا وعليه متوكلا وبه مستعينا وإليه راغبا وبه معتصما ، وللموت ذاكرا وله مستعدا .

وينبغي له أن يكون خائفا من ذنبه راجيا عفو ربه ويكون الخوف أغلب عليه ان لا يعلم بما ختم له ويكون رجاؤه عند حضور منيته أقوى في نفسه لحسن الظن بالله .

وينبغي له أن يكون عالما بأهل زمانه متحفظا من شيطانه ، ساعيا في خلاص نفسه ، ونجاة مهجته مقدما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه مجاهدا لنفسه ما استطاع .

وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتطاول عن طريق الشبهات ويقل الضحك ، وكثرة الكلام ، واللغط في مجالس القرآن وغيرها ، وأن لا يترك أحدا يتكلم في مجلس القرآن عند القراءة ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار ، والتواضع للفقراء والتحفظ من التكبر والاعجاب ، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها وأن يخاف على نفسه الفتنة .

وينبغي أن يترك الجدال والمراء ، وإن كان محقا ، وأن يأخذ نفسه بالرفق والأدب ومكارم الأخلاق .

وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

وقال عبدالله بن عمر : لا ينبغي لحامل القرآن أن يجد مع من يجد ولا يجهل مع من يجهل ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن الذي اختصه الله به .

وينبغي له أن لا يحس في قلبه على المسلم ولا يحسد ولا يحقد ولا يغتاب ولا يبهت ولا ينم ، وأن يعفو عمن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، وأن يأخذ بالعدل في أموره إذ لا منزلة فوق منزلته أعانه[1] الله على ذلك السبيل .

واعلم يا قارىء القرآن أنك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه ولن تعرف الكتاب حتى تعرف الذي نقصه ، ولن تعرف التقى حتى تعرف البدعة فإذا عرفت البدعة في الدين والتكليف عرفت الفرية على الله

---

١ - (أعا) في الأصل وجدت هكذا

والتحريف ، وإن من هذا كيف هذا . وإن علم القرآن لا يعلمه إلا من خاف فأبصر به من عمى وسمع به من صمم ، وحيي به إذ مات ، ونجا من السيئات .

واعلم يا قارىء القرآن أن العهد بالرسول قد طال ، ولم يبق من القرآن إلا رسمه ، ومن الاسلام إلا اسمه ، وان الله لم يجعل ما قسم بيننا ليغلب قوينا ضعيفنا ، ولا كثيرنا قليلنا ، بل قسم برحمته بالأقسام وبالعطية بالعد والاحسان فاتبع الذين صدقت أقوالهم أفعالهم ، وانقطعت من الدنيا آمالهم ، لا تعتريهم سآمة ، ولا يحتز منهم رغبة ، ولا ينظرون إلى الدنيا بعين بغية ، ولا يعتقدون لها على مودة ولا يفرحون لها بزينة بل ضربوا في السهم الأمد وسلكوا الطريق الأقصد ولزموا السبيل الأرشد وهم أئمة التقى ونجوم الهدى وأعلام الدين ومنار الاسلام ، كلامهم حكمة وسكوتهم فكرة ومبايتتهم[1] حسرة ومخالطتهم غنيمة والاستنارة بهم حياة ، والاقتداء بهم نجاة .

وعليك أيها الزائغ عن طريقهم والراغب عن سبيلهم بالاتباع فإنه ليس الاتباع كالابتداع ، وعليك بطريق من كان بالله أعلم وبحلاله وحرامه أبصر وأحكم واعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم وحتى تأخذ بهديهم وتقتدي بسنتهم وتسلك مسالكهم وتأخذ طريقتهم .

وإن ملاك الأمر أن تكون على استقامة والله إنما هلك من هلك حيث تشعبت بهم السبل وحادوا عن القصد فتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

وقيل في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾[2] قال : يعملون به حق عمله .

---

١ ـ هكذا وجدت في الأصل

٢ ـ الآية ١٢١ من سورة البقرة

وقيل : ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾[1] قال : تركهم العمل .

وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب وذلك بأن الله يقول في محكم كتابه : ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[2] فضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من أطاع الله فقد ذكر وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوة القرآن» .

وقيل : أطع القرآن ينفعك ، واطلب الأدب يرفعك وفر من الدنيا تتبعك ، ولا تركبها فتصرعك ولا تتعرض للسفيه فيلسعك ، ولا تستشعر التكبر فيضعك ، ولا تسكن إلى ما يفنى فيفجعك ، وتوسع الرحمة تسعك ، واحفظ الله يحفظك ، وامتنع به يمنعك ، واذكر عند الموت مصرعك ، وفي ظلمة القبر مضجعك وإلى الله مرجعك لعل ذلك يرد عنك عما عن الحق يدفعك وعن الطاعة يمنعك .

وقال ـ عليه السلام ـ لابن مسعود ـ رحمه الله ـ : «اقرأ علي سورة النساء» فقال ابن مسعود : أقرأه عليك وعليك أنزل ؟ فقال : «نعم ؛ أحب أن أسمعه من غيري» فقرأ عليه إلى : ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[3] ففاضت عيناه بالدموع فقال : «حسبك» .

ويقال : أربعة لا تبلى أجسادهم : الأنبياء والعلماء والشهداء وحملة القرآن .

وقال وهب بن الورد : نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا

---

١ ـ الآية ١٨٧ من سورة آل عمران
٢ ـ الآية ١٢٣ من سورة طه
٣ ـ الآية ٤١ من سورة النساء

أرد للقلوب ولا استجلاء للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . وفي الحديث أن عليا قال : إن جبريل نزل على محمد ـ عليه السلام ـ وأخبره أن أمته ستفرق بعده فقال له رسول الله ﷺ : «فما المخرج يا جبريل ؟» فقال : في كتاب الله النور المبين والصراط المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذي سمعته الجن فلم يتناهوا أن قالوا : ﴿سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد﴾ [1] إلى طريق مستقيم ، الفصل وليس بالهزل ، الذي لا يخلق عن طول الرد ولا تفنى عجائبه . فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم وخبر معادكم من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن قسم به أقسط ومن يليه من جبار فيحكم بغيره يقصمه الله ومن يلتمس العلم في غيره يضله الله .

وقيل : مر ابن عمر برجل من أهل العراق ساقط والناس حوله ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا إذا قرىء عليه القرآن أو سمع بذكر الله خر من خشية الله . فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط .

وقيل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ : إن قوما إذا سمعوا القرآن صعقوا . فقالت : القرآن أكرم من أن تنزف عنه عقول الرجال ولكنه كما قال الله : ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [2] وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : الماهر في كتاب الله مع السفرة الكرام البررة .

والذي يشق عليه القرآن له أجران بمشقته وتلاوته ولا ينتفع بشيء مما ذكرناه حتى يخلص النية فيه لله ـ عز وجل ـ عند طلبه أو بعد طلبه .

ويروى عن أبي موسى الأشعري أنه قال : من إجلال الله ـ تعالى ـ إجلال حامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه .

---

١ ـ الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن

٢ ـ الآية ٢٣ من سورة الزمر

وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون أن تتلى الآية عند الشيء يعرض من أمر الدنيا .

وقال يزيد بن أبي مالك : أفواهكم طريق من طرق القرآن فطهروها ونظفوها ما استطعتم .

وقال مجاهد : إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فامسك عن القرآن حتى يذهب تثاؤبك .

قال عكرمة : يريد أن في ذلك اجلالا للقرآن وتعظيما له .

وقيل : القرآن لا يقصر بأهله عن تجارة ولا يوديهم إلى هلكة .

شعرا :

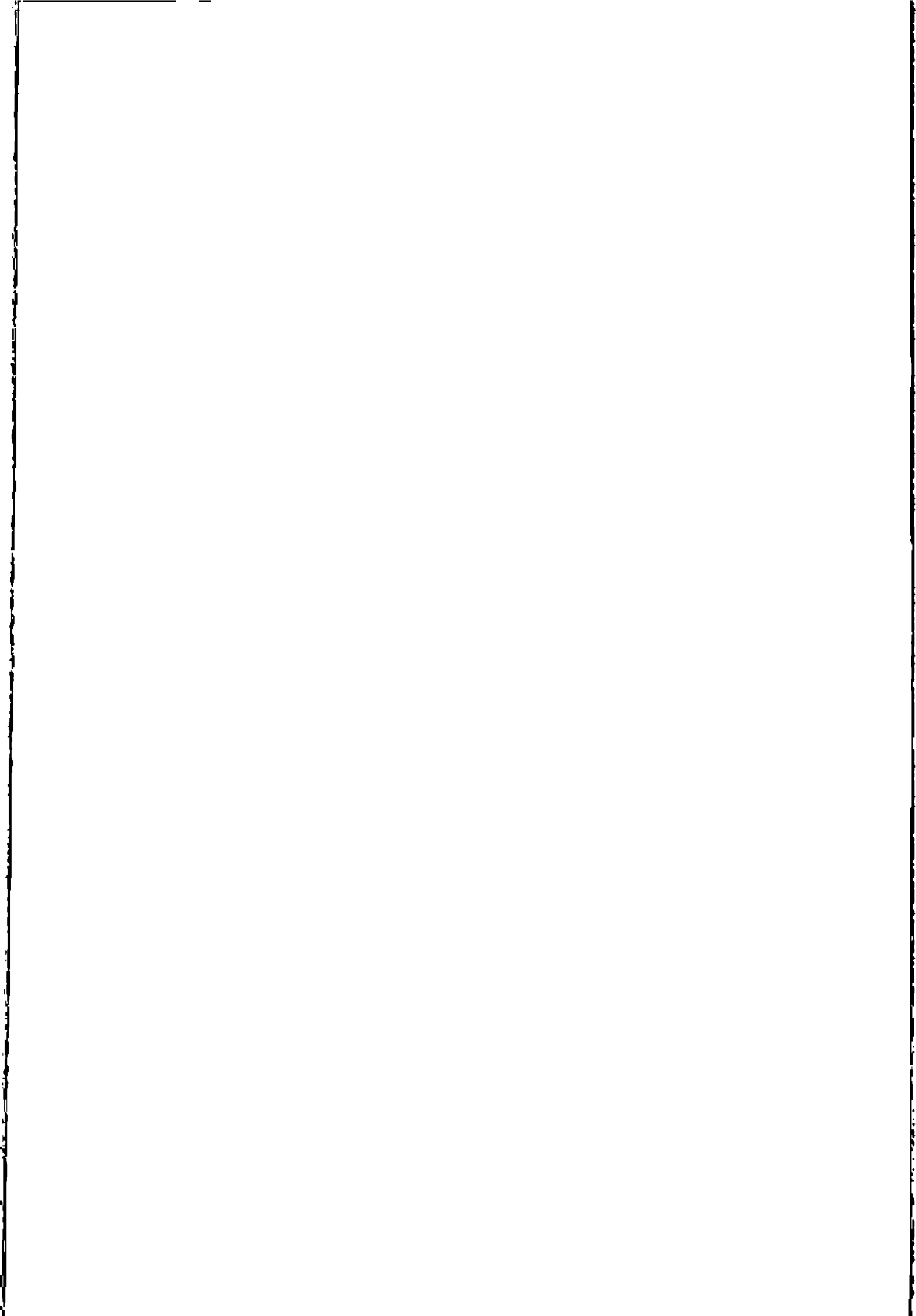
باب كروض مطير ناضر خضر ... تريح نضرته أرواح كل فئة

فيه الفوائد ثم الأجر مدخر ... ومن دراسته الأوزار منذرية

أتم لنا ربنا نورا ومغفرة ... بعد الممات إذا الأبدان متهمية[1]

---

[1] -اذا الأبدان (متهمئة) . تهم اللبن واللحم : تَهْما ، تغير وأنتن ، وتَهِم - بفتح الأول وكسر الثاني - الرجل : خبثت ريحه وظهر عجزه وتحيّره .



الباب الحادي عشر

في وجوب النية

قيل في قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾[1] أي على نيته . وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾[2] قيل : وفي قوله ـ عز وجل ـ : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[3].

الأخبـــار

قال النبي ﷺ : «الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فأجره على الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو لامرأة يتزوجها كانت هجرته إلى ما هاجر إليه»[4] .

وعنه ﷺ : «عمل الفاجر خير من نيته» . وفي خبر : «نية الفاجر شر من عمله» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «المؤمنون على نياتهم» وقال ﷺ : «لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا خشية له» .

---

١ - الآية ٨٤ من سورة الاسراء

٢ - الآية ٤٦ من سورة التوبة

٣ ـ الآية ٥ من سورة البينة

٤ ـ رواه البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

الآثـــار

قول النبي ﷺ : «نية المؤمن خير من عمله» معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن نية المؤمن في العمل خير من عمل بلا نية ، الدليل على ذلك قول الله ـ جل ذكره ـ : ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ [1] لا ليلة القدر فيه ، ومعنى قول النبي ﷺ : «الأعمال بالنيات» لعظم الثواب بالنيات وشرف الأعمال بها ، فإذا كان بلا نية فهو عمل كما يقال : الرجل بقومه ، والانسان بعشيرته والمرء بنفسه وهو رجل وانسان وإن لم يكن له عشيرة ولا قوم . فالنية فرض في الأعمال والطاعات كلها . والنية عقد بالقلب وعزيمة على الجوارح ، وهي لب العمل فيجب على عليه احكامها .

والنية هي القصد إلى الفعل طاعة لله ولرسوله محمد ﷺ .

والنية مستدامة والعمل ينقطع ، والنية لا يدخلها الرياء والعمل يدخله الرياء ، وكل عمل خلا من النية فهو باطل ولا يصح عمل شيء من الطاعات إلا بتقديم النيات . والنية إذا انفردت لم يجب بها حكم وكذلك الفعل إذا انفرد لم يجب به حكم فإذا عقب النية بالفعل الموضوع لذلك المعنى وقع موقعه ، ولا تنازع بين أهل العلم في وقوع الحكم إذا اجتمع القول والنية .

وقيل : لا يصح العمل الا بثلاث : تقوى الله والخشية والنية . وقيل : لا يصح العمل إلا بأربع : العلم والعمل والورع والنية .

كما قال المغربي :

ولا يعبد الرحمن الا بأربع دعائم صدق ضع قواعدها وابن
علوم وأعمال وورع ونية فما اختل منها فالثلاثة لا تغني

وقيل : إن صدق النية إنما يهيج من نقاوة القلب ونقاوة القلب إنما تحصل

---

١ - الآية ٣ من سورة القدر

بسبب عشر خصال .

فأولهن : الانابة إلى الله ـ تعالى ـ ، ثم ترك التزين ، ثم ترك التصنع إلى الناس ، ثم الرغبة في ترك الشهوات ، ثم الزهد في الدنيا ، ثم معاداة الشيطان ، ثم الاستعداد للموت ، ثم الاعتزال عن الخلق ، ثم الشفقة على جميع خلق الله ، ثم الرضاء بالقضاء ، ثم اليقين بوعد الله ، ثم المواظبة على ذكر الله ، ثم الصبر على البلايا ، ثم الأنس بالله . فإذا حصلت هذه الخصال في قلب عبد تمت صفاوته وثقاوته وهاج منه صدق النية ، والواجب على العبد استصحاب النية جملة وتفصيلا لتخرج أعماله مخرج الطاعة ، ولا يسعه أن يعمل عملا من واجب وجائز الا بنيته ، فأما النية في الجملة فإنه يقول : اللهم نيتي واعتقادي في كل طاعة مننت بها علي ووفقتني لها من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو جهاد أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو صلة رحم أو صدقة أو ضيافة أو تعلم علم أو قراءة قرآن أو غير ذلك من واجب أو مباح فهو طاعة لله ولرسوله ﷺ وقربة إليه .

وأما النية على التفصيل فكل معنى على قدر ما يجب فيه من واجب أو فضيلة أو مباح فكل واجب فيه . فإن النية فيه تأدية المفترض وتأدية لما تعبد الله به .

وأما الفضيلة فالنية التقرب فيه إلى الله .

وأما المباح فالنية فيه الشكر لله والتقوي على طاعته مثل الأكل والشرب والنكاح والنوم والمشي والقعود وما أشبه ذلك . وقيل : من حسنت نيته استقامت طويّته ونزه نفسه وملك هواه . وقيل : من ملك هواه فهو الرجل . فكان الحسن يقول : إنما يخلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وعن بعض الحكماء أنه قال : القصد بالقلوب أبلغ من حركات الجوارح . وقيل : من فتح على نفسه باب حسنة فتح الله عليه سبعين بابا من

التوفيق ، ومن فتح على نفسه باب سيئة فتح الله عليه سبعين بابا من الخذلان ، وباب السيئة سوء النية .

قيل : صلاح القلوب بصلاح العمل ، وصلاح العمل بصلاح النية ، ومن وقف بنفسه في المحراب وهرب بقلبه عن الوهاب فليس له عند الله ثواب .

وقيل : إذا صدرت الموعظة من القلب وقعت في القلب ، وإذا صدرت من ظاهر اللسان لم تجاوز الآذان .

وقيل : من ترأس قبل أوانه يوشك أن يفضحه الله على لسانه . وقال بعضهم : من تصدر قبل أوانه تصدى لهوانه . وقيل : الاعجاب ضد الصواب وآفة الألباب . وقيل : إذا أبغض الله عبدا نزع الرحمة من قلبه . وقيل : لا يخلو شيء من فعل العبد أن لا يكتب حسنة أو سيئة . وقيل : ما لم يكن طاعة فهو معصية .

الباب الثاني عشر

في التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله غافر الذنوب وقابل التوب ممن تاب رحمة من الله بها عليه شديد العقاب دائم العذاب عزيز ذو انتقام ممن أصر على ذنبه وأقام ، لا تبديل لكلمات الله وهو العزيز الحكيم . واعلموا أن الله له الحمد ابتلى العباد بالأمر والنهي . ومن ذلك كانت الطاعة والمعصية فبالوفاء ثبت لأهل الطاعة صدق المعرفة وأسمائها وثوابها ، وبتضييع الأمر والنهي كانت المعصية فمن المعصية بدأ الكفر وبالاصرار على المعصية كان الكفر .

وبذلك خرج أهل المعصية من صدق المعرفة وأسمائها وثوابها ودخلوا في الكفر فثبت لهم اسمه واستحقوا من الله العقاب عليه ، وذلك أن عدو الله ابليس أول من عصى فمنه كان بدء المعصية ثم أصر فكفر بإصراره فبالاصرار صار إمام المصرين على الكفر بإصراره ثم كانت التوبة رحمة من الله عاد بها على أهل المعصية ، وذلك أن آدم ـ صلى الله عليه ـ عصى بعد إبليس فاعترف بذنبه فتاب منه إلى ربه فخلص بالتوبة من الاصرار الذي كفر به إبليس وصار سبيل التوبة بعده سبيله ، وكانت التوبة براءة من اصرار الكفر ، وصار آدم إمام التائبين المعترفين . وقد ذكر الله في كتابه التوبة ووجهها وثوابها ، وذكر الاصرار ووجهه وعقابه ، وجعل التوبة في الحياة قبل حضور الموت وقبل الآيات فقال ـ عز وجل ـ : **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني**

تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ ـ يعني أهل الشرك ـ ﴿أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾[1] فالحق في هذه الاصرار من أهل الاقرار بالكفر ، وقال : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾[2] يعني المشركة التي لم يكن لها إيمان ويعني المصرة في إقرارها بالايمان وألحقها بمن كان لا إيمان له . ألا ترى كيف ميز الله المصرة في إقرارها بالايمان وألحقها بمن كان له الايمان وقال : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[3] يعني أهل التوبة .

وقال : ﴿واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾[4] يعني بذلك أهل الاصرار ، والاصرار معنى فعل ثان وهو المقام على الذنب وهو كفر وليس في الكفر والبغي إيمان ، ولا في الايمان بغي ولا كفر ، والايمان قول وعمل ونية فمن بلي بشيء من الكفر أخرجه من الايمان ولا يسمى مؤمنا إلا بالرجعة والتوبة والرضاء بحكم كتاب الله فيما أصاب من حد أو وجب عليه من حق .

وقال محبوب : ليس بين التقوى والكفر منزلة .

وكذلك قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا﴾[5] فمن لم يكن متقيا كان كافرا . وقال : وما أشبه الكبير من الذنوب أو قاربه فالكبير أولى به وأنزله المسلمون بمنزلته ، وإذا عذب الله قوما على شيء عذب من هو أعظم منه جرما ، وإن لم يأت فيه بوعيد ، ومن لم يتب من الذنوب فقد أصر والمصر من أهل النار ، والتائب من أهل الجنة . قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة

---

١ ـ الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة النساء
٢ ـ الآية ١٥٨ من سورة الأنعام
٣ ـ الآية ٢٠١ من سورة الأعراف
٤ ـ الآية ٢٠٢ من سورة الأعراف
٥ ـ الآية ١٣١ من سورة النساء

أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[1] .

وقال محبوب : انه سمع مشايخه المسلمين يقولون في هذه الآية : ذكروا الله يقولون : عظم الله عندهم وجل في نفوسهم أن يقيموا على حرام طرفة عين فذلك قوله : **﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾**[2] .

وقال النبي ﷺ : «هلك المصرون» .

وروي عن ابن عباس أنه قال : لا صغير يصغر مع إصرار ولا كبير يكبر مع توبة واستغفار .

وذكروا عن عائشة ـ رحمها الله ـ أنها قالت : ما من عبد أصاب ذنبا صغيرا فصغره واستخف به إلا عظم ذلك الذنب عند الله حتى يكبه الله في النار ، وما من عبد أصاب ذنبا كبيرا فندم عليه وصبر لحكم الله فيه وأدى الحق فيها لزمه إلا صغر ذلك الذنب عند الله حتى يغفر الله له .

وقال النبي ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وبلغنا عن أبي عبيدة مسلم أنه سئل فقيل له : هل من ذنب لا يغفر ؟ فقال : نعم ؛ ما لا يتاب منه ، والمصر الذي لا يتوب ولا يندم ولا يرعى ولا ينزع .

وبلغنا عن أبي حمير ـ رحمه الله ـ أنه قال : كل مقر عاص مصر في النار .

وقال أبو عبدالله : في قول الله ـ عز وجل ـ : **﴿وقد خاب من حمل ظلما﴾**[3] تأويلها من مات مصرا . وقوله ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿إن الحسنات**

---

١ ـ الآية ١٣٥ من سورة آل عمران

٢ ـ الآية ١٣٥ من سورة آل عمران

٣ ـ الآية ١١١ من سورة طه

يذهبن السيئات﴾[1] فذلك على التوبة يكون الثواب والعقاب من الله على أهلها ليس على ما قال أهل الشك ، وقوله : **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها﴾**[2] إلى العباد **﴿وما بطن﴾** عن العباد .

والتوبة مع المسلمين اقلاع المذنب عن ذنبه والندم عليه بقلبه والتوبة منه إلى ربه والاستغفار بلسانه والاعتقاد لترك العودة إلى عصيانه .

والذنوب عند المسلمين على منزلتين : فذنوب يهلك بها صاحبها عند مباشرتها ومواقعتها وهي الكبائر ، وذنوب يهلك بها صاحبها بترك التوبة منها والمقام عليها وهي الصغائر .

وعن بعض الصحابة ؛ أن الكبائر ما ذكر الله ـ تعالى ـ في سورة النساء من أولها إلى قوله ـ عز وجل ـ : **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾**[3] .

وعند بعضهم ؛ الكبائر : ما ذكر الله في سورة النور من أولها إلى قوله : **﴿وتوبوا إلى الله جميعا﴾**[4] (الآية) .

وقال المسلمون : كل ما أوجب الله فيه الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة فهو من الكبائر .

وقال محمد بن محبوب : اللمم ؛ ما دون الكبائر من الذنوب التي تكون بين العباد وبين الله مثل الغمزة واللمزة والنظرة ، وما كان أهله يدينون بالتوبة منه والاستغفار فذلك هو اللمم ، وكل ما ألم بالقلب من ذكر المعصية وأهم لها والعمل بها من غير شتم المؤمنين والوقوع في أعراضهم فهذا إذا نسي يستغفر الله منه ، قال الله ـ تعالى ـ : **﴿إن ربك واسع المغفرة﴾**[5] فهذا إذا كان يدين

---

١ ـ الآية ١١٤ من سورة هود
٢ ـ الآية ١٥١ من سورة الأنعام
٣ ـ الآية ٣١ من سورة النساء
٤ ـ الآية ٣١ من سورة النور
٥ ـ الآية ٣٢ من سورة النجم

بالتوبة منه ومما نهاه الله ـ تعالى ـ عنه أجزاه .

ونوع آخر مثل : من خان من مال غيره حبه أو حطبه أو خلالا أو نباته أو لبس ثوبا أو ركب دابته أو استعمل خادمه أو استعار شيئا فاستعمله بغير ما استعارة أو وطىء في حرثه فتلف شيء بوطئه أو قعد على سريره أو حصيره أو كتب من دواته أو بقلمه أو في رقعة قرطاس أو استقى بدلوه أو انتفع بشيء من الأشياء له فكل هذا ومثله مما أصحابه معروفون بالمنع له من صغائر الذنوب وانما يكفر صاحبها بالاصرار عليها لا بركوبها ، وكل هذه من حقوق العباد وعليه الخروج إليهم منه إلا ما كان منه الادلال الذي يجري بين الناس مثل رجل يدل على صديق أو أخ في الله ـ تعالى ـ أو الأهل أو غيرهم في أموالهم لا بأس بذلك وذلك فيها لو وجده صاحبه يفعله لم يستح من ذلك ويعلم أنه يسره ويفرح به وأن ذلك مباح بينهما فقد رخص بعض الفقهاء في الادلال على هذه الصفة .

وأما غيرهم فعليه الخروج من جميع ذلك .

وتوبة من فعل من ذلك شيئا الاعتراف به والخروج منه بمثل أو قيمة وإن نسي شيئا منه وهو يدين بالتوبة وتاب في الجملة فأرجو له السلامة إن شاء الله ـ تعالى ـ . ونرجو أن هذه الذنوب التي سميناها مما يغفرها الله للمسلمين على التوبة ولسنا نأمن العقاب عليها فالفريضة على المسلمين أن يغفروها على التوبة وأن تكون من السيئات ، قال الله ـ تعالى ـ : **﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾**[1] فلا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله عليها ولا ييأس من مغفرته عند التوبة منها .

أبو عبيدة : سمعت ناسا من الصحابة يروون عن النبي ﷺ قال : «الذنوب على وجهين ؛ ذنب بين العبد وربه إذا تاب منه كمن لا ذنب له ،

---

١ ـ الآية ٣٢ من سورة النجم

وأما ذنب بينه وبين صاحبه فلا توبة حتى يرد المظالم إلى أهلها» .

قال أبو المؤثر : ما دخل أهل الجنة الجنة إلا بفضل الله ورحمته ومغفرته وتوفيقه وارشاده وعصمته وهداه وعفوه ثم هداهم إلى التوبة والاستغفار ثم بأعمالهم الصالحة التي علم الله أنهم سيعملونها ولا محالة عما علم الله ، ولا يبطل علم الله ولم يحف الله لهم ولم يحابهم ؛ لأن نعمة الله سبقت كل نعمة وإحسان الله سبق كل إحسان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ولا حجة على الله ولا مِنَّة بل لله المن والحجة وما دخل أهل النار النار إلا بأعمالهم الخبيثة التي علم الله ولم يظلمهم الله شيئا ولم يَجُرْ عليهم إن الله ليس بظلام للعبيد ، وما زالت أقدام أهل الجنة من موقف يوم القيامة إلى الجنة حتى علموا فضل الله عليهم ، ولم يحابهم ولم يحف[1] عليهم ، وما زالت أقدام أهل النار في النار من عرصة[2] يوم القيامة إلى النار حتى علموا عدل الله ولم يجر عليهم ولم يظلمهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن مسعود قال النبي ﷺ : «لزوم الفقير حرام والمدعي ما ليس له والمنكر لما عليه كافران» .

وقيل لبعض الرهبان : لأي شيء قست قلوبنا وكثرت ذنوبنا ولا نتوب إلى ربنا ؟ قال : لأنكم تركتم الآخرة وعملتم بالأعمال الخاسرة ، وتركتم العلم ، وظهر منكم الجهل والظلم ، وضيعتم الأمانة ، وأظهرتم الخيانة ، وداخلكم الكبر والعجب ، وضيعتم الصلوات ، ومنعتم الزكوات ، وقطعتم الصدقات ، ومشيتم بالنميمات ، وظلمتم الأيتام ، وجرتم في الأحكام ، وعصيتم الرحمن ، وأطعتم الشيطان ، وأكلتم الربا ، وأطعتم النساء ، وتعاملتم بالفجور ، وشهدتم بالزور ، وتواضعتم للأغنياء ، وتكبرتم على الفقراء ، وقست قلوبكم ، وكثرت ذنوبكم ، ولا واعظ ولا زاجر ،

---

١ ـ الحيف : الظلم أي لم يظلمهم

٢ ـ الساحة والمكان الخالي الذي ليس فيه بناء

ولا خائف ولا حاذر ، كلامكم حلو وفعلكم مر ، وألسنتكم باشة وقلوبكم غاشة ، فلا من الله تستحيون ، ولا إليه تتوبون ، وعن قريب تموتون ثم تبعثون فتسألون عما كنتم تعملون .

وقال بعض الفقهاء : طوبى لمن ترك شهوة حاضره لموعود يوم غائب لم يره .

وقيل : ما رحم نفسه من عصى الله .

وقيل : انه - عز وجل - أوحى إلى جبريل - عليه السلام - : (اسلب عبدي ما صلح به من حلاوة طاعتي فإن طلبها فارددها عليه وان لم يردها فلا تردها عليه أبدا) .

وعن عيسى - عليه السلام - : (طوبى لمن تاب لا يهم بمعصية ونيته إلى غير اثم) .

وقال الحجاج : رحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وجذبها بزمامها عن معصية الله وأن الناس إذا تركوا العمل مما أمروا به وركبوا ما نهوا عنه اختلفوا في دينهم وتباغضوا وتعادوا ؛ لأن الله جعل في طاعته الألفة والجماعة والحب وجعل في تركها التباغض والاختلاف عقوبة من الله .

وكان جابر يقول : لو أن ابن آدم أطاع ما عثر في قميصه فقد ينبغي لمن أراد أن ينصر الدين ويقوم بما أمره الله أن يصلح ما بينه وبين الله ولا يخرج ونيته في معصية الله فيخذله الله ويديل عليه عدوه ، فإن المؤمن إذا خرج وهو مطيع لله لم يرد غير الله ثبته الله وسدده ونصره وأراه الحق حقا والباطل باطلا وخذل عدوه . واذا خرج وهو مصر على معاصي الله خذله الله وأدال عليه عدوه .

وقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح همته غير الله فليس من

الله» .

وعن النبي ـ عليه السلام ـ : «من سره أن يعلم ما عند الله له فلينظر ما عنده لله من الصدق والوفاء والبر والتقوى» .

وعن النبي ﷺ أنه قال : «من أصبح لا يهتمّ بظلم أحد غفر الله له ما اجترم» . وقيل : من سره الغنى بلا مال ، والعزة بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة فإنه واجد ذلك كله . وقيل : علامة التائب دوام الأسف على ما انقضى من عمره في البطالة والاشفاق من أن لا يدري أقبل منه ذلك أم لا ؟ وهل قصر فيها وإنه لا يدري أيضا ما يختم له مع دوام الانكماش فيما يقبل عليه من عبادة ربه وانكسار القلب والجوارح والاجتهاد فيما يمكنه وبذل المهجة فيما دعي إليه ، والاخلاص الذي ينجو ويزكو به عمله لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾[1] . وقال ـ عز وجل ـ : ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾[2] ، فكل عمل يكون بغير الاخلاص فهو تعب ولا محصول له في الدنيا ولا في الآخرة لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**﴾[3] .

وعلامة صدق التوبة بترك الذنوب الظاهرة والباطنة ، وترك الخيانة في ضميره ، وأن يكون قلبه سالما منها ، وترك المداهنة في دينه ، مع أداء المظالم في أهلها ، والاستحلال إلى من ظلم ، وتعدى مع العزيمة أن لا يعود في شيء من ذلك ، ما دام حيا ، ويدين لمن قد بهته واغتابه ، ويستحله منه . قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾[4] . واستغفر بلسانه من ذنوبه التي كان قدمها وسلفت منه في

---

١ ـ الآية ٥ من سورة البينة

٢ ـ الآية ٣ من سورة الزمر

٣ ـ الآية ٢٣ من سورة الفرقان

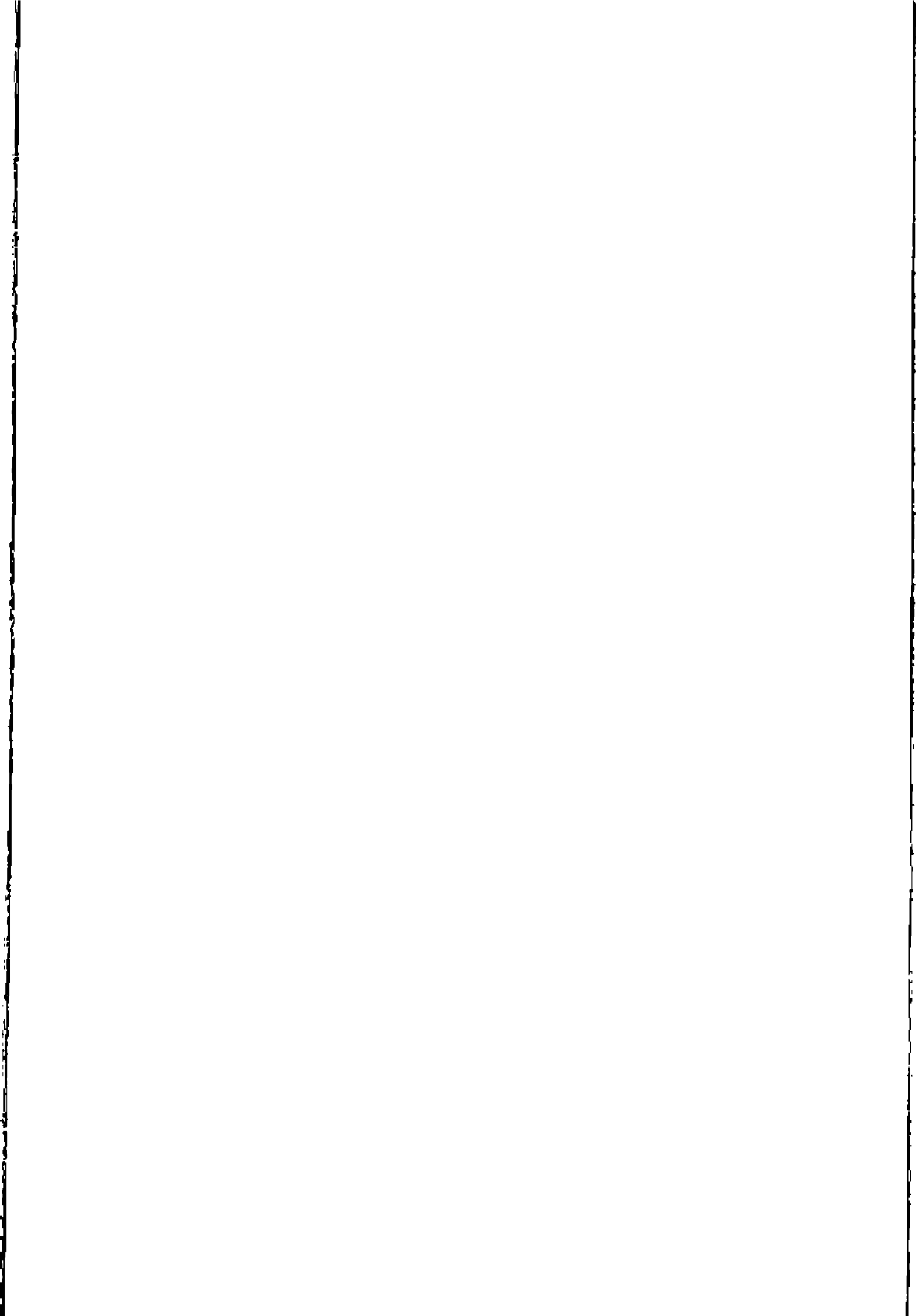
٤ ـ الآية ١٦٠ من سورة البقرة

أيامه ، ويبكي عليها حسرة على ما فرط من أمر الله وحقه وعدوله عنه أيام جهله وتمرده فليس تخلص التوبة لأحد من التائبين إلا من تكلف ولزم ما بينته بالحجة والبيان الذي شرحته ، قال الله ـ تعالى ـ : **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة﴾** [1] . وقال الحسن في قوله ـ عز وجل ـ : **﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾** [2] ، قال : هي التوبة .

---

١ ـ الآية ٤٢ من سورة الأنفال

٢ ـ الآية ٥٤ من سورة سبأ



الباب الثالث عشر

في التفكير

قد أمر الله بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال : ﴿ويتفكرون في خلق السموات والارض﴾[1]

الآثـــار

قال ابن عباس : إن قوما تفكروا في الله تعالى فقال النبي ﷺ : «تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في الله سبحانه فإنكم لن تقدروا قدره» .

وعنه ﷺ انه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : «مالكم لا تتكلمون قالوا: نتفكر في خلق الله تعالى قال : فكذلك فافعلوا تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب ارضا بيضاء نورها بياض نورها مسيرة الشمس اربعين يوما بها خلق من خلق الله لم يعص الله طرفة عين قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال : ما يدرون خلق الشيطان ام لا قالوا : من ولد آدم قال : ما يدرون خلق آدم عليه السلام أم لا» .

وقال ﷺ : «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»

وعن وهب بن منبه أنه قال : ما طالت فكرة الرجل قط إلا علم وما علم إلا عمل وما عمل إلا تجازى جزاء كاملا .

---

١ - الآية ١٩١ من سورة آل عمران

وقال لقمان لابنه : ان طول الوحدة أجمع للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة .

وقال حكيم : التفكر حارس القلب عن الغرق في بحار الغفلة .

وقال أهل التحقيق : التفكر سراج القلب يرى به القلب خيره وشره ، ونفعه وضره ، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبطه الشيطان .

وعن الفضيل : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقيل لابراهيم : انك تطيل الفكرة فقال : الفكرة مخ العقل .

وعن طاووس : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ قال : نعم . من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلي» .

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى : **﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق﴾**[1] قال أمنع قلوبهم من التفكر .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطلعت قلوب المتقين الى ما قد ذخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم في الدنيا عين .

وقال عمر بن عبدالعزيز : الفكرة في نعم الله تعالى من أفضل العبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب .

---

١ - الآية ١٤٦ من سورة الأعراف

وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الأخرة ، وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب .

وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة .

وقال أيضا : صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الراي سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم ، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في اليقين وقوة في البصيرة . ففكر قبل ان تعزم ، وتدبر قبل ان تهجم ، وشاور قبل ان تقدم .

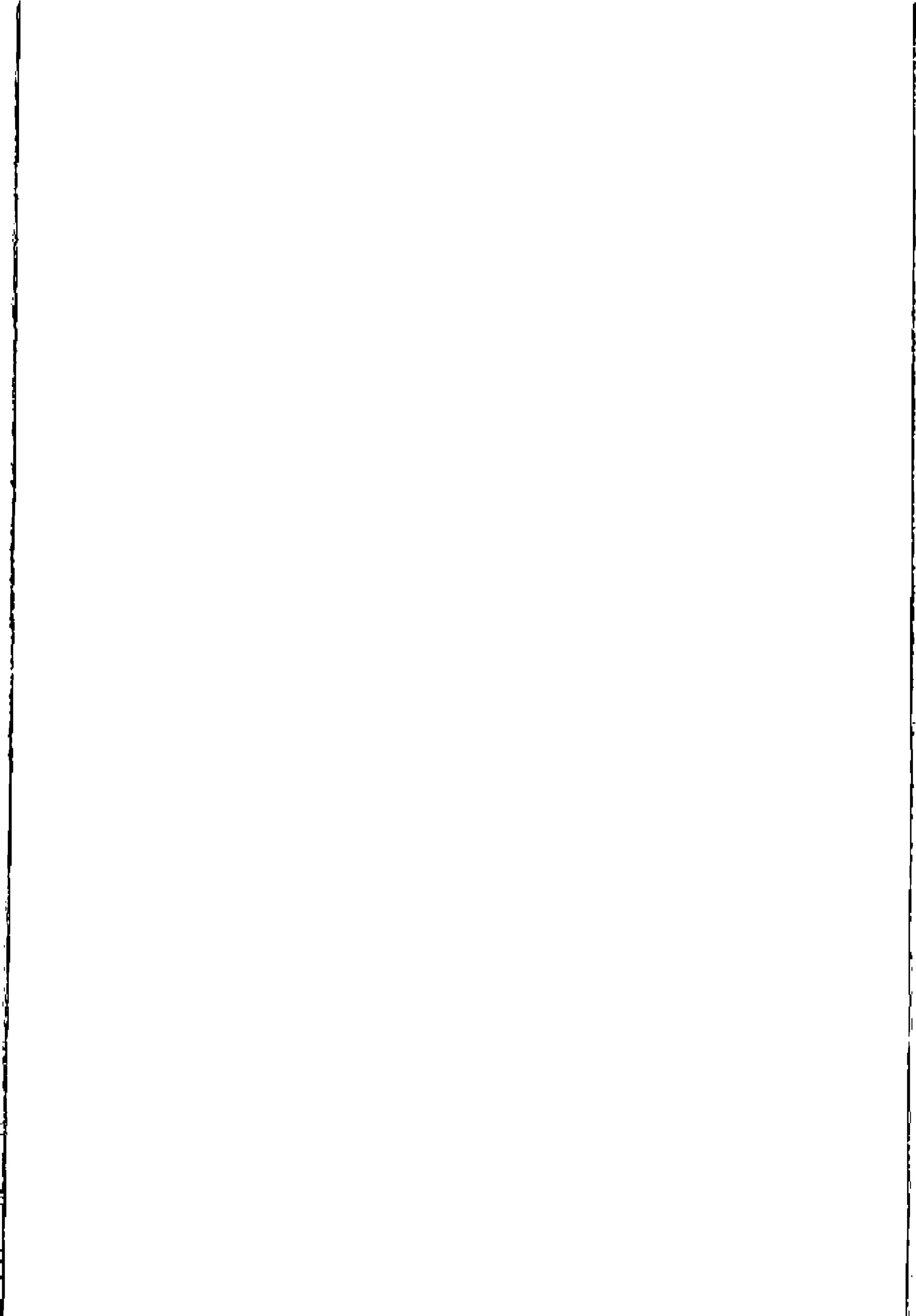
وقال : الفضائل اربعة أشياء : احداها الحكمة وقوامها الفكرة .

والثانية : العفة وقوامها في الشهوة .

والثالثة : القوة وقوامها في النصب ـ لعله ـ الغضب .

والرابعة : العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس .

وقال ابن عباس : التفكر في الخير يدعو الى العمل به ، والندم على الشر يدعو الى تركه .



الباب الرابع عشر

في الرضى بقضاء الله وقدره

عن ابن عباس أنه قال : أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ «أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي من استسلم لقضائي وشكر نعمائي وصبر على بلائي كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين ومن لم يستسلم لقضائي ولم يشكر نعمائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ إلها غيري» .

وذكر في الخبر أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام .

«يا عيسى من لم يرض من الدنيا بما قسمت سلطت عليه الدنيا يركض فيها ركضا ثم بعد ذلك ليس له منها إلا ما قسمت له» .

عن الحسن بن نابي الحسن قال : لا ينبغي للعبد ان يكون في منزلة او حالة فيتمنى على الله غيرها فإنه لا يدري إذا وصلها ما تكون حالته فيها ولكن ينبغي له ان يصبر على الحالة التي هو فيها ويسأل ربه الخير .

وبلغنا أنه شكا نبي من بني اسرائيل القل والجوع الى ربه عشر سنين فما نظر في حاجته ولا أجيب في دعوته واحتبس عنه الوحي فبكى فلما اكثر اوحى الله عز وجل «لقد ظفر بك عدوك وشغل قلبك . لم تشكو إلي ولست بأهل ذم ولا شكوى وانت اولى بالذم والشكوى .

هكذا كان في بدو شأنك في علم الغيب من قبل ان اخلقك وتلك درجة

من اورثته دار قدسي وأبحته جواري . إني إذا احببت عبدا جلبت عليه البلاء جلبا فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط وسيقدم فيرى جزائي وعقابي افتريد ان اعيد من اجلك مرة اخرى فيكون ما تريد دون ما أريد أو يكون ما تحب دون ما أحب فوعزتي وجلالي لأن عاودتني في مسألتي لأدخلنك النار ولو كنت ابراهيم .

اذكر آباك آدم حين خلقته بيدي - اي قدرتي - ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وأسكنته جنتي ثم أخرجته من جواري بأكله فازجر نفسك عن مسآلتي ومعصيتي أمدبرا غيري تريد أم رجاء غيري تأمل» .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال[1] أهدي للنبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها من شعر ثم اردفني خلفه ثم سار بي مليا ثم التفت إلي فقال : «يا غلام» فقلت لبيك يا رسول الله فقال : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وان سألت فاسأل الله وان استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق على ان ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وأن مع الكرب الفرج ومع العسر يسرا» .

وقيل : الزاهد نظره في الدنيا عبرة ، وكلامه حكمة ، وسكوته فيها تفكر ، يصبر عند البلاء ، ويشكر عند الرضى ، ويرضى بجميع القضاء ، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتمثل بهذين البيتين :

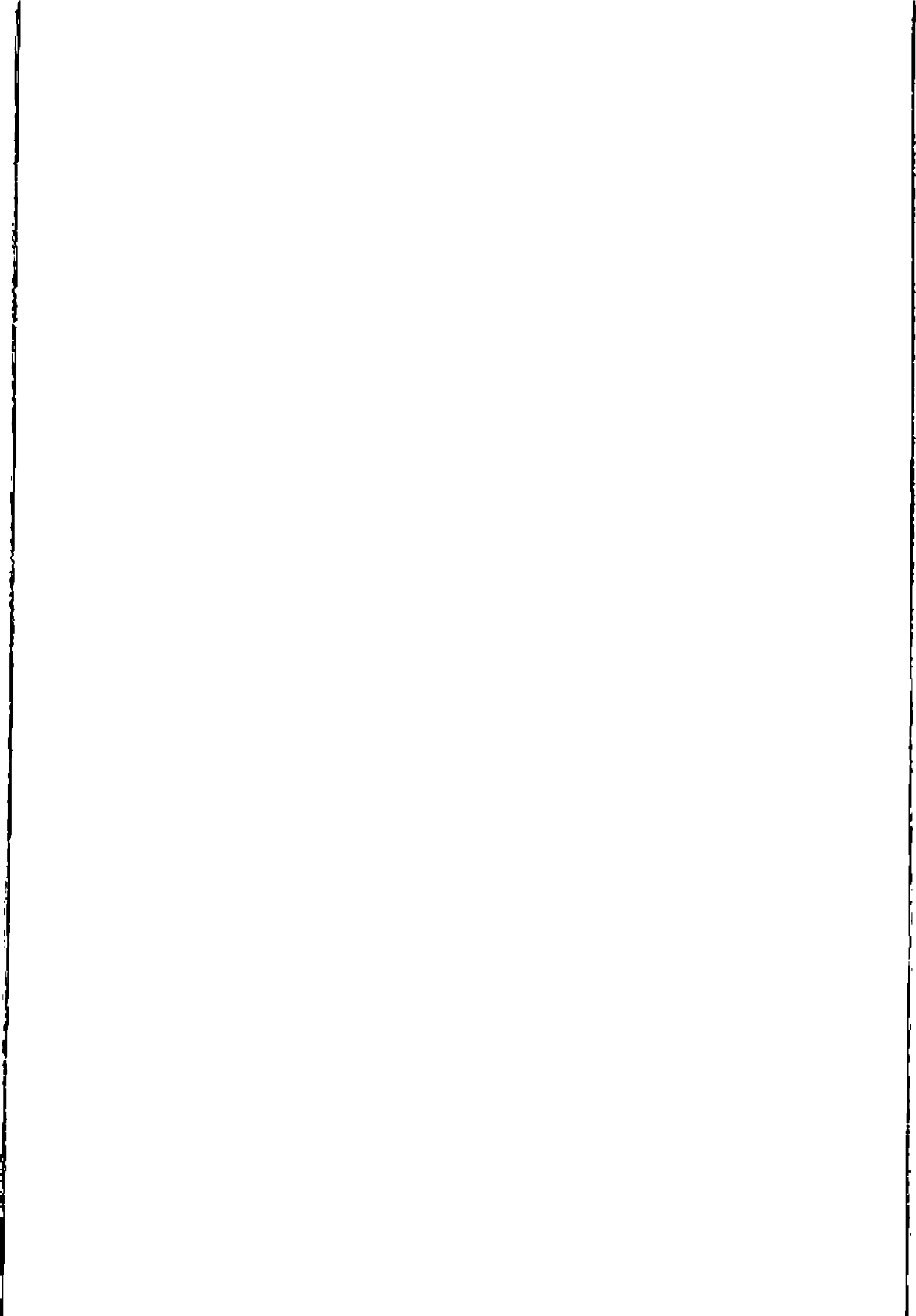
هون عليك فإن الامور بكف الاله مقاديرها

فليس يأتيك مصروفها ولا غائب عنك مقدورها

---

١ - رواه الترمذي عن أبي عيسى عبدالله بن عباس وقال حسن صحيح

فتدبر هذه الامور بعقلك والزم قلبك الرضى بقضاء الله تعالى والتفويض لأمره وقضائه وقدره في الحلو والمر والخير والشر في كل ما يريده . واعلم ان الأمور بالعواقب ، فكم من شر في صورة الخير ، وكم من ضر في جلبه نفع ، وكم من سم في هيئة شهد ، وأنت جاهل بالعواقب والأسرار الخفية .



الباب الخامس عشر

في الخوف والرجاء

قال الله تعالى : ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾[١]

وقد فرض الله على العباد ان يخافوه فقال : ﴿وخافون ان كنتم مؤمنين﴾[٢] .

وقال : ﴿وإياي فارهبون﴾[٣] .

ومدح المؤمنين بالخوف فقال : ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٤]

الأخبار

قال ﷺ : «رأس الحكمة الخوف» .

وقال ﷺ : «قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا اجمع للمؤمن[٥] خوفين ولا أجمع له امنين فإذا امنني في الدنيا اخفته يوم القيامة ، واذا خافني في الدنيا امنته يوم القيامة»

---

١ - الآية ١٦ من سورة السجدة
٢ - الآية ١٧٥ من سورة آل عمران
٣ - الآية ٤٠ من سورة البقرة
٤ - الآية ٥٠ من سورة النحل
٥ - في الأصل (المؤمن) والصحيح ما ثبت

وقال ﷺ : «اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا» .

وقال ﷺ : اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تعالى تحاتت عنه خطاياه كما تتحاتت من الشجرة ورقها» .

وقال عقبة بن عامر : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : «امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» وفي الخبر : «اوحى الله تعالى الى موسى بن عمران عليه السلام : خف ممن يعلم السر والعلانية وارجُ ممن يملك الدنيا والآخرة واحذر ممن يأخذك حيث شاء» .

وقال رسول الله ﷺ : «لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله» .

قال الناسخ : وقد عرفت ان حسن الظن بالله حسن العمل .

وقال عليه الصلاة والسلام : «المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار» .

وقال ﷺ : «لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» .

وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود : «ان اردت ان تلقاني فاكثر من الخوف بَعْدي»

الآثـــار

قال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ ان المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه .

وروي ان عليّا قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفا ترى أنك إن أتيته بحسنات أهل الارض لم يقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى انك ان أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك .

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا اذ قد كان خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين .

وقال يحيى بن معاذ : من عبدَ الله بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبدَ الله بالخوف والرجاء استقام في مهجة ذوي الاستبصار .

وقال بشير بن الحارث : الخوف ملك لا ينزل الا في قلب تكون فيه تقوى الله تعالى .

وقال ابو عثمان المغربي : للايمان ثلاث خصال : الخوف والرجاء والمحبة .

ففي الخوف ترك الذنوب ، وبه النجاة من النار .

وفي الرجاء حسن الطاعة ، وبه وجوب الجنة .

وفي المحبة تحمل المكروهات ، وبه يوجد رضى الله تعالى .

وقال ابو عثمان : الرجاء يتولد . من الايمان ، وهجران الشر ، ومجاهدة النفس ، ودوام الخوف .

وقال أبو سليمان الداراني : ما تغررت عينا عبد بدمعة من خشية الله تعالى وانهارت إلا لم يرهق[1] وجه صاحبها قتر[2] ولا ذلة يوم القيامة .

---

١ ـ في الأصل (يرحق) والصحيح ما ثبت بنص القرآن

٢ ـ جمع قترة وهي الغبار

وقال سهل : لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلبا إلا خرب . وقيل للحسين : يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالس أقوام بخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله انك ان تخالط قوما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير من ان تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف .

وقال الشبلي : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط .

سئل عالم ما أصل الطاعة ؟ قال اربعة أشياء : الخوف والرجاء والحياء[1] .

وقال عالم : الخوف سراج القلب ، به يبصر ما في القلب .

وقيل : علامة الخوف : قصر الأمل .

وقال ذو النون المصري : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق .

وقال ابو عثمان : اصدق الخوف التورع عن الأثام ظاهرا وباطنا .

وسئل أحمد بن عاصم : ما علامة الرجاء في العبد ؟ قال ان يكون إذا أحاط به الاحسان الهم الشكر راجيا لتمام هذه النعم من الله عليه في الدنيا وتمام عفوه في الآخرة .

---

١ - هكذا في الأصل لم يذكر الرابع ولعله المحبة

الباب السادس عشر

صفة المتقين السالكين طريق الآخرة

من خطبة لعلي بن ابي طالب . أما بعد . فإن الله سبحانه خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، وآمنا من معصيتهم ، لأنه لا يضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، وقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها أهل الفضائل ، منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء ، لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا الى الثواب وخوفا من العقاب ، عظم الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في اعينهم فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، واجسادهم نحيفة ، وحاجتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياما قصيرة ، اعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، ارادتهم الدنيا ولم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ، ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلعت أنفسهم إليها شوقا ، وظنوا أنها نصب اعينهم ، واذا مروا بآية فيها تخويف اصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، فهم يطلبون الى الله

فك رقابهم ، وأما النهار . فعلماء حلماء أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بري القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم مرض . ويقول : قد خلطوا ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من اعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ومن اعمالهم مشفقون ، واذا زكي احدهم خاف مما يقال له فيقول : أنا اعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي من نفسي ، اللهم لا تؤاخذنا بما يقولون ، واجعلني افضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون .

فمن علامة احدهم انك ترى له قترة في الدين ، وحزما في لين وايمانا في يقين ، وحرصا في علم ، وعلما في حلم ، وقصدا في غنى ، وخشوعا في عبادة ، وتجملا في فاقة ، وصبرا في شدة وطلبا في حلال ، ونشاطا في هدى ، وتحرجا عن طمع ويعمل الأعمال الصاحلة وهو على وجل ، يمسي وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ويصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرة اعينهم فيما لا يزول ، وزهادتهم فيما لا يبقى ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل ، تراه قريبا أمله ، قليلا أزله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، متزورا اكله ، سهلا امره ، حريزا دينه ميتة شهوته ، مكظوما غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون إن كان في الغافلين كتب من الذاكرين ، وان كان من الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل ان يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر به ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وان ضحك لم يعل صوته ، وان بغي عليه صبر حتى يكون الله هو

الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة اتعب نفسه لآخرته ، واراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر ولا عظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة ، واعلموا عباد الله ان المتقين ذهبوا لعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ، سكنوا الدنيا فأفضل ما سكنت ، واكلوها بأفضل ما اكلت ، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون ، واخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ ، والمتجر المربح ، أصابوا لذة ، زهدوا الدنيا في دنياهم ، وتيقنوا أنهم جيران الله غدا في آخرتهم لا ترد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيب من لذة ، فاحذروا عباد الله الموت وقربه ، واعدوا له عدته ، فإنه يأتي بأمر عظيم ، وخطب جليل ، بخير لا يكون معه شر أبدا ، وشر لا يكون معه خير أبدا فمن اقرب الى الجنة من عاملها ، ومن أقرب الى النار من عاملها .

وانكم طردوا الموت ، إن اقمتم له أخذكم ، وان فررتم منه ادرككم ، وهو الزم لكم من ظلكم .

الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تطوى من خلفكم فاحذروا نارا قعرها بعيد ، وحرها شديد ، وعذابها جديد ، دار ليس فيها رحمة ، ولا تسمع فيها دعوة ، ولا تفرج فيها كربة وان استعظمتم أن يشتد خوفكم من الله ، وان يحسن ظنكم به فاجمعوا بينهما ، فإن العبد انما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه ، وان أحسن الناس ظنا بالله أشدهم خوفا له .

ومن وصيته لابنه الحسن . أوصيك بتقوى الله يا بني ولزوم امره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي والأيام ، واعرض عليه

أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر ماذا فعلوا ، وعما انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا ، فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل صرت كأحدهم ، فاصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لا تكلف ، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، فإن الكف عن حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وامر بالمعروف تكن من أهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله بجهدك وجاهد في الله حق جهاده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وألج نفسك في الأمور كلها إلى إلهك ، فإنك تُلْجيها الى كهف حريز ومانع عزيز ، وتفقه في الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر ، واخلص في المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان .

يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وأحوالها وزوالها وانتقالها ، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد الله فيها لأهلها ، وضربت لك فيها الامثال لتعتبر بها وتحذر عليها .

إنما مثل الدنيا كمثل قوم سفر نبا بهم [1] منزل جديب ، فأموا منزلا خصيبا ، وجنابا مربعا ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق وخشونة السفر ، وخشونة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك الماء ولا يرون النفقة مغرما ولا شيء أحب إليهم مما قربهم إلى منزلهم ، وأدناهم الى محلتهم .

ومثل من اغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم الى منزل جديب فليس شيء اكره إليهم ولا افظع[2] عندهم من مفارقة ما كانوا فيه الى ما يهجمون عليه ويصيرون اليه .

---

١ ـ نبا بهم : نبا الشيء : نُبُوا ـ بضمتين ـ ونُبِيًا ـ بضم فكسر ـ ونَبْوة ـ بفتح فسكون : لم يستو في مكانه المناسب له ، ويقال : كلمة نابية أي قلقة وغير منسجمة ، ونبا عن الفراش : لم يطمئن به ، والنبوة هي الجفوة ، يقال بينهما نَبوة وهو يشكو نبوة الدهر ، أي خطبه .

٢ ـ في الأصل (المفضع) والصحيح ما ثبت

يا بني : اجعل نفسك ميزانا بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب ان تُظْلَم ، وأحسن كما تحب ان يُحْسَن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك ، واعلم ان الاعجاب ضد الصواب وآفة الألباب فاسع في كدحك ، ولا تكن خازنا لغيرك .

فإذا أنت هديت لقصدك فكن اخشع ما تكون لربك .

واعلم ان أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة وأنك لا غنى بك فيه عن حسن الارتياد وقدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر فلا تحمل على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك عليك وبالا [1] ، واذا وجدت من اهل الفاقة من يحمل زادك الى يوم القيامة فيوافيك به غدا حيث تحتاج إليه ، فاغتنمه وحمله إياه ، واكثر من تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فلا تجده واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك .

واعلم ان أمامك عقبة كؤودا المُخِف فيها احسن حالا من المثقل ، والمبطىء عليها أقبح حالا من المسرع ، وأن مهبطها بك لا محالة على جنة أو نار فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطىء المنزل قبل حلوله ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا الى الدنيا منصرف .

واعلم ان الذي بيده خزائن السموات والارض قد اذن لك في الدعاء وتكفل لك بالاجابة ، وامرك ان تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك ولم يلجئك الى من يشفع لك إليه ، ولم يمنعك إن شئت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يفضحك حيث الفضيحة ، ولم يشدد عليك في قبول الانابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم ييئسك من الرحمة بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة وحسب سيئاتك ـ لعله سيئتك ـ واحدة وحسب

---

١ - وجدت في الأصل (عليك وبالا عليك) وهو تكرار لا حاجة اليه فحذفت كلمة عليك

حسنتك عشرا وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب فإذا ناديته سمع نداك ، واذا ناجيته علم نجواك ، واذا شئت اقتضيته فافضيت إليه بحاجتك وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت إليه همومك ، واستكشفته كربك واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على عطائه غيره ، واستفتحت أبواب نعمته ، واستمطرت شآبيب رحمته ، وربما اخر عنك الاجابة ليكون لك أعظم الأجر للسائلين وأجزل العطاء للآملين .

وربما تسأل الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيرا منه عاجلا وآجلا وصرف عنك لما هو خير لك فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك ولو أوتيته ، فلتكن مسألتك له فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله .

واعلم أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء وللموت لا للحياة ، وانك في منزلة قلعة ، ودار بلغة ، وطريق الى الأخرة ، وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ولا يفوته طالبه ، ولا بد أنك مدركه . فكن منه على حذر ان يدركك وأنت على حالة سيئة ، وقد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة فتحول بينك وبين ذلك ، فإذا أنت قد اهلكت نفسك .

يا بني اكثر من ذكر الموت ، وذكر ما تهجم عليه ، وتفضي بعد الموت عليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له ازرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك . واياك ان تغتر بما ترى من اخلاد اهل الدنيا وتكالبهم عليك فقد نبأك الله عنها ، ونعت لك هي نفسها ، وتكشفت لك عن مساوئها ، فإنما اهلها كلاب عاوية وسباع عادية ضارية ، يهر بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها .

نعم معلقة ـ لعله ـ معقلة وآخر مهملة ، قد أضلت وركبت مجهولها سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منازل الهدى فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتخذوها ربا فلعبت بهم الدنيا ولعبوا بها ونسوا ما وراءها .

رويدا يسفر الظلام كأن قد وردت الأظعان يوشك من أسرع ان يلحق .

واعلم يا بني ان من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفا ، ويقطع المسافة وان كان مقيما وادعا ، واعلم يقينا انك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وانك في سبيل من كان قبلك فخفض في الطلب وأجمل في المكتسب فإنه رب طلب قد جر الى حرب ، وليس كل طالب بمرزوق ولا كل مجمل بمحروم ، واكرم نفسك عن كل دنية ، وان ساقتك الى الرغائب فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا ، وما خير خير لا ينال إلا بشر ، ويسر لا ينال الا بعسر ، وإياك ان تزحف بك مطايا اللجاج فتوردك مناهل الهلكة ، وان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنك مدرك قسمك وآخذ سهمك ، وان اليسير من الله اكرم واعظم من الكثير من خلقه ، وان كان كل منه ، وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من ادراكك ما فات من منطقك ، وحفظك ما في الوعاء بشد الوكاء ، وحفظ ما في يديك أحب إليّ من طلب ما في يد غيرك ، ومرارة اليأس خير من الطلب الى الناس ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور والمرء احفظ لسره ورب ساع الى ما يضره .

قارن اهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم ، بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم .

وإياك والاتكال على المنى فإنها بضائع النوكى

والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك ، بادر الفرصة قبل ان تكون غصة ، ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤوب ومن الفساد اضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد ، ولكل أمر عاقبة ، سوف يأتيك ما قدر لك ، واياك أن تطمح بك مطية اللجاج .

احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على الغدر كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك ، اياك ان تضع ذلك في غير موضعه .

لا تتخذن عدو صديقك صديقا فتعادي صديقك ، ولا تمحض أخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة ، وتجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولِنْ لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك ، وجز على عدوك بالفضل فإنه أحد الظفرين ، وإذا أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها إن بدا له ذلك يوما ، ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك .

ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا يكونن أخوك اقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان .

ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فإنه يسعى في مضرته ونفعك وليس جزاء من سرك ان تسوءه .

واعلم يا بني أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك ، ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى ، وانما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك وان كنت جازعا على ما أثقلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك ، لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بلغت في إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالأدب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب .

اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين من ترك القصد جار .

الصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العمى رب بعيد اقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد .

من اقتصر على قدره كان ابقى له .

ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب العمى ـ لعله ـ الأعمى رشده .

وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل .

من أمن الزمان أخانه ، ومن عظمه اهانه .

ليس كل من رمى أصاب دما .

اذا تغير السلطان تغير الزمان .

سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، وإياك ومناورة النساء فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن الى وهن واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب ابقى عليهن ، وليس خروجهن بأشد من ادخال من لا تثق به عليهن ، وان استطعت ان لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها ، واياك والتغاير في موضع غيرة فإن ذلك يدعو الصحيح الى السقم ، والبرىء الى الريبة ، واكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول .

استودعك الله دينك ودنياك ، واسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

ومن كلام له أيضا قال : وتمسك بحبل القرآن وانتصحه وأحل حلاله وحرم حرامه ، وتصدق بما سلف من الحق ، واعتبر بما مضى من الدنيا بما بقي منها ، فإن بعضها يشبه بعضا وآخرها لاحق بأولها كلها حائل مفارق .

وعظم اسم الله ان تذكره إلا على حق ، واكثر ذكر الموت وما بعد الموت ، ولا تتمنى الموت إلا بشرط وثيق ، واكره كل عمل رضاه صاحبه لنفسه ، ويكره لعامة المسلمين ، واحذر كل عمل تعمل به في السر وتستحي

منه في العلانية ، واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه نكره واعتذر منه .

ولا تجعل عرضك غرضا لنبال القول ، ولا تحدث الناس بكل ما سمعت فكفى بذلك كذبا ، ولا ترد على الناس بكل ما حدثوك به فكفى بذلك جهلا .

واكظم الغيظ ، واحلم عند الغضب ، وتجاوز عند القدرة ، واصفح عند الزلة ، تكن لك العاقبة .

واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك ، ولا تضيعن نعمة إن انعم الله بها عليك ، وكبر أثر ما انعم الله به عليك .

واعلم أن أفضل المؤمنين افضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله وإنك ما تقدم من خير يبق لك ذخره ، وما تؤخر يكن لغيرك خيره ، واحذر صحابة [1] من يقبل رأيه وينكر عمله ، فإن الصاحب معتبر بصاحبه .

واسكن الامصار العظام فإنها جماع المسلمين ، واحذر منازل الغفلة والجفاء وقلة الأعوان على طاعة الله ، واقصر رأيك على ما يعنيك ، وإياك ومقاعد الأسواق فإنها محاضر الشيطان ومغارس الفتن ، واكثر ان تنظر الى من فضلت عليه فإن ذلك من أبواب الشكر .

ولا تسافر في يوم جمعة حتى تشهد الصلاة إلا قاصدا في سبيل الله او في أمر تعذر به ، وأطع الله في جميع أمورك ، فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها .

وخادع نفسك في العبادة ، وارفق بها ولا ترهقها ، وخذ في عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوبا عليك من الفريضة ، فإنه لا بد من قضائها وتعاهدها عند محلها .

وإياك ان ينزل بك ملك الموت وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا .

---

١ ـ هكذا وجدت في الأصل ولعله يريد (صحبة)

وإياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق ، ووقر الله وأحبب أحباءه ، واحذر الغضب فإنه جند عظيم من جنود ابليس لعنه الله ، واتق الله في كل مساء وصباح وخف على نفسك الغرور ولا تأمنها على حال .

واعلم أنك ان لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهة سمت بها الأهواء الى كثير من الضر ، فكن لنفسك مانعا رادعا ، ولنزواتك عند الحفيظة قامعا .

قال : ازرى بنفسه من استشعر الطمع ، ورضى بالذل من كشف ضره ، وهانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه .

والبخل عار ، والجبن منقصة ، والفقر يخرس الفطن عن حجته ، والمقل غريب في بلدته ، والعجز آفة ، والصبر شجاعة ، والزهد ثروة والورع جنة ، ونعم القرين الرضى ، والعلم وراثة كريمة ، والآداب حلل مجددة ، والفكر مرآة صافية ، وصدر العاقل صندوق سره ، والبشاشة حبال المودة ، والاحتمال قبر العيوب ، ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه ، وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم .

وقال : خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم ، وان غبتم حنوا إليكم .

وقال : فاعل الخير . خير منه ، وقال : الشر ـ لعله فاعل الشر شر منه .

وقال : من أسرع الى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون .

وقال : ما أضمر احد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه .

وقال : امش بدائك ما سيء بك .

وقال : افضل الزهد . اخفى الزهد .

وقال : من جرى في عنان أمله عثر بأجله .

وقال : قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير .

وقال : احذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم اذا شبع .

وقال : قلوب الرجال وحشية فمن تآلفها اقبلت إليه .

وقال : عيبك مستور ما أسعدك جدك .

وقال : الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرأي والرأي بتحصين الأسرار .

وقال : الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة .

وقال : فوت الحاجة أهون من طلبها الى غير أهلها ، لا تستح من اعطاء القليل فإن الحرمان اقل منه . وقال : إذا تم العقل نقص الكلام قال : من نصب نفسه اماما للناس فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه قبل غيره ولكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .

ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم .

وقال : اذا اقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، واذا ادبرت عنهم سلبتهم محاسن انفسهم .

وقال : أوضع العلم ما وقف على اللسان ، وأرفعه ما ظهر على الجوارح والأركان .

وقال : لا يترك الناس شيئا من دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله

عليهم ما هو أضر منه .

وقال : اضاعة الفرصة غصة .

وقال غيره : المراءاة كفر وغيرة الرجال إيمان .

وقال : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته وغيبته ووفاته .

وقال : من قصر في العمل ابتلي بالهم ، ولا حاجة لله فيمن ليس لله في نفسه وماله نصيب .

وقال : عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينك .

وقال : الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل في باطل اثمان ، إثم العمل به واثم الرضى .

وقال : من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء الظن به .

وقال : من لم ينجه الصبر اهلكه الجزع .

وقال : يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .

وقال : حسد الصديق من سقم المودة .

وقال : عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله .

وقال : في تقلب الاحوال علم جواهر الرجال .

وقال : آلة السياسة الصدر

وقال : لكل امرىء في ماله شريكان . الوارث والحوادث .

وقال : ماء وجهك ماء جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره .

وقال : ما خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

وقال : خذ من الدنيا وتلوى عما تولى عنك فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلب .

وقال كفاك أدبا لنفسك ما تكرهه من غيرك .

وقال : من صبر . صبر الاحرار والا سلا سلوى الاغمار[1]

وقال : كفاك من عقلك ما أوضح سبيل غيك من رشدك .

وقال : من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنما شكاها إلى الله تعالى ، ومن شكاها الى كافر فكأنما ـ لعله ـ شكا الله .

وقال : إن آخر الناس صفقة وأخيبهم سعيا رجل اخلق بدنه في طلب آماله ولم تساعده المقادير على ارادته فخرج من الدنيا بحسرته وقدم على الآخرة بتبعته .

وقال : اذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات .

وقال : الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى : ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾[2] ، فمن لم يأس على الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

---

١ ـ سلا سلو الأغمار : غمرت اليد غمرا تعلق بها ريح اللحم أو الدسم ، وغمر عرضه : دنسه ، وغمر صدره على فلان . امتلأ حقدا وغلا ، والغمر من الماء خلاف الضحل ، ومن الثياب ؛ الواسع الساتر ، وما يغمر من رائحة الدسم سائر الروائح ، والغمر من الرجال قليل التجربة ومن الخيل : الجواد الكثير العدو الواسع الجري . وليل غمر : شديد الظلمة ، والغمر : الزعفران وطلاء يتخذ من الزعفران أو الكركم ويجمع على أغمار .

٢ ـ الآية ٢٣ من سورة الحديد

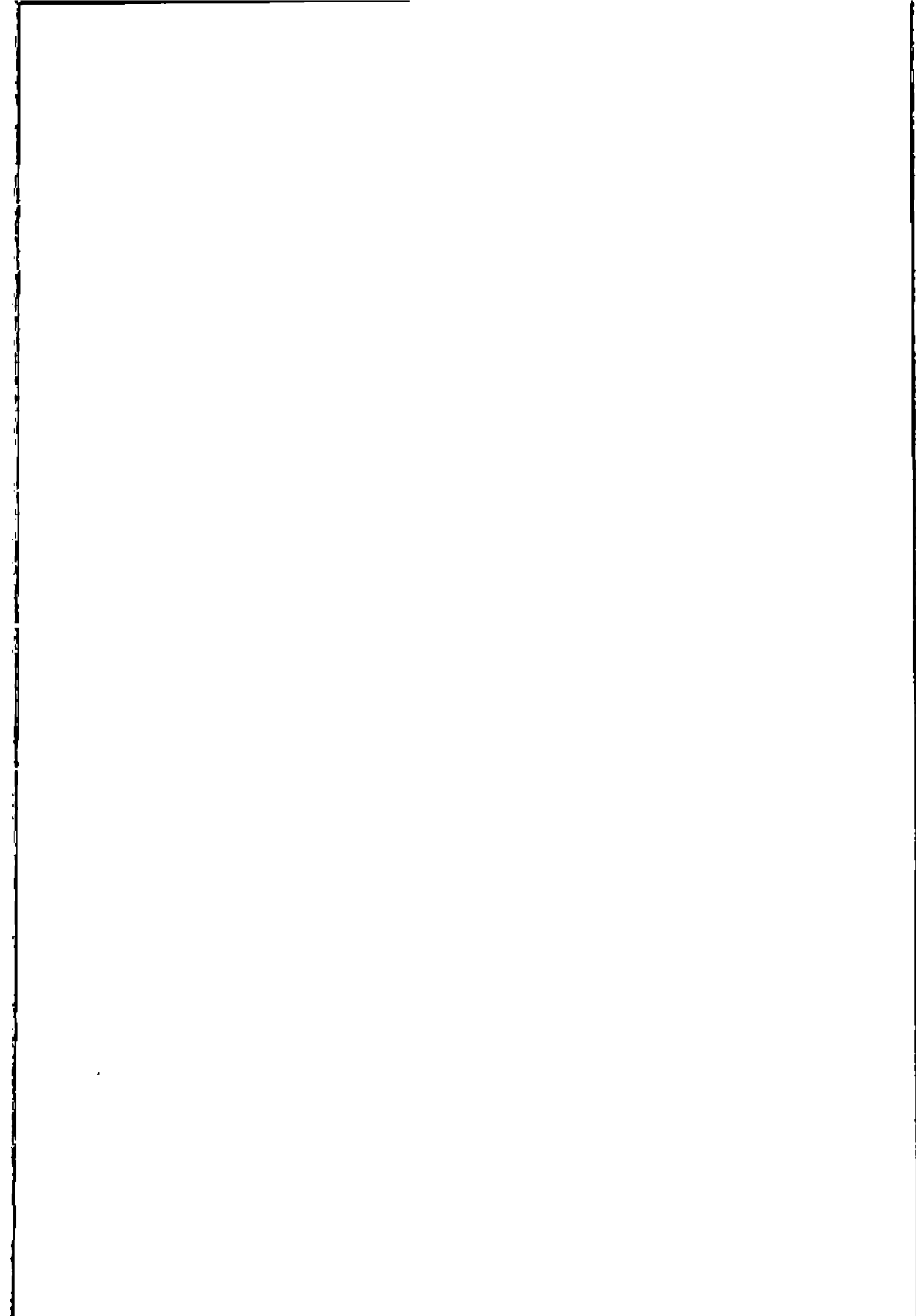
وقال : من تجر بغير فقه ارتطم في الربا .

وقال : من عظم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها .

وقال : من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته .

وقال : زهدك في راغب فيك نقصان حظ ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس .

وقال : علامة الايمان تؤثر الصدق ـ لعله ـ حيث حين يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك ، وان تتقي الله في حديث غيرك .



الباب السابع عشر

في لزوم التقوى

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنو اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون﴾[1]

وقال الله تعالى : ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[2] .

فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بتقواه ، والتزام طاعته . فيا أيها الغافل الوسنان ، والجاهل الحيران ، والنائم السكران انتبه من هذه الرقدة ، واستيقظ من هذه الغفلة ، واستفق من هذه السكرة ، واعمر قلبك بخوف الله ومراقبته واستحي منه ، واخرج عن قلبك حب الدنيا والرغبة فيها ، واعلم ان من ادعى محبة الله وهو يحب الدنيا فهو جاهل كذاب غير عارف بحق الله من قطاع الطريق كما ذكر في الخبر : ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام ، يا داود ؛ لا تستشر في رأيك عالما اسكره حب الدنيا فيقطعك بسكره عن طريق محبتي ، ومن لم يكن متأسيا بالنبي ﷺ لم يكن متبعا لأثره قال الله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾[3]

والمحب للدنيا قد تمكن الشيطان منه ، وقاده بزمامه ، وامكنه من

---

١ - الآية ١٠٢ من سورة آل عمران

٢ - الآية ٢٨١ من سورة البقرة

٣ - الآية ٢١ من سورة الأحزاب

نفسه ، وافنى عمره في مرضاته ، فقلبه طول الدهر مشغول بالفكرة في الدنيا وحبها والزيادة منها ، وقلبه مع الكثرة والمباهاة ويحسب انه من جملة المقربين فمن كانت هذه صفته فكيف يكون محبا لله أو كيف يخافه أو يراقبه بل خسر الدنيا والآخرة واعلم ان أصل التقوى لزوم المعرفة ولزوم خوف الله تعالى ، ولزوم الخشوع له .

واحذر ان يخدعك الشيطان بغروره فتحتج بحجج لا تنفعك عند الله تعالى غدا فالواجب على كل انسان ان يشعر قلبه التوبة بصدق النية ويلتزم الأعمال الصالحة ، وتقوى اللهالعظيم ويلزم نفسه حقيقة معرفة الله ، ومراده من خلقه ، لأن من عرف الله خافه ، ومن خافه خشع له ، ومن خاف الله لم يخف من شيء غيره وخافه كل شيء حتى ان أبليس لعنه الله يخافه ويمتنع منه .

ومن لم يعرف الله لم يخف منه لأنه كيف يخاف من لا يعرف ومن لا يخاف من الله خوفه من كل شيء وسلط عليه الشيطان فعليك أيها الانسان بخوف الله ومراقبته وتقواه في السر والعلانية واعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك بلا محالة ، لأن الله مطلع على عمل كل عبد دقيقه وجليليه وعلى سره وعلانيته ويعلم ما يخفى من عمله وما يبديه وما يريد بعمله ، ويعلم السر والاخفى ، ويعلم ضمائر القلوب ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور قال الله تعالى : **﴿افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[1]

وقال تعالى: **﴿ان الله كان عليكم رقيبا﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾**[3]

وذكر عن حميد انه قال لسليمان بن علي : عظني . فقال له : بما

---

١ - الآية ٣٣ من سورة الرعد

٢ ـ الآية ١ من سورة النساء

٣ - الآية ٦٩ من سورة القصص

أعظك ؟ لئن كنت اذا عصيت الله عالما موقنا بأنه يراك حين تعصيه فقد اجترأت على أمر عظيم ، وان كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت .

قال الله تعالى : **﴿واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**[1] ، فهذا خطاب من الله عز وجل وهو فرض على جميع خلقه فرضه في كتابه ، وهو العمل بمحكمه في الأمر والنهي والخوف والرجاء لوعده ووعيده ، والايمان بمتشابهه والاعتبار بقصصه وأمثاله ، فإذا فعلت ذلك أيها الانسان فقد خرجت من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ومن الشك الى اليقين قال الله تعالى : **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور﴾**[2] وانما يعرف هذا أهل العقل الذين عقلوا عن الله ما ارادوا من خلقه فعملوا في احكام الطهارة وتنزهوا عن الشبهات لقول الرسول ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات» وتركها خير من أخذها وركوبها فالزم نفسك أيها الانسان تقوى الله في السر والعلانية .

واعلم أن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمن الناس من بوائقه . كما ذكر عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال : اتقوا الله بتقاه ، ولتكف يدك عن دماء المسلمين ، وبطنك من أموالهم ، ولسانك عن أعراضهم ، وحاسب نفسك قبل كل خطرة ، وراقب الله في كل نفس تتنفس به ، ولا تهمل نفسك كل الاهمال .

وكما قال عمر - رضي الله عنه - : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر **﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾**[3] .

فعليك يا أخي بخوف الله وتقواه في جميع أمورك وفي جميع أحوالك

---

١ - الآية ٢٨١ من سورة البقرة

٢ - الآية ٢٥٩ من سورة البقرة

٣ - الآية ١٨ من سورة الحاقة

وأقوالك وأفعالك ، وارجه في جميع أمورك واصبر على ما يصيبك .

وكما ذكر في حكمة داود : ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ؛ فساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يخلو فيها مع اخوانه الذين يعرفونه بعيوب نفسه ، وساعة يخلو بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويحمد .

واعلم بالحقيقة أنه ليس المطلوب من الخلق بك أحدا غيرك فلا تخف إلا ذنبك ، ولا ترج إلا ربك ، ولا تهمل نفسك الاهمال فتهلك إلى الأبد إلا أن يرحمك الله ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ (1) .

واعلم أن أقل الناس هما في الآخرة أهل الزهد في الدنيا وأتعب الناس قلوبا في الدنيا أهل المعرفة بالله لأن خوف الله ـ تعالى ـ أشد على البدن ، وأتعب على النفس من قيام الليل ، وصيام النهار ، وانفاق المال في سبيل الله ، فإذا لزم العبد خوف الله ومراقبته اشتد خوفه والتزم التقوى وزاد في العمل كما قيل : من اتقى الله واليوم الآخر جد في العمل ، وقصر في الأمل وحذر بغتة الأجل ، وكان ليله قائما ، ونهاره صائما ، وكف لسانه عن كل ما لا يعنيه .

واعلم أنه لا طريق أقرب من الصدق ، ولا دليل أنجح من العمل ولا زاد أبلغ من التقوى ، ولا شيء أثبت للوسواس من ذكر الفضول ، ولا عمل أرجى في القبول من سلامة الصدور واعلم أن صحة اليقين في ثلاثة أشياء : سكون القلب إلى الثقة بالله ـ تعالى ـ ، وانفاذ أمر الله ، والاشفاق والوجل من سابق العلم ، ومن ازداد لله يقينا ازداد له معرفة وازداد عند الله كرامة كما ذكر في الخبر عن النبي ﷺ أنه قيل له : يا رسول الله ؛ إن عيسى

---

1 - الآية 115 من سورة «المؤمنون»

ـ عليه السلام ـ كان يمشي على الماء فقال : «لو ازداد يقينا لمشى في الهواء» .

ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين ، وأصل ذلك كله المراقبة لله الواحد القهار ، وأصل المراقبة في ثلاثة أشياء : مراقبة الله ـ تعالى ـ في العمل بطاعته ، ومراقبة الله ـ تعالى ـ في ترك معصيته ، ومراقبة الله ـ تعالى ـ في الهم والخواطر والوسوسة لقول رسول الله ﷺ : «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ثم عليك أيها الانسان بالاجتهاد في اصلاح نفسك ، وتحفظ من المظالم وتقلل من المطاعم ، وعليك بأخذ الكفاف من القوت .

واترك المفضل الذي يطغيك ويلهيك فبذلك تنل الدرجة العليا لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1] .

ولما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إني لأعرف آيتين في كتاب الله لو أخذ الناس بهما لكفتهم عن جميع الأشياء ؛ قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[2] ، وقوله : ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**﴾[3] ؛ يعني من كل أمر يضيق عليه ومن شبهات الدنيا وغمرات الموت وشدائد الآخرة .

وذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «ان الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، للناس حالات ولهم حالات» .

وذكر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون .

وذكر عن بعض الحكماء أنه قال : التقى نور في القلب يفرق به بين الحق

---

١ ـ الآية ١٣ من سورة الحجرات

٢ ـ الآية ٢ من سورة الطلاق

٣ ـ الآية ٤ من سورة الطلاق

والباطل ، وذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «من قيل له اتق الله فغضب لذلك جاء يوم القيامة فيوقف موقفا فلا يبقى ملك إلا مر به فيقال له : أنت الذي قيل لك اتق الله فغضبت فيحل بك الخزي والهوان في دار الآخرة» .

وذكر عن وهب بن منبه أنه قال : الايمان عريان ، ولباسه التقوى وزينته الحياء ، وماله العفة .

وذكر عن الأعمش أنه قال : من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه .

وذكر عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال : لكل شيء معدن ، ومعدن التقوى قلوب العارفين بالله ؛ لأنهم عرفوا عن الله بعقولهم ما الذي أراده من خلقه ، فاتقوه في أمره ونهيه ولم يخافوا أمره ، فمن أراد أن يكون أكرم الخلق على الله فليتق الله .

وذكر عن بعض الحكماء أنه قال : أصل معرفة الله وخشيته العمل بطاعته ، وأصل التقوى الزام القلوب لعظمة الله وذكره ، ويستدل على صحة المعرفة والتقوى ترك الاختيار في الباطن ، وترك الاعتراض في الظاهر ورد الأمور كلها إلى الله ـ تعالى ـ ، واعلم أن حقيقة المعرفة والمراقبة والتقوى والايمان وأشباهها إنما تقع في القلب إذ هو القطب وعليه المدار .

فاجتهد في اصلاح القلب فإن منه يتفرع كل صلاح وفساد وسأبين ذلك في باب القلب إن شاء الله تعالى .

فإن قيل فما التقوى حتى نعلمه ؟ فاعلم أن التقوى كنز عزيز فإن ظفرت به فقد ظفرت بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، فكم فيه من جوهر شريف ، وعلم نفيس ، وخير كثير ، ورزق كريم وفوز كبير ، وملك عظيم ، فكأن خيرات الدنيا والآخرة قد جمعت تحت هذه الخصلة التي هي التقوى ، وتأمل ما في كتاب الله ـ تعالى ـ من ذكرها فكم تعلق بها من خير ، وكم وعد عليها من

ثواب ، وكم أضيف إليها من خير :

أولها المدحة والثناء من الله ـ تعالى ـ كقوله : ﴿**وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾[1] .

ثم الحفظ والحراسة من الأعداء كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**﴾[2] .

ثم الاعانة والنصرة كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ [3] .

ثم النجاة من الشدائد والرزق من الحلال كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [4] .

ثم تكفير الذنوب وتعظيم الأجر كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرا**﴾[5] .

ثم اصلاح العمل وغفران الذنوب كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[6] .

ثم محبة الله ـ تعالى ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾[7] .

ثم البشارة عند الموت لقوله ـ تعالى ـ : ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**

---

١ ـ الآية ١٨٦ من سورة آل عمران
٢ ـ الآية ١٢٠ من سورة آل عمران
٣ ـ الآية ١٢٨ من سورة النحل
٤ ـ الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
٥ ـ الآية ٥ من سورة الطلاق
٦ ـ الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الأحزاب
٧ ـ الآية ٧ من سورة التوبة

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1] .

ثم النجاة من النار لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾[2] . ﴿وسيجنبها الأتقى﴾[3] .

فكل خير وسعادة في الدارين جميعا قد حصلت تحت هذه الخصلة التي هي التقوى ، فلا تنس نصيبك أيها الانسان العاقل منها .

وذكر عن بعض الناس أنه قال لبعض شيوخه : أوصني بوصية ينفعني بها ربي . فقال له : أوصيك بوصية الله ـ تعالى ـ لجميع خلقه من الأولين والآخرين قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾[4] .

ولو علم الله ـ تعالى ـ خصلة هي أعظم من هذه الخصلة التي هي التقوى لوصانا بها ، فعلم بذلك أنه ليس فوق تقوى الله غاية ولا نهاية وهو المقصد الذي أراد الله من جميع خلقه ، وهي الجامعة لجميع خيرات الدنيا والآخرة ، وهي المبلغة إلى أعلى الدرجات والكافية لجميع المحذورات .

واعلم أن حقيقة التقوى هو تنزيه القلب عن كل ذنب سبق منك مثله حتى يجعل العبد من قوة العزم وقاية بينه وبين المعاصي وذلك أن معنى التقوى وقاية .

وقد تقع التقوى في كتاب الله ـ تعالى ـ بمعنى الخشية والهيبة كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وإياي فاتقون﴾[5] ، ﴿وإياي فارهبون﴾[6] ، ﴿واتقوا يوما

---

١ ـ الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة يونس
٢ ـ الآية ٧٢ من سورة مريم
٣ ـ الآية ١٧ من سورة الليل
٤ ـ الآية ١٣١ من سورة النساء
٥ ـ الآية ٤١ من سورة البقرة
٦ ـ الآية ٤٠ من سورة البقرة

ترجعون فيه إلى الله﴾[1] .

وقد تقع بمعنى الطاعة كقوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾[2] معناه أطيعوه حق طاعته وذلك أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى .

وقد يقع بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب وهذه الحقيقة في التقوى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾[3] .

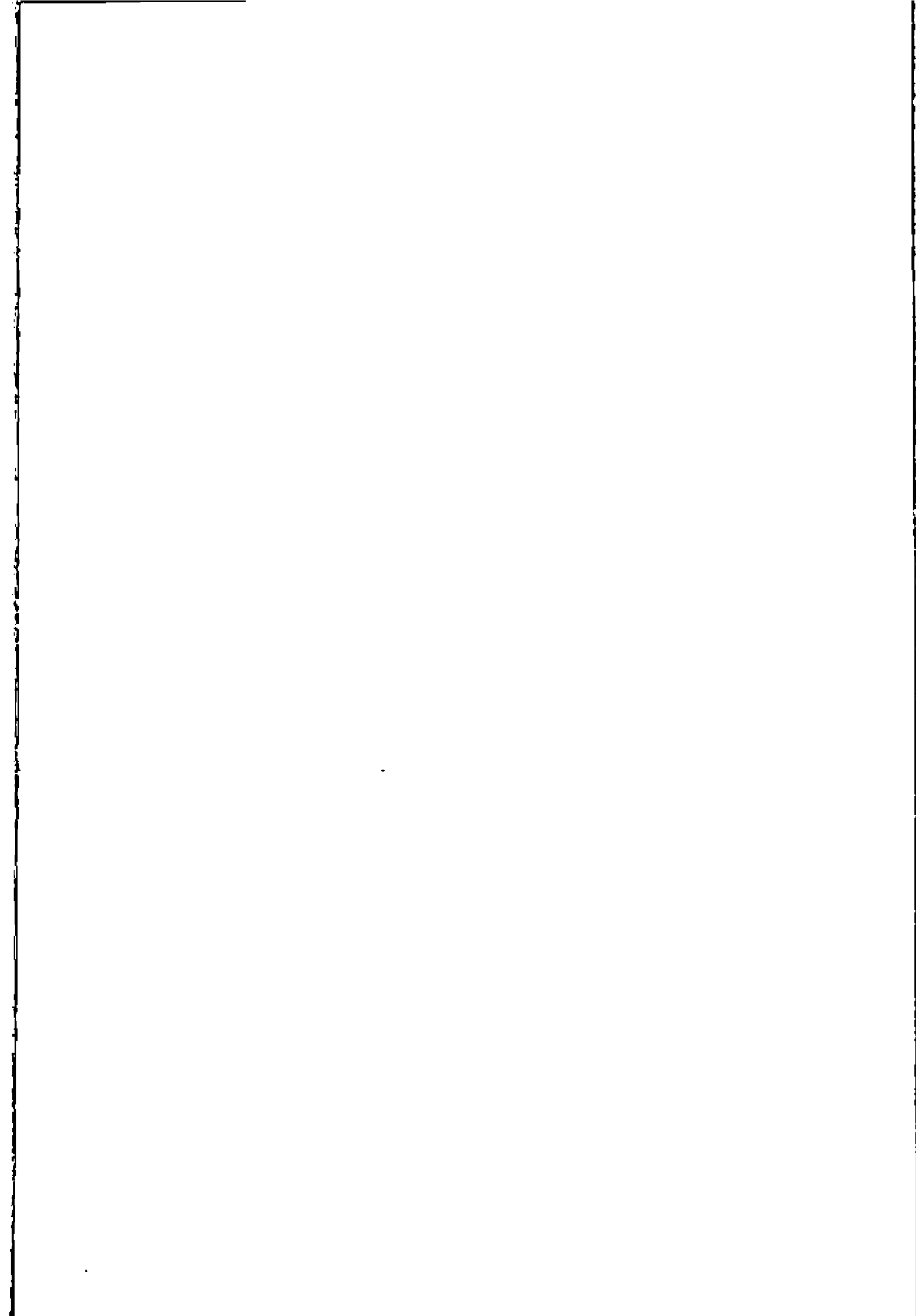
وقد تكون التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال كما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذرا عما به بأس» .

وأصل التقوى في الحقيقة كل ما يخاف منه ضرر في الدين والذي يخاف منه الضرر في الدين وهو محض الحرام والمعصية بفضول الحلال ، لأن الاشتغال بفضول الحلال يجرُّ صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان ، وذلك لشدة النفس وطغيانها فمن أراد أن يسلم له دينه ويأمن الضرر فيه فليجتنب الحظر ويمتنع من فضول الحلال حذرا أن يجره إلى محض الحرام وهذا موافق لما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «المتقون تركوا ما لا بأس به حذرا عما به بأس» يعني لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع في الحرام المحض ، والتقوى البالغة الجامعة هو اجتناب كل شيء فيه ضرر لأمر الدين فاتقوا الله عباد الله ولا تهملوا أنفسكم ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[4] .

نسأل الله العظيم المولى الكريم أن يوفقنا لطاعته ، ويتداركنا بفضله وكرمه ، ويمن علينا برحمته ، ويميتنا مسلمين إنه هو أرحم الراحمين .

---

١ ـ الآية ٢٨١ من سورة البقرة
٢ ـ الآية ١٠٢ من سورة آل عمران
٣ ـ الآية ٥٢ من سورة النور
٤ ـ الآية ٢٨١ من سورة البقرة



الباب الثامن عشر

ذكر خوف سوء الخاتمة

اعلم أيها الانسان أن جميع الأمور بالخواتم كما ذكر عن النبي ﷺ أنه قام خطيبا فقبض كفه اليمنى ثم قال : «كتاب كتب الله فيه أهل الجنة بأسمائهم وأنسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص» ثم قبض كفه اليسرى وقال : «كتاب كتب الله فيه أهل النار بأسمائهم وأنسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم فالسعيد سعيد في بطن أمه ، والشقي شقي في بطن أمه فالسعيد سعيد بقضاء الله ، والشقي شقي بقضاء الله وانما الأعمال بالخواتم ، وليعملن أهل الشقاء بعمل أهل السعادة حتى يكون بينه وبين الجنة شبر ، ثم يرجع إلى عمل أهل الشقاء فيسبق عليه القضاء فيختم له بأعمال أهل الشقاء ، وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتى يكون بينه وبين النار شبر ثم يرجع إلى عمل أهل السعادة فيسبق عليه القضاء فيختم له بأعمال أهل السعادة» .

وذكر عن عبدالله بن مسعود أنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق فقال : «إن خلق أحدكم في بطن أمه يجمع أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ـ عز وجل ـ إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيكتب عمله ورزقه وأجله وشقي وسعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن

أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها في الجنة والنار ، فتكتب شقية أو سعيدة» فقال له رجل من القوم : يا رسول الله ؟ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلى السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاوة فيصير إلى الشقاوة ؟ فقال النبي ﷺ : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1].

وملاك العمل خواتمه ، وقد جف القلم بالشقي والسعيد وفرغ من أربع : من الخلق والخُلُق والرزق والأجل وفرغ إلى كل عبد من سبعة : من عمله ورزقه وأجله وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد لا يتعداهن عبد فأما أهل السعادة فميسرون إلى عمل أهل السعادة .

وأما أهل الشقاوة فميسرون إلى عمل أهل الشقاء ، ثم قرأ : ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[2] .

وذكر أن رجلا سأل أبا القاسم فقال له : هل من ذنب ينزع الايمان من العبد ؟ فقال : ثلاثة من الذنوب ؛ أولها أن لا يحمد الله ويشكره على ما أكرمه به ، ومنّ عليه من الايمان والاسلام حين جعله مؤمنا مسلما .

الثاني : أن يكون آمنا على نفسه غير خائف على دينه أن يسلب منه الاسلام .

والثالث : أن يظلم أحدا من الأنام .

وذكر عن بعض العلماء أنه قال لبعض إخوانه : اذا سمعت بحال أهل الكفر وخلودهم في النار ، فلا تأمن على نفسك أن تكون منهم ، فإن الأمر على

---

١ ـ أخرجه ابن ماجة عن عبدالله بن مسعود

٢ ـ الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة الليل

الحظر وما تدري ماذا يكون من أمرك ، ولا من عاقبتك ، ولا بماذا يختم لك ، ولا تعرف ما سبق لك في علم الغيب .

ولا تغتر بصفو الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات .

ولا تغتر بالنعم فإن تحتها عواقب النقم ، زين الله إبليس بأنواع عصمته ، وهو عنده في حقائق نقمته ، وزين بلعام بأنعام ولايته ، وهو عنده في كائن عداوته .

وذكر عن علي بن أبي طالب أنه قال : كم مستدرج بالاحسان وكم مفتون بحسن القول ، وكم مغرور بالستر ، وأكثر ما ينخدع به الانسان الألطاف والكرامات . ثم قرأ قول الله ـ تعالى ـ : **﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾**[1] ، يسبغ عليهم النعم ، وينسيهم الشكر .

كما ذكر أن نبيا من الأنبياء سأل الله ـ تعالى ـ عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الكرامات والنعم السابغات . فقال الله ـ تعالى ـ : (إنه لم يشكرني يوما قط على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة واحدة ما سلبته إياها) .

وذكر عن ابراهيم بن أدهم أنه كان يقول : كيف يأمن أحد على نفسه ، وقد قال ابراهيم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ : **﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾**[2] ولم يأمن على نفسه مع ما كان فيه من الخلة ، ويوسف ـ عليه السلام ـ قال : **﴿توفني مسلما والحقني بالصالحين﴾**[3] .

فتأمل هذا ـ رحمك الله ـ ، وتيقظ من غفلتك ، واحتفظ بنفسك ، فليس المطلوب من الخلق بك أحد غيرك ، واجتهد في الشكر جدا واحمد الله

---

١ ـ الأيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم

٢ ـ الأية ٣٥ من سورة ابراهيم

٣ ـ الأية ١٠١ من سورة يوسف

ـ تعالى ـ على ما من به عليك إذ جعلك من جملة أهل الاسلام دون سابقة منك ، بل هو قد من بذلك عليك ، واشكره على منته عليك في الدين ، لأنه أعلى النعم الاسلام والمعرفة ، وأدناها العصمة على كلمة لا تعينك أن يتم نعمته عليك ، ولا يبتليك بمرارة الزوال فإن أمر الأمور وأصعب الأشياء الاهانة بعد الاكرام ، والطرد بعد التقريب ، والفراق بعد الوصال .

وقيل : ان سعادة الآخرة ؛ العلم ثم الايمان ثم العمل ثم التوفيق ثم حسن الخاتمة ، فإذا لم يكن حسن الخاتمة لم يكن التوفيق وإذا لم يكن التوفيق لم يكن العمل الذي يجدي أي يغني ، وإذا لم يكن العمل الذي يجدي لم يكن الايمان الذي يجزي وإذا لم يكن الايمان الذي يجزي لم يكن العلم الذي يغني وإذا لم يكن العلم الذي يغني خسر المرء الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

واعلم بالحقيقة أن كل ما صرت إليه أقرب ، فأمرك أخوف وأصعب ، والمعاملة أشد وأدق ، والخطر عليك أعظم فإن الأمر كما تظن وأشد لأنه كلما كان أبلغ علوا إذا انقلب كان أصعب وقوعا ، فإذاً لا سبيل إلى الأمن ولا سبيل إلى ترك الابتهال ولا إلى اغفال الشكر بحال .

وذكر عن سفيان الثوري أنه بكى يوما فقيل له : بكاؤك هذا على الذنوب ؟ فأخذ تبنة[1] من الأرض وقال : الذنوب أهون عليّ من هذا وانما أخاف أن يسلبني الله الاسلام وأموت على الكفر والعياذ بالله من ذلك ؛ لأنه ما أمن أحد على دينه إلا سلبه . ولقد بكينا قبل اليوم على الذنوب ، ونحن نبكي الآن على الاسلام لأن أعظم مصائب الانسان أن يكون طول حياته على الاسلام ويختلف على المساجد ، ويصوم ويعبد الله ، ويفعل جميع الخيرات وهو على الحقيقة من الخاسرين .

فالواجب على الانسان أن يدعو الله ـ تعالى ـ بجميل العاقبة فإن أكثر

---

١ ـ القطعة الصغيرة جدا من عود القش

ما يخاف ذهاب الايمان عند الموت في حال النزاع .

فانظر أيها الانسان ، وتدبر حال الخلق بين يدي الملك المقتدر وتفكر في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا﴾ (١) .

فواحد يخرج من قبره فإذا البراق على رأسه ، والحلل بين يديه فيلبس الحلل ، ويوضع التاج على رأسه ، ويركب جنان النعيم لا يخلى من عزته وكرامته أن يمشي إلى الجنة بقدميه .

وآخر يخرج من قبره فإذا الزبانية قد أحاطت به ، والأغلال والأنكال والسرابيل قد ألبسها ، والعذاب والخزي والهوان قد حل به لا يخلى أن يمشي إلى النار بقدميه من هوانه ، بل يسحب إلى سواء الجحيم على وجهه ، نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه الذي لا طاقة لنا به .

ثم إن الطامة الكبرى والمصيبة العظمى الخلود في النار ، إذ لو كان عذابا منقطعا لكان الأمر هينا ، ولكن الشأن في الخلود ، فأي قلب يحتمل هذا وأي نفس تصبر على هذا .

كما ذكر عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال : (ذكر النار يقطع قلوب الخائفين) .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا أراد الله ـ تعالى ـ أن يدخل أهل الجنة في الجنة بعث إليهم ملكا وعنده هدية وكسوة من الجنة فإذا أرادوا أن يدخلوها قال لهم الملك : قفوا فإن معي هدية من رب العالمين قالوا : وما تلك الهدية ؟ فيقول الملك : هي عشرة خواتم مكتوب على احداها (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وفي الثاني (رفعت عنكم

---

١ ـ الآيتان ٨٥ ، ٨٦ من سورة مريم

الأحزان والهموم) وفي الثالث مكتوب (ادخلوها بسلام آمنين) وفي الرابع مكتوب (ألبسناكم الحلي والحلل) وفي الخامس مكتوب (وزوجناكم بحور عين إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) وفي السادس مكتوب (هذا جزاؤكم اليوم بما فعلتم من الطاعة) وفي السابع مكتوب (صرتم شبابا لا تهرمون أبدا) وفي الثامن مكتوب (صرتم آمنين لا تخافون أبدا) وفي التاسع مكتوب (رافقتم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين) وفي العاشر مكتوب (سكنتم في جوار الرحمن ذي العرش الكريم العظيم من لا يؤذي الجيران) ثم يقول الملك ادخلوها . فيدخلون الجنة ويقولون **﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾**[1] . **﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾**[2] . وإذا أراد الله أن يدخل أهل النار في النار بعث إليهم ملكا ومعه عشرة خواتم ؛ أولها مكتوب فيه : ادخلوا جهنم لا تموتون فيها أبدا ولا تحيون ولا تخرجون .

وفي الثاني مكتوب : خوضوا في العذاب لا راحة لكم .

وفي الثالث مكتوب : إيأسوا من رحمتي .

وفي الرابع مكتوب : ادخلوا في الغم والحزن والهم أبدا .

وفي الخامس مكتوب : لباسكم النار وشرابكم الزقوم والحميم ومهادكم النار .

وفي السادس مكتوب : هذا جزاؤكم اليوم بما فعلتم معصيتي .

وفي السابع مكتوب : سخطي عليكم في النار أبدا .

---

١ ـ الآية ٣٤ من سورة فاطر

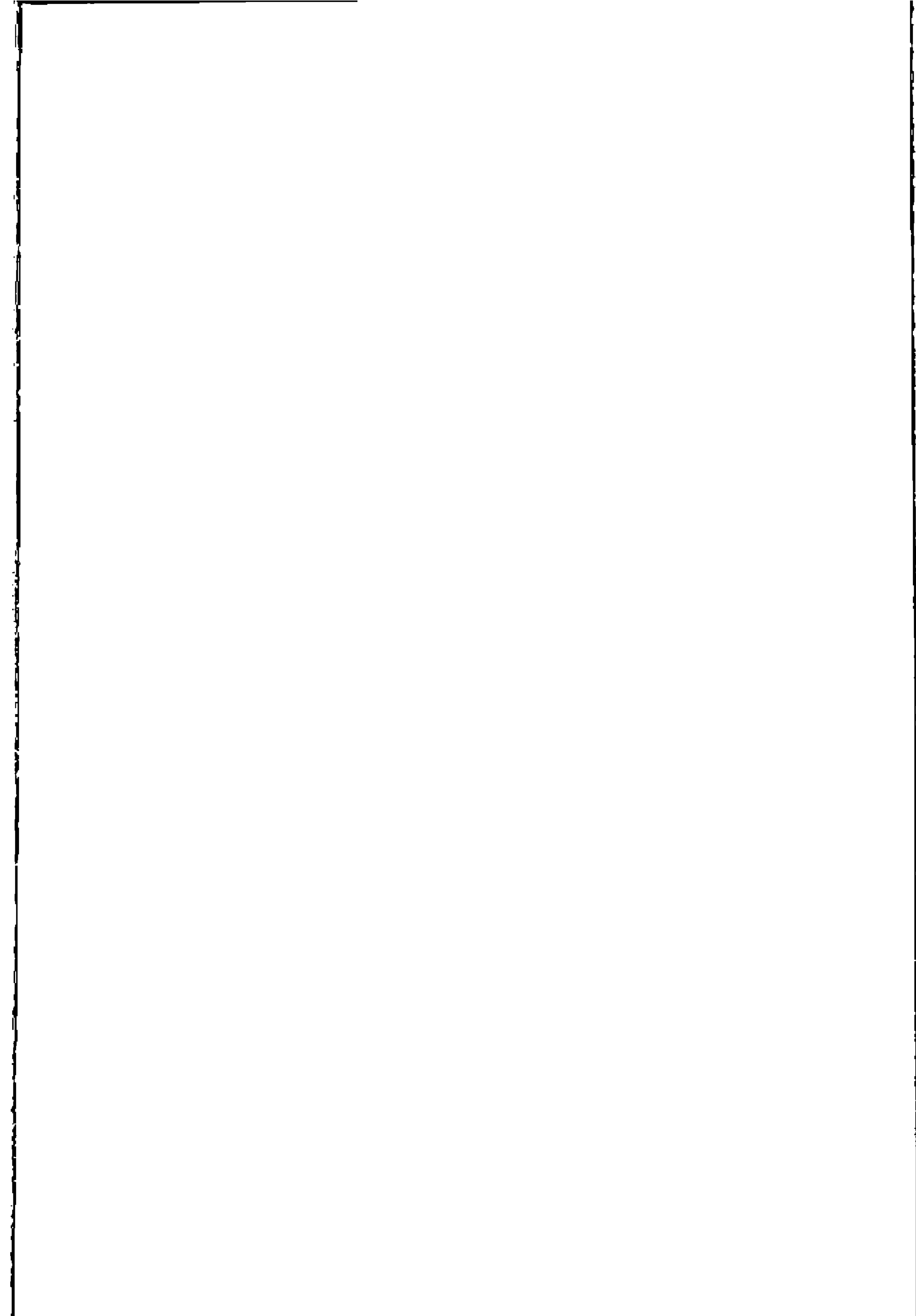
٢ ـ الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الزمر

وفي الثامن مكتوب : عليكم اللعنة بما قصدتم من الذنوب الكبائر ولا تتوبون ولم تندموا .

وفي التاسع مكتوب : قرناؤكم الشياطين في النار أبدا .

وفي العاشر مكتوب : اتبعتم الشيطان وغرتكم الدنيا وتركتم الآخرة فهذا جزاؤكم» .

وقال وهب بن منبه : مكتوب في التوراة من تزود في الدنيا صار حبيب الله ، ومن ترك الغضب صار في جوار الله ، ومن ترك حب العيش صار يوم القيامة محمودا على رؤوس الخلائق ومن ترك الرئاسة صار يوم القيامة عزيزا عند الملك الجبار . ومن ترك الفضول في الدنيا صار يوم القيامة من الفائزين . ومن ترك الخصومة في الدنيا صار ناعما في الأبرار . ومن ترك الشهوات في الدنيا صار يوم القيامة من المقربين . ومن ترك الحرام في الدنيا صار يوم القيامة في جوار الأنبياء . ومن ترك النظر في الحرام في الدنيا أقر عينه يوم القيامة . فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وأذل نفسه في طاعة الله ، وأصلح سريرته فيما بينه وبين الله ، وعزل عن الناس شره ، ومنحهم خيره ، ووافق السنة والكتاب قوله وعمله ، ونظر في الزاد ليوم المعاد ، وبقدر ما تتواضعون فكذلك ترحمون ، وكما تحرثون فكذلك تحصدون ، فمن زرع خيرا وجد غبطة ، ومن زرع شرا حصد ندامة ، ولكل زارع ما زرع ولا يدرك حريص ما لم يقدر له فمن أعطي خيرا فالله أعطاه ، ومن وقي شرا فالله وقاه .



الباب التاسع عشر

في القيام بالقسط

قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ [1] إلى أن انتهى ﴿وما لهم من ناصرين﴾ [2] قال رسول الله ﷺ : «يا أبا عبيدة ؛ قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عبّاد بني اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهاهم [3] عن المنكر فقتلوا جميعا في آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله ـ عز وجل ـ في كتابه وأنزل الآية فيهم» .

الأخبـــار

عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتقية والكتمان» [4] .

وقال النبي ﷺ : «انكم سترون ما تكرهون فمن أنكر نجا ومن كره سلم ولكن من رضي وتابع» .

---

١ ـ الآية ٢١ من سورة آل عمران

٢ ـ الآية ٢٢ من سورة آل عمران

٣ ـ هكذا وجدت في الأصل

٤ ـ رواه ابن ماجه عن ابن عمر

قال رسول الله ﷺ : «لمقام يقوم فيه المؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أفضل من عبادة الله في رؤوس الجبال مائة عام صائم نهارها قائم ليلها» .

عن حذيفة وابن عباس عنه ـ عليه السلام ـ : «من قُتِل في عصبية أو حية أو تحت راية عمية فله النار» .

وقال : «من تعصب فليس منا» وقال : «من قاتل تحت راية عقدت للعصبية أو غضب للعصبية فقتل فقتله جاهلية ومن دخل قلبه شيء من العصبية خرج منه بقدر ذلك من الايمان» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «من مات وفي قلبه شيء من العصبية حشره الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية» فلعن أهل العصبية وأمن عليهم .

وقال ﷺ : «ألا أدلكم على ميت الأحياء ؟» قيل : ومن هو ؟ قال : «من لم ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه» .

وقيل إن رسول الله ﷺ قال : «يا أبا بكر ؛ إن لله ـ تعالى ـ في الأرض مجاهدين هم أفضل عند الله من الشهداء الأحياء المرزوقين يمشون على الأرض يباهي بهم ربهم الملائكة ، ملائكة السماء تزين لهم الأرض كما تزين أم سلمة لرسول الله ﷺ» قال : من هم يا رسول الله ؟ قال : «الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله والذي نفس محمد بيده أن العبد منهم ليكون في غرف الشهداء للغرفة منها مائة ألف باب من ياقوتة حمراء وزبرجد أخضر وان على كل باب منها نورا وان العبد منهم لعله ليزوج بثلاثة مائة ألف ألف قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهن التفت إلى ما أحسن منها وأجمل فينظر فيقول : هل تذكر يوم أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ تقول له ذلك كل واحدة منهن تحول إليها تذكر بكل مقام أمر فيه بمعروف ونهى عن منكر» .

الآثـــار

قال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

وروي أن الله ـ تعالى ـ أوحى إلى نبي من الأنبياء : (إني مهلك من قومك مائة ألف ؛ أربعين ألفا من شرارهم وستين ألفا من خيارهم) فقال : الهي ؛ أنت العدل الذي لا تجور أهلكت الأشرار بأعمالهم ، والأخيار بماذا ؟ قال : (أبصروا المنكر فلم ينكروه) . فإنكار المنكر واجب على من شاهد ذلك من قائله وفاعله مع القدرة بإجماع الأمة وهو ثلاث منازل ؛ باليد أو باللسان أو بالقلب ، ولا عذر من أحد هذه الوجوه الثلاثة . فمن قدر على الانكار فلم يفعل كان بترك ذلك هالكا ولفاعله مشاركا .

وقيل : الذي يأمر بالمعروف يحتاج إلى خمسة أشياء ؛ أولها العلم ؛ لأن الجاهل لا يحسن الأمر بالمعروف ، والثاني أن يقصد به وجه الله ـ تعالى ـ واعزاز الدين والثالث الشفقة على الذي يأمره فيأمره باللين والتودد ولا يكون فظا غليظا لأن الله تعالى جدّه قال لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿**فقولا له قولا لينا**﴾ [1] والرابع أن يكون صبورا حليما ؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال في قصة لقمان : ﴿**وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك**﴾ [2] . والخامس أن يكون عاملا بما يأمر لئلا يغتر به ويدخل تحت قوله : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ [3] .

وقال ﷺ : «لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه» .

---

١ ـ الآية ٤٤ من سورة طه

٢ ـ الآية ١٧ من سورة لقمان

٣ ـ الآية ٤٤ من سورة البقرة

وقيل : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ولكن إذا ظهرت المعاصي فلم ينكروا فقد استحق القوم العقوبة .

وقيل عن النبي ﷺ أنه قال : «ان من الناس ناسا هم مفاتيح للخير مغاليق للشر ومن الناس ناس هم مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لعبد جعل الله مفتاح الخير على يديه وويل لعبد جعل الله مفتاح الشر على يديه» يعني الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فهو مفتاح للخير مغلاقٌ للشر وهو من المؤمنين كما قال الله ـ عز وجل ـ : **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**[1] .

وأما الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف فهو مفتاح للشر وهو من علامات المنافقين كما قال الله ـ تعالى ـ : **﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾**[2] .

وقيل عن النبي ﷺ أنه قال : «أنتم اليوم على بينة من ربكم ـ يعني على بيان ـ قد بين الله لكم طريقكم ما لم تظهر فيكم سكرتان ؛ سكرة العيش وسكرة الجهل . أنتم اليوم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله وستحولون عن ذلك إذا فشا فيكم حب الدنيا ، فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر وتجاهدون في غير سبيل الله فالقائمون يومئذ بالكتاب سرا وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار» .

وعن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : «والذنوب التي تغير النعم البغي والتي توجب الندم القتل ، والتي تنزل النقم الظلم والتي تهتك العظم شرب الخمر والتي تحبس الرزق الزنا والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم والتي تحجب الدعاء عقوق الوالدين والتي تبت[3] العمر ترك الصلاة والتي

---

١ ـ الآية ٧١ من سورة التوبة

٢ ـ الآية ٦٧ من سورة التوبة

٣ ـ يريد تقطع العمر

تورث الذل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» .

وقيل للنبي ﷺ : من خير الناس يا رسول الله ؟ قال : «أتقاهم لله وأوصلهم للرحم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر» .

وقد قيل : من ورع العلماء أن تتكلم ، ومن ورع الجهال أن تسكت . وسئل ﷺ : أي الجلساء أفضل ؟ قال : «من تذكركم بالله رؤيته ويزيد في عملكم منطقه» .

أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن نزع[1] واستغفر صفت[2] وان هو عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الذي ذكره الله ـ تعالى ـ : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[3] .

قال الربيع : قال أبو عبيدة : بلغني عن رسول الله ﷺ قال : «لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا شاهده وينكر الباطل إذا قدر عليه» .

وقال ﷺ : «قل الحق وإن كان مرا ولا تشرك بالله شيئا وإن عذبت وحرقت» . وقيل : من أمر بالمعروف فقد شد ظهر المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن شنأ[4] المنافقين الفاسقين ؛ فقد غضب لله وغضب الله له . ويسمى المعروف معروفا إذا كانت العقول تعرفه وتوجبه ولا تنكره ، والمنكر منكرا ، إذا كانت العقول تنكره وتأباه ولا توجبه ، ولا تميل إلى تصويبه .

ومن وصية علي لابنه قال : فمن خالط الناس كثرت معاصيه وإن كان

---

١ ـ خلا من الذنوب

٢ ـ أي إن خلا قلبه من الذنب واستغفر صفت نفسه

٣ ـ الآية ١٤ من سورة المطففين

٤ ـ شنأ المنافقين : أبغضهم

تقيا إلا أن يترك المداهنة ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يقدر على ذلك لأن أغلب الناس على ما نهى عنه الشرع وربما اتصل الأمر إلى الايذاء .

وقيل عن النبي ﷺ أنه قال : «من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبرا من أرض استوجب الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد ـ صلى الله عليهما» يعني أن ابراهيم هاجر من أرض حران إلى أرض الشام وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾[1] يعني إلى طاعة ربي وإلى رضاء ربي . وقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فمن كان في أرض أظهروا فيها المعاصي فخرج منها ابتغاء مرضاة الله فقد اقتدى بإبراهيم واقتدى بنبيه محمد ﷺ فيكون رفيقهما في الآخرة .

وقال الله : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله﴾[2] يعني إلى طاعة الله ورسوله ﴿ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[3] يعني وجب ثوابه على الله ـ تعالى ـ .

---

١ - الآية ٢٦ من سورة العنكبوت

٢ ـ الآية ١٠٠ من سورة النساء .

٣ - الآية ١٠٠ من سورة النساء

الباب العشرون

في العدل في الرعايا

الاخبـــار

أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «عدل السلطان يوما واحدا أو ساعة واحدة أفضل من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها وجور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة» .

وقال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالولاة يوم القيامة فيقول الله جل وعلا : انتم كنتم رعاة خليفتي وخزنة ملكي في ارضي ثم يقول لأحدهم لم ضربت عبادي فوق الحد الذي أمرت به ؟ فيقول : يا رب لأنهم عصوك وخالفوك فيقول : لا ينبغي ان يسبق غضبك غضبي ثم يقول للآخر : لما عاقبت عبادي أقل من الحد الذي أمرت به ؟ فيقول : يا رب لأني رحمتهم فيقول تعالى : كيف تكون ارحم مني ؟ خذوا بالذي زاد والذي نقص فاحشوا بهم زوايا جهنم .

الآثـــار

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «الرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والراعي مسئول عن رعيته وأمير القوم راع وهو مسئول عنهم وامرأة

الرجل راعية على بيت زوجها وهي مسئولة عنه وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه» .

والعدل في الرعايا : هو ان تعرف قدر الولاية وتتيقن خطر الرعاية فإنها من اعظم النعم فمن أقام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية لها ولا سعادة بعدها ، ومن قصر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة اعظم منها إلا الكفر بالله .

ومما يدل على عظم خطر الولاية ما روى ابن عباس أن النبي ﷺ لزم حلقة باب الكعبة وكان في البيت نفر من أكابر قريش فقال : «عاملوا رعايكم وأتباعكم بثلاثة أشياء : إذا سألوكم الرحمة فارحموهم واذا حكموكم فاعدلوا فيهم واعملوا بما تقولون يعني من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن لم يعمل بهذا فعليه لعنة الله وملائكته ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا» وقال : «من حكم بين خصمين فظلم فلعنة الله على الظالمين» .

«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . سلطان كاذب جائر ، وشيخ زان ، وفقير متكبر . يعني يتكبر للطمع . يا أصحابي سيأتي عليكم قوم يفتحون جانب الشرق والغرب وتصير في ايديكم وكل عمال تلك الاماكن في النار إلا من اتقى الله وسلك سبيل التقوى وأدى الأمانة وما من عبد ولاه الله أمر رعيته فغشهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم يعني كشفقته على أولاده واهله إلا حرم الله عليه الجنة .

ومن ولي امر المسلمين ولم يحفظهم كحفظه أهل بيته فقد تبوأ مقعده من النار . ما استرعى الله عبدا رعية فلم يحفظها بنصيحة إلا حرم الله عليه الجنة . ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت[1] وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة .

---

١ ـ في الأصل (ويوم يموت) والصحيح ما أثبت

وعن معقل بن يسار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من استرعاه الله رعية فغشها فهو في النار رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي ملك ظالم ومبتدع غال في الدين يتعدى الحدود . خمسة قد غضب الله عليهم وان شاء أمضى غضبه عليهم ومقر لهم الى النار : أمير قوم يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم . ورئيس قوم يطيعونه ولا يساوي بين القوي والضعيف ويحكم بالميل والمحاباة ، ورجل لا يأمر أهله وأولاده بطاعة الله ولا يعلمهم أمور الدين ولا يبالي من أين اطعمهم ورجل استأجر اجيرا فتمم عمله ومنعه أجرته ، ورجل ظلم زوجته صدقة» .

وفي الخبر : ويل للعرفاء وويل للعوانية فإنهم أقوام يعلقون في القيامة من السماء بذوائبهم يودون لو لم يعملوا عملا قط . وما من رجل ولي أمر عشيرة من الناس ولو كانوا ثلاثة فقط إلا جيء به يوم القيامة ويداه مغلولتان الى عنقه لعله كان عادلا أطلقه عدله فيهم والا زيد عليه غل آخر . وفي لفظ آخر عمله صالح فك الغل عنه وان كان عمله سيئا زيد عليه غل آخر .

قال علي : ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء حين يلقاه إلا من عدل وقضى بالحق ولم يحكم بالهوى ولم يمل مع أقاربه ولم يبدل حكما بخوف أو طمع لكن يجعل كتاب الله مرآته ونصب عينه ويحكم بما فيه .

وعن ابن عباس يرفعه . «عبادة يوم من إمام عادل خير من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض بحق خير وأزكى من مطر اربعين صباحا» .

وعن ابن عمر يرفعه . «إن الله يحب الامام العادل والشاب التائب الذي يقضي شبابه في طاعة الله تعالى وإذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ إلا ظل الله تعالى إلا لسبعة أناس . سلطان عادل في رعيته» إلى آخر الحديث .

وقال ابن عباس يرفعه . «من ولي على أمور المسلمين وحسن سيرته زاد

هيبته في قلوبهم واذا بسط يده بالمعروف رزق المودة والمحبة منهم ، وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه أحواله ،واذا أنصف من القوي قوى الله سلطانه ، ومن عدل فيهم مد الله في عمره» .

وعن أبي أمامة الباهلي الخدري ان رجلا أتى الى النبي ﷺ وهو يقول : أي الجهاد أفضل ؟ قال : «كلمة عدل عند سلطان جائر» .

وروي أن نبي الله داود عليه السلام . كان يخرج في الليل متنكرا بحيث لا يعرفه أحد وكان يسأل كل أحد يلقاه داود سرا فكلهم يثنون عليه فجاءه جبريل يوما في صورة رجل فقال له : ما تقول في داود؟ فقال نعم الخليفة إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كده وتعب يده فرجع داود باكيا حزينا وقال : إلهي علمني صنعة آكل بها فعلمه الله تعالى الدروع صنعة الزرد .

وكان عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ يخرج كل ليلة يطوف مع العسس حتى يرى خللا يتداركه وكان يقول : لو تركت عنزا جرباء على جانب ساقية لم تذكر لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة فانظر ايها السلطان الى عمر رضي الله عنه مع عدله واحتياطه وما وصل أحد الى تقواه وصلاحه كيف يتفكر ويتخوف من أهوال يوم القيامة وانت قد جلست لاهيا عن أحوال رعيتك غافلا عن ولايتك .

حكـــاية

أرسل قيصر ملك الروم الى عمر بن الخطاب رسولا لينظر احواله ويشاهد أفعاله فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : ما لنا ملك إلا الله بل لنا أمير خرج الى ظهر البلد فخرج الرسول في طلبه فوجده نائما في الشمس على الارض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه وعرقه قد بل الأرض فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل يكون جميع الملوك لا يقر لهم قار من هيبته ويكون هو هذه حالته ولكنك يا

عمر عدلت فأمنت وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرا خائفا فدل على ان خطر الولاية عظيم وخطبها جسيم ولا يسلم الوالي الا بمقاربة العلماء وفضلاء الدين ليعلموه طريق العدل وليسهلوا عليه خطر هذا الأمر وأن يشتاق الى رؤ ية العلماء ويحرص على استماع نصحهم وقبول قولهم ولا يخالفهم في أفعالهم ويحذر من علماء السوء الذين يحضون على الدنيا فإنهم يثنون عليك فيغرونك وطلبهم رضاك طمعا للحطام الذي في يدك ولو من حرام ليحصلوا من المال شيئا بالمكر والحيل .

فأما العالم الصالح هو الذي يزهدك في الدنيا ويرغبك في الآخرة ويدلك على الله تعالى ولا يطمع فيما عندك من المال وينصحك في الوعظ والمقال .

وإنما مثل الوالي مثل عين الماء وسائر العلماء في العالم مثل السواقي فإذا كان أصل العين صافيا لم يضر كدر السواقي وإن كان أصل العين كدرا لم ينفع صفاء السواقي .

وسأل عمر بن عبدالعزيز محمد بن كعب القرطبي فقال : صف لي العدل فقال : كل مسلم اكبر منك سنا فاجعله لك أبا ، وكل مسلم أصغر منك فاجعله لك ولدا ومن كان مثلك فكن له أخا وعاقب كل مجرم على قدر جرمه كما جاء في منهاج الشريعة . فان زدت أو نقصت فقد ظلمت ولعنة الله على الظالمين ويجب على العالم ان يعظ الملوك بمثل هذه الموعظة ولا يغرهم ولا يدخر عنهم كلمة الحق وكل من غرهم فهو مشارك لهم في ظلمهم .

كتب عمر بن الخطاب الى عامله ابي موسى الأشعري .

أما بعد ، فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته وإياك والبطش فإن عمالك يقتدون بك فتكون مثل دابة رعت مرعى مخصبا فأكلت كثيرا حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لانها بذلك السمن تذبح ؛ وفي التوراة كل ظالم عَلِمَهُ السلطان من عماله ورعيته ويسكت

عنه كان ذلك الظلم منسوبا لهم ويؤخذ به يوم القيامة ويعاقب عليه وينبغي لمن أراد العدل على الرعية ان يرتب عماله للعدل ويحفظ احوالهم كما يحفظ احوال أهله وأولاده ومنزله ولا يتم ذلك إلا بحفظ العدل أولا من باطنه وذلك بأن لا يسلط شهوته وغضبه على عقله ودينه ، ولا يجعلهما اسرى شهوته وغضبه واكثر الخلق في خدمة شهواتهم ولا يعلمون أن العقل من جوهر الملائكة وهو من جند الله تعالى . وإن الغضب والشهوة من جند الشيطان فمن يجعل جند الله وملائكته أسرى لجند الشيطان كيف يعدل في غيرهم .

وأول ما يظهر شمس العدل في الصدر ثم ينتشر نورها في أهل البيت وخواص الملك فيصل شعاعها الى الرعية ، ومن طلب الشعاع من غير الشمس فقد طلب المحال وطمع فيما لا ينال ، ولو كنت عاقلا لعلمت ان الذين يخدمونك إنما هم لأجل فروجهم ، وبطونهم وشهواتهم لأنفسهم لا لك . وعلامة ذلك أن الولاية اذا سارت لغيرك اعرضوا بأجمعهم عنك وتقر لذلك الرجل لأجل حظوظهم .

واعلم ان ظهور العدل من كمال العقل ، وكما العقل ان ترى الأشياء كما هي ، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها مثلا إن كنت تجور على الناس فتنظر أي شيء مقصودك فإن كان للأكل والطعام الطيب فتعلم ان هذه شهوة بهيمة في صورة آدمي فإن الشره في الأكل من طبائع البهائم ، وان كان مقصودك التزين في اللباس فإنك امرأة في صورة رجل ، لأن التزين من أعمال النساء ، وإن كان مقصودك ان تمضي غضبك على أعدائك فأنت اسد في صورة آدمي لأن الغضب من طباع السباع ، وإن كان مقصودك ان يخدمك الناس فأنت جاهل في صورة عاقل لأنك لو كنت عاقلا لعلمت أنما يخدمونك لأجل بطونهم وشهواتهم فقط .

وعن أبي عبيدة بن الجراح ـ رحمه الله ـ قال لعمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ يا أمير المؤمنين لو لبست ثيابا حسانا فرآك قواد الروم وعظماء الأعاجم .

فقال عمر : يا أبا عبيدة إن الله قد اعطاكم العز بغير الثياب فلا تطلبوه بغير ما اعطاكم الله فيذلكم .

وعن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له امرأتان فمال الى احديهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[1].

وذكر في الخبر أن عاملا من المسلمين افتتح مدينة من مدائن فارس فأصاب فيها مالا كثيرا وأصاب فيها ذهبا وفضة فكتب اليه عبيدالله بن زياد . أما بعد . فإن أمير المؤمنين أمرني ان اكتب اليك كتابا أن تصفى إلي بالصفراء والبيضاء والقليل والكثير وأيم الله لئن لم تفعل ذلك لأبعثن من يضرب عنقك ، فلما آتاه كتابه دعا بجميع ما أصاب فقسمه على سهام الله وسنة رسوله ، ثم كتب الى عبيدالله بن زياد . أما بعد فإنك كتبت إلي كتابا وذكرت فيه ؛ أن أمير المؤمنين أمرك ان اصفى إليك بالصفراء والبيضاء ، واني نظرت فوجدت كتاب الله وسنة رسوله قد سبقا كتابك وكتاب أمير المؤمنين فقسمت ذلك على فرائض الله وسنة رسوله وأما تخويفك لي بالقتل فإن السموات والارض لو كانتا رتقا على عبد من عبيد الله وهو يخاف الله ويتقيه لجعل الله له منها فرجا ومخرجا والسلام .

فبعث اليه عبيدالله عاملا آخر وأمره أن يضرب عنقه ويقعد على عمله ، فخرج ذلك العامل الآخر ، فلما انتهى الى تلك البلدة التي كان فيها وجده قد مات وقد انصرف من جنازته ودفنه .

وقال أبو حازم : إن بني اسرائيل لما كانوا على الصواب وكان الامراء لا يحتاجون الى العلماء ، والعلماء يفرون بدينهم ، فلما رأى ذلك قوم من رذالة الناس ، تعلموا ذلك العلم وأتوا به الى الأمراء فاستغنت به عن العلماء فاجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا .

---

١ ـ رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه بألفاظ متقاربة عن أبي هريرة

فلو كان علماؤنا يصونون علمهم لم تزل الأمراء تهابهم . ومن كلام لعلي بن أبي طالب لأبي ذر ـ رحمه الله ـ يا أبا زر انك غضبت لله فارج من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما احوجهم الى ما منعتهم وأغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غدا والأكثر خسرا .

ولو ان السموات والأرض كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله تعالى له منها مخرجا لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو فرصت[1] منها لأمنوك .

وقال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور وعمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته حتى في الأسواق والارزاق والضروع والزروع وكل شيء ، واذا هم بالخير وعمل به وعدل بينهم ادخل الله البركة على أهل مملكته كذلك .

هذا كتاب من محمد نبي الله ورسوله ﷺ سيرة للعلاء بن الحضرمي ومن معه من المسلمين وعهدا عهده إليهم بها (أن اتقوا الله وحده لا شريك له فإني قد استعملت عليكم العلاء بن الحضرمي وامرته باتقاء الله وحده لا شريك له وان يحسن فيكم السيرة وان يحسن ولايتكم وأن يلين لكم الجناح وان يشاوركم في الأمور وان يحكم فيكم وفيمن لقي من الناس بما أنزل الله من العدل بطاعة الله فإذا فعل ذلك فحكم فعدل واسترحم فرحم وقسم فأقسط فاسمعوا له واطيعوا واحسنوا مؤازرته ومعونته فيه فإن لي عليكم من الله طاعة وحقا واجبا لا تقدرون قدره ولا يبلغ القائل كنه حق الله وحق رسوله وكما أن لله ولرسوله على الناس عامة وعليكم خاصة حقا واجبا وطاعة ووفاء بعهده فمن اعتصم منكم بالطاعة وعظم حق أهلها وولايتها ، فإن للولاة المسلمين على المسلمين إذا أطاعوا الله حقا واجبا ، وفي الطاعة درك لكل خير يبتغى ، ونجاة

---

١ ـ فرصت : فَرَص ـ بفتح الأول والثاني ـ الثوب ونحوه ، فرصا شقه طولا وخرقه ، يقال : فرص الحذاء النعل : خرقها للشراك ، و ـ الحيوان ؛ أصاب فريصته ، و ـ الفرصة ؛ اغتنمها وفاز بها .

من كل شر يتقى ، وأنا أشهد الله على كل من ولي شيئا من امور المسلمين قل أو اكثر فلا بيعة له ولا عهد له ولا طاعة ولا وفاء وان بويع سبعين مرة فهو خليفة وقد برئت الى الله وإلى من معه من المسلمين من بيعتهم وعهدهم ومن ذمتهم فيستخيروا الله عند ذلك وليستعملوا عليهم أفضل أفاضلهم في أنفسهم وأيما وال ولي شيئا من أمر المسلمين فولى واحدا على هؤلاء على غير اختيار ولا مشاورة خيارهم فقد خان الله ورسوله والمؤمنين وبرئت منه ذمة الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وعليه وزره ولا طاعة له ولا لمخلوق في شيء من معصية الله وأنا أشهد الله وملائكته عليهم) .

كتاب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر بن ابي قحافة في آخر عهده في الدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه وإن بدل وجار فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ولا اعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وروي انه قال لعمر : يا عمر اني مستخلفك على أمة محمد ﷺ واني موصيك بوصية إن أنت حفظتها إن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار وإن له في النهار حقا لا يقبله في الليل وانها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة الم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الحق بأن يكون ثقيلا ألم تر يا عمر إنما

خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفت ذلك عليهم وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا الم تر يا عمر أن الله أنزل آية الرخاء عند آية الشدة وآية الشدة عند آية الرخاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لأن لا يرهب رهبة يلقى بيديه فيها إلى التهلكة ولا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله غير الحق فإن أنت حفظت وصيتي هذه يا عمر فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو نازل بك وان كنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت وأنت غير معجزه .

كتاب عمر بن الخطاب
الى ابي عبيدة

من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رحمه الله إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فإني احمد اليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى ومن الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تقولن اني أرجو لهم النصر فإن النصر إنما يكون مع التوفيق والثقة بالصبر والنية والقوة ، وإياك والتعزز وإلقاء المسلمين في التهلكة فغمض عن الدنيا عينيك وول عنها قلبك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعها وأخبرت بسوء أثرها على أهلها كيف عري من كسته وجاع من اطعمته ومات من احيته وإنما بينك وبين الآخرة ستر مثل الخمار تبصرها منه وما فيها قد تقدم إليها سلفك وأنت منتظر في غير دار مقام قد نضب ماؤ ها وهاجت ثمرتها فأحزم الناس الراحل منها الى غيرها بزاد بلاغ والسلام .

فصـــل

وقيل : من عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق وأطاعه الخلق وصفت له النعم وخدمته الأمم وأقبلت عليه الدنيا فتهنى العيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن من الحروب وصارت طاعته فرضا وظلت رعيته جندا ، وان أول العدل أن يبدأ الرجل بنفسه فيلزمها كل خلة جميلة وخصلة رضية ومذهب سديد ومسكن حميد يسلم عاجلا ويسعد آجلا ، وأول الجور أن يعمد إليها فيجنبها الخير ويعودها الشر ويكسبها الآثام ويعقبها المذام ليعظم وزرها ويقبح ذكرها .

وقال أفلاطون : من بدأ بنفسه فساسها أدرك سياسة الناس .

وقال : أصلحوا انفسكم تصلح لكم آخرتكم .

وقيل من أسس أساس الشر اسسة على نفسه .

وقيل : استعن على العدل بخلتين قلة الطمع وشدة الورع .

وقيل : من استعمل الظلم عجل الله في هلاكه ، ومن خبثت سيرته زالت قدرته ، ومن عدل زاد قدره ، ومن ظلم نقص عمره ، ومن أولع بقبيح المعاملة أوجع بسوء المقابلة ومن حارت قضيته ضاعت رعيته .

وقيل : السلطان في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مسموع فإن ظلم لم يعدل أحد في حكم ، وان عدل لم يجسر احد على ظلم .

وقيل : الظلم مسلبة للنعم ومجلبة للنقم ، ومن اكثر العدوان لم يأمن حلول النقم ، ومن آثر الاحسان لم يعدم مواد النعم ، ومن ساءت سيرته لم يأمن أبدا ، ومن حسنت سيرته لم يخف أحدا ، ومن طال عدوانه زال سلطانه ، ومن جار حكمه أهلكه ظلمه ، ومن بغى على أخيه قتله بغيه ، ومن

جرى في مساءته أهلكه جريه ، ومن أشفق على سلطانه كف عن عدوانه .

احسن الملوك من أحسن فعله في نيته وعدل في جنده ورعيته ، ومن ركب البغي لم ينل بغيته ، ومن نكب عن الحق لم تحمد عاقبته ، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة .

وسلطان السوء يخيف البرىء ويصطنع الدنىء ، وأخسر الناس من أخذ بغير حق وأنفق على غير مستحق ، ومن غدر شانه غدره ، ومن مكر حاق به مكره .

ولأشد الفعال ما جلب الآثام ، وشر الاقوال ما جلب الملام ، وشر الأراء ما خالف الشريعة ، وشر الأعمال ما هدم الصنيعة ، فليكن مرجعك الى الحق وفزعك إلى الصدق ، فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين ، ومن أحسن فهو حكيم ، ومن أوحش فهو لئيم ، ومن زرع العدوان حصد الخسران ، ومن نصر الحق قهر الخلق .

وقيل : إياك والبغي فإنه يزيل النعم ويطيل الندم ، ومن مكنه الله في أرضه وبلاده وائتمنه في خلقه وعباده ، وبسط يده وسلطانه ورفع محله ومكانه . فحقيق عليه ان يؤدي الأمانة ويخلص الديانة ، ويجمل السيرة ، ويرضي العشيرة ويجعل دأبه العدل المعهود ، وغرضه الأجر المقصود . فالظلم يزل القدم ويزيل النعم ويهلك الأمم .

وقيل : غاية الأوزار تولية الأشرار ، وأفود الغنائم دولة الأكارم ، ومن أشد النوازل دولة الأراذل .

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان

فقال : أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئا ويزداد الظالم فيه عتوا لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا ،

ولا نتخوف قارعة عما قليل تحل بنا .

والناس أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة جده وقصر وفره أي قليل المال ، ومنه المصلط بسيفه أي الشاهر سيفه ، والمجلب بخيله ورجُلِه ، والمعلن بسره قد اشرط نفسه وأوتغ[1] دينه لحطام ينتهزه أو مقنب - اي عسكر يقوده - أو منبر يفرعه - اي يرتقيه - وليس المجتر ان يراها لنفسه ثمنا ، ومما عند الله عوضا .

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة قد طامن شخصه وقارب بين خطوه ، وشمر من ثوبه وزخرف أي زين نفسه للأمانة واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية .

ومنهم من اقعده عن طلب الملك ضؤولة في نفسه وانقطاع من سببه فقصر به الحال عن حاله فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس الزهاد ، وليس من ذلك في مراح ولا مغذى ويقي رجال غض أبصارهم ذكر المضجع وأراق دموعهم خوف المحشر فهم بين شريد بار وخائف متقمع قد أخملتهم التقية وشملتهم الذلة بحر أجاج أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ[2] وقراضة الجلم ،[3] واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم .

وقال الشافعي : أظلم الناس لنفسه من اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر

---

١ - قد أشرط نفسه و (أوتغ) : وتغ فلان ، يوتغ وتغا : هلك وأثم وفسد وساء خلقه ، وساء قوله ، وكان مفرط الجهل ، وفي حجته أخطأ . وأوتغ الله فلانا : أهلكه ، وأوتغ فلان فلانا : جعله يأثم وأفسده وألقاه في بلية ، والموتغة : المهلكة ، والوتيغة : الخطأ في الحجة .

٢ ـ المراد به قشر البلوط وهو نوع من الخشب

٣ ـ الجلم : جلم الشيء جَلْماً ؛ قطعه وحلقه ، والشعر والصوف ؛ جزه بالجلم ، و ـ الحيوان ؛ أخذ ما على عظمه من اللحم ، والجلم ؛ ما يجز به ، والجمع جلام ، والجِلْم ـ بكسر الجيم وسكون اللام ـ شحم الكرش والأمعاء وما يجز به الصوف ، والموسى .

معارفه ، واستخف بالاشراف ، وتكبر على ذوي الفضل .

وقيل : إذا قرب السلطان من ينبغي ان يباعد ، وباعد من ينبغي ان يقرب فقد حان أوان الغدر .

وقيل : زوال الذيول بارتفاع السفل .

وقالت الحكماء : موت الف من العلية اقل ضرر من ارتفاع واحد من السفلة .

وقيل : هلاك هذه الامة من سبعة نفر ؛ من عالم فاجر ، وعابد جاهل ، وزاهد راغب ، وحاكم مرتشي ، ومؤذن كذاب ، وقارىء خائن ، وأمير فاسق ، وإن الله عز وجل زين الدنيا بخمسة نفر : بعلم العلماء ، وعدل الامراء ، وأمانة التجار ، وغزو الغزاة ، وزهد الزهاد ، فجاء ابليس فخلط العلم بالحسد والعدل بالجور والامانة بالخيانة والغزو بالطمع والزهد بالرغبة حتى ذهب نفع هذه الأشياء من المؤمنين .

وقال أبي بن كعب : قال رسول الله ﷺ : بشر هذه الأمة بالثناء والرفعة في الدين والتمكين في البلاد ما لم يعملوا عمل الأخرة للدنيا ، ومن يعمل عمل الأخرة للدنيا لم يتقبل منه ، وليس له في الآخرة من نصيب .

وقيل : داء العلماء حب الدنيا وآفة النساء الجهل ، وكل يصد عن الله .

الباب الحادي والعشرون

في المشورة

وينبغي للمرء ان لا يبرم أمرا ، ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح .

قال الله عز وجل آمرا بالمشروة نبيه ﷺ مع ما تكفل به من ارشاده وتأييده فقال عز وجل : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [1] ، وقد أثنى الله تعالى على عباده بالمشاورة فقال : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [2] ، قال مقاتل وقتادة والربيع : كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يشاورهم في الأمر الذي يريده فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لاضغانهم وأطيب لأنفسهم ، وإذا شاورهم عرفوا كرامتهم وان القوم اذا تشاوروا وأرادوا بذلك وجه الله عزم الله لهم على الأرشد وأنشد :

إذا كنت في حاجة مرسلا ... فارسل حكيما ولا توصه
وان باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه
ونص الحديث إلى أهله ... فإن الوثيقة في نصه
اذا المرء أضمر خوف الاله ... تبين ذلك في شخصه

وقال آخر :

شاور صديقك في الخفى المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه ... في قوله شاورهم وتوكل

١ - الآية ١٥٩ من سورة آل عمران
٢ - الآية ٣٨ من سورة الشورى

الأخـــبار

قال رسول الله ﷺ : «الا إن الدين النصيحة الا من لم ينصح فقد غش الا من غش فليس منا الا من صحب ضالا لم يسلم حتى يبتلى في نفسه أو في بدنه ويرى عقوبة ذلك في عياله الا من مدح فاسقا ذهب ماء وجهه الا من طمع في مال اخيه نزعت البركة من كسبه الا من آذى مسلما فقد بارز الله بالمحاربة الا من فعل شيئا فعل به الا من جمع مالا من حرام فتصدق لم يؤجر وهو مأخوذ به»[1].

وقال ﷺ : «المستشار بالخيار إن شاء امسك وان شاء فلينصح» .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «المشاورة حصن من الندامة وأمان من الملامة»[2].

الآثـــار

قال عمر رضي الله عنه : الرأي كثير والحزم قليل ، وقال بعض البلغاء : المشاورة لقاح العقول ورائد الصواب ، والمستشير على طريق النجاح ، واستنارة المرء برأي أخيه من عزم الأمور وحزم التدبير ، وكان يقال : اذا شاورت العاقل صار عقله لك ، وقال القباني : المشورة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه ، وقال القرشي : نعم المؤازرة المشاورة ، وبئس الاستعداد الاستبداد .

وقال عمر بن عبدالعزيز : المشاورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي ، ولا يفقد معهما حزم .

---

١ ـ رواه ابن ماجه عن أبي هريرة

٢ ـ رواه مسلم عن أنس

وقال بعض البلغاء : من حق العاقل أن يضيف الى رأيه رأي العلماء ، ويجمع الى عقله عقول الحكماء ، والرأي الفرد ربما زل ، والعقل الفرد ربما ضل ، واذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من استكملت فيه خمس خصال : احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة ؛ فإن كثرة التجارب تصح الرواية .

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ انه قال : «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا» والخصلة الثانية أن يكون ذا دين تقي ؛ فإن ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة .

وروي عن عبدالله بن عباس أنه قال : من أراد أمرا فشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لارشد أموره .

والخصلة الثالثة ؛ أن يكون ناصحا ودودا ؛ فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ، ويمحضان الرأي .

والخصلة الرابعة ؛ أن يكون سليم القلب من هم قاطع وغم شاغل ، فإن عارضت فكره شوائب الهموم لم يسلم له رأي ولم يستقم له خاطر .

والخصلة الخامسة ، ان لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده ، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاد ، والرأي إذا عارضه الهوى ، وجاذبته الأغراض فسد ، فإذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلا للمشورة ومعدنا للرأي .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ انه قال : «ما يشقى احد باستشارة ولا يسعد باستبداد وقد أمرني الله ـ جل ذكره ـ ان اشاوركم» قال ابن عباس : الناس ثلاثة : رجل ، ونصف رجل ، ولا رجل ، فالرجل المشاور في كل أموره ، ونصف الرجل هو المشاور في بعض اموره ، واللارجل الذي لا يشاور في

اموره . وقال عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ شاور في أمرك الذين يخافون الله . وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم ؟ فقال نحن الف رجل وفينا رجل حازم ونحن نطيعه فكلنا الف رجل حازم ، ويقال : أما ذو المروءة فيستشير وأما الاحمق فيختلس ، والرجل الخير ينطق بالخير ويفعله لما في قلبه منه ، والشرير ينطق بالشر ويفعله لما في قلبه منه ، وكل يعمل على قدر نيته وما في قلبه من الخير والشر .

وقال عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ : الرجال ثلاثة : فرجل عفيف مسلم عاقل يأتمر في الأمور اذا أقبلت واشتبهت ، فإذا وقع في الأمر برأيه فعل ، ورجل عفيف مسلم ليس له رأي فإذا وقع الأمر نادى الرأي فاستشاره واستأثر ثم لم يزل عنده أمره ، ورجل جائر برأيه لا يأتمر راشدا ولا يطيع مرشدا ، وقيل : من استشار استبصر ومن استخار استظهر ، ومن أبرم الأمر بلا تدبير ، صيره الدهر الى تدمير ، ومن استرشد برأيه خفت وطأته على أعدائه .

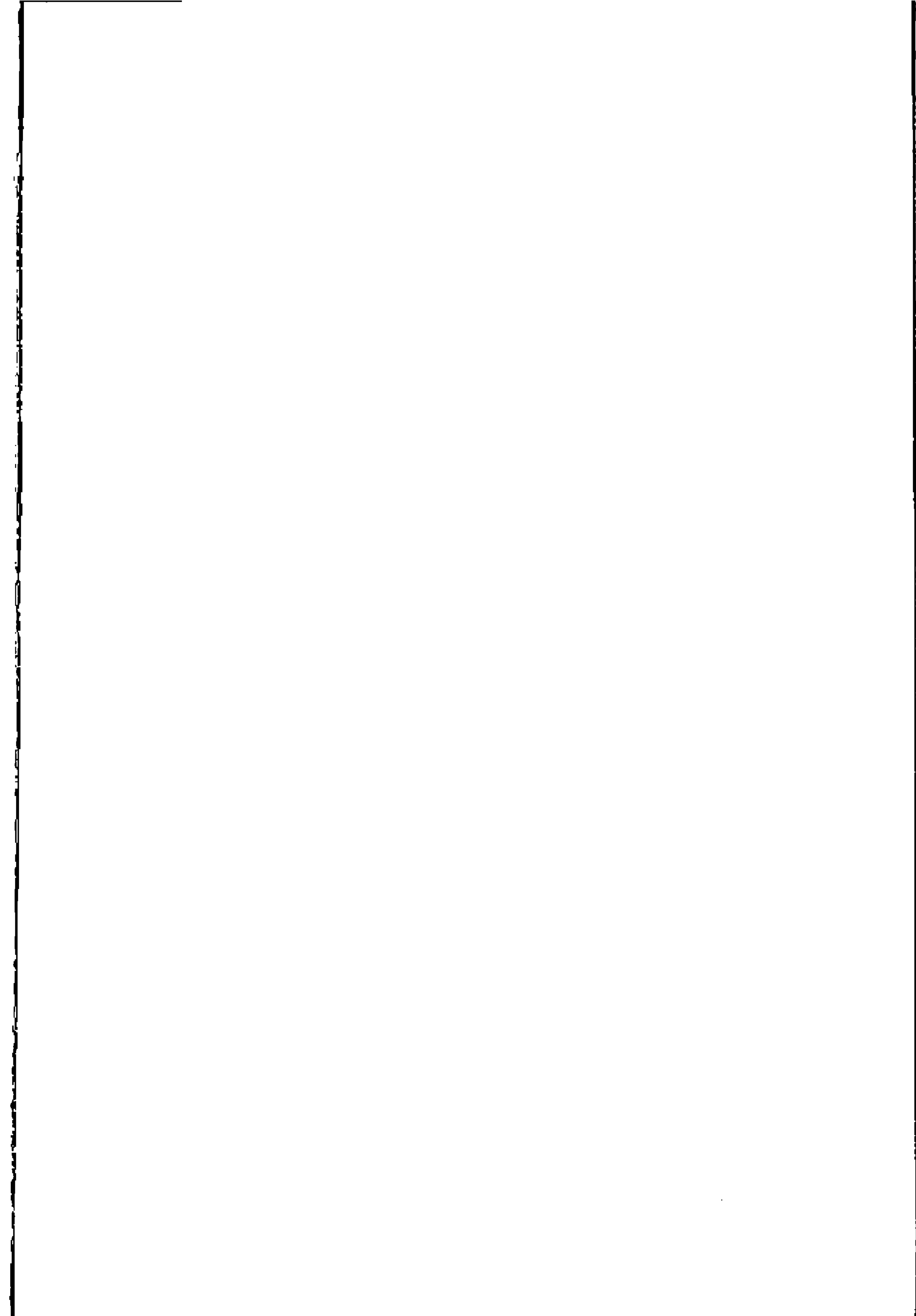
ومن أمارات الخذلان ، معاداة الاخوان ، ومن ضعفت آراؤه قويت أعداؤه ، وإذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل ، ومن استهدى الأعمى عمي عن الهدى .

والخطأ مع الاسترشاد اجمل من الصواب مع الاستبداد ومن استكفى الكفاة آمن العداة ، وسوء التدبير سبب التدمير ، وإذا شكلت عليك الامور وتغير عليك الجمهور فارجع الى رأي العقلاء ، وافزع الى استشارة النصحاء ، ولا تأنف من الاسترشاد ، ولا تستنكف من الاستمداد فلئن تسأل وتسلم خير من ان تستبد وتندم ، ومن صدقك فقد ارشدك ، ومن نصحك فقد نجدك ، ومن وعظك فقد اشفق عليك ، ومن اعرض عن الحزم والاحتراس وبنى على غير أساس زال عنه العز واستولى عليه العجز فصار من يومه في نحس ، ومن غده في لبس ، ومن قصر عن سياسة نفسه كان على سياسة غيره أقصر ، ومن

غدر بأهل بيته كان بأهل وده أغدر ، ومن اعرض عن نصيحة الناصح احترق بكبد الكاشح ، ومن استغنى بعقله ضل ، ومن اكتفى برأيه ذل ، ومن استعان بذوي العقول فاز بإدراك المأمول ، ومن استشار ذوي الالباب سلك سبيل الصواب ، ومن استوزر غير كاف خاطر بملكه ، ومن استشار غير أمين أعان على هلكه ومن أسر الى غير ثقة ضيع سره ، ومن استعان بغير مستقل افسد أمره ، ومن ضيع رأي العاقل دل على ضعف عقله ، ومن اصطنع جاهلا أعرب عن فرط جهله .

والحازم من حفظ ما في يده ، ولم يؤخر أمر يومه الى غده ، ومن استشار الرشيد وعمل بمشورته ، واستنصح الصديق وبنى نصيحته لم يفته حزم ولم يغلبه خصم ، ولا تثق بالصديق قبل الخبرة ، ولا تواقع العدو قبل القدرة ، ومن استشار العالم فيما ينوبه ، واسترشد العاقل فيما يأتيه صحت له الأمور وصحبه الجمهور ، واستنار منه القلب وسهل عليه الصعب ، ومن جهل المرء وسقم رأيه ان يتصور في نفسه ، ويتمود في قلبه أن الاستبداد بالآراء وترك استشارة النصحاء بما يزري به ويضع من قدره فيستبد بالتدبير ويعرض بالمشير .

ولتكن مشاورتك بالليل فإنها أجمع للفكر واعون على الذكر ، ثم شاور في امرك من تثق منه بعقل صحيح وود صريح ، فالعاقل لا ينصح ما لم يصف وده ، والودود لا يصيب ما لم يصح عقله .



الباب الثاني والعشرون

في ذكر القضاة والأمراء وأهل الظلم منهم

عن النبي ﷺ أنه قال : «القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة» .

والقاضي ينتظر المقت والمستمع ينتظر الجنة .

ومن جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين .

وذكر عن ابي هريرة انه قال : ما من أمير ولا قاض ولا حاكم على عشيرة من الناس إلا يحشر يوم القيامة وهو مغلول اليدين إلى عنقه فإن كان عدلا أطلقه عدله وان كان غير ذلك شد وثاقه .

وذكر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ انها قالت : يؤتى يوم القيامة بالقاضي العدل فيلقى من شدة الحساب ما يود انه لم يكن قاضيا بين اثنين فإذا كان هذا حال قاضي العدل الذي يقضي بين الناس ابتغاء مرضاة الله فكيف يكون حال من جار في الأحكام وقبل الرشا على ظلم الأرامل والأيتام ومال بالحكم بين الضعفاء والمساكين ومن لا وجه له ولا قدرة عنده وصانع الأغنياء والكبراء وكان طلبه للقضاء ابتغاء عرض الدنيا والثناء والجاه والتكاثر والعلو والرفعة على الناس والفخر والكبرياء واصاب من الدنيا ما أراد فوق ما أراد فكيف يكون حاله عند الله غدا نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه .

وذكر عن مكحول انه ينادي مناد يوم القيامة ، اين الظلمة وأعوان الظلمة فلا يبقى احد منهم مد لهم مدة أو برى لهم قلما أو أعانهم بكلمة الا حضر فيجعلون في تابوت من نار ثم يلقون في جهنم .

وذكر عن سفيان الثوري أنه قال : من تبسم في وجه ظالم أو وسع له في مجلسه أو قضى له حاجة وهو عالم بظلمه فقد قطع عرى الاسلام ، ومن أعان ظالما على مظلمة فقد باء بغضب من الله وعليه وزره ، وما ازداد أحد من ذي سلطان قربا الا ازداد من الله بعدا بقدر ما تقرب منه . وذكر عن النبي عليه السلام أنه قال : «من اسود اسمه مع إمام جائر حشر معه ، ومن جبى مع امام جائر درهمين جعله الله في ضحضاح من النار ، ومن سعى لسلطان جائر جعله الله قرينه في النار ، ومن دل سلطانا على الجور كان قرين فرعون وهامان في جهنم ، ولم يكن أحد في النار أشد عذابا منه» .

وذكر عن سعيد بن المسيب أنه قال : لا ترفعوا أبصاركم الى أئمة الجور وأعوان الظلمة إلا بالانكار من قلوبكم لئلا تحبط اعمالكم الصالحة .

وذكر عنه عليه السلام أنه قال : ما من أمير ولا وال على أحد من الناس إلا يؤ تى به يوم القيامة فيوقف على جسر من جسور جهنم . فإن كان محسنا نجا وان كان مسيئا انخرق به الجسر فيهوى به في النار سبعين خريفا .

واعلم أن صحبة السلطان خطر وغرر لأنك ان اطعته خاطرت بدينك ، وان عصيته خاطرت بنفسك ، وصحبة السلطان غرر في النفس ، ونقص في الدين ، ومن تقرب من السلطان خاض في جهنم بعدد خطاه ، وليس على العباد شيء أضر من اتيان أبواب السلاطين ، وحب الدنيا ، وحب الدرهم ، وحب الرياسة ، وهذه الأربعة الأشياء تورد الانسان النار .

وذكر في الخبر عن عمر بن عبدالعزيز أنه مر في بعض بلاد الشام براهب في صومعة فناداه يا راهب فاشرف عليه من صومعته فقال له : انت عمر بن

عبدالعزيز ملك الأرض فقال له : نعم .

فقال له : كيف بك يا عمر اذ نادى بك ملك الأرض والسماء وعرض حكمك على حكمه كيف تكون حالك فيه فبكى عمر فقال له : زدني فقال له : لا تدع لنفسك على نفسك حجة والله يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون .

وذكر في الخبر عن سفيان الثوري انه كان صاحبا لهارون الرشيد من قبل ان يلي هارون الخلافة ، فلما ولي الخلافة ، فارقه سفيان وفر بنفسه هاربا الى الكوفة منه ، ولم يره بعد ذلك فكتب اليه هرون الرشيد كتابا فيه .

بســم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله هارون الرشيد أمير المؤمنين الى سفيان الثوري . أما بعد ، يا أخي فإني لم أقطع حبلك ، ولم اصرم ودك ، وأنا منتظر لك وللقائك في كل وقت ، مع كل ساعة على افضل المحبة والصحبة التي بيني وبينك ولولا هذه القلادة التي قلدني الله لأتيتك ولو حبوا مما اجد لك في قلبي من المحبة وجميل الصحبة ، واعلم انه ما بقي من اخواني واخوانك احد الا وقد أتوني وهنأوني بما قد صرت إليه من الخلافة ، ففتحت بيوت المال وجوزتهم الجوائز السنية ، حتى سرت به نفوسهم ، وقرت به أعينهم وأنت لم تأتني وقد كتبت لك كتابي هذا حبا لك وفي لقائك وشوقا فإذا قرأت كتابي هذا فالعجل العجل ولا تتأخر عني ساعة واحدة على كل حال ، ثم التفت هارون الرشيد الى من كان عنده بحضرته فقال : من يوصل هذا الكتاب إلى سفيان الثوري وكانوا يعرفون سفيان وقشوفته وما هو عليه فلم يجبه أحد الى ذلك ممن كان عنده . فقال : علي بمن في الباب فادخل عليه عباد الطليقاني فقال له : يا عباد خذ هذا الكتاب وانطلق به إلى الكوفة وادفعه الى سفيان الثوري ثم أفقه بسمعك وعقلك ما يكون من دقيق أمره وجليله .

قال عباد : فأخذت الكتاب وانطلقت به الى الكوفة فسألت فيها عن

سفيان الثوري فقيل لي هو في المسجد فأتيت المسجد فلما دخلت عليه المسجد ورآني ورأى عليّ اثر خدمة السلطان . قال : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من كل طارق يطرق الا بخير يا رحمن ثم قام يصلي ولم يكن تلك الوقت صلاة واذا بجلسائه قد نكسوا رؤ وسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فسلمت عليهم فما رفع احد منهم رأسه إليّ ، ولا رد عليّ السلام إلا بأطراف الأصابع لعله وهم منكسو الرؤ وس خائفون فقلت في نفسي إن هذا المصلي هو سفيان فالقيت إليه الكتاب فلما رآه ارتعد وتباعد عنه كأنما عرضت له حية في موضع سجوده فأقام في صلاته ما شاء الله فلما فرغ من صلاته لف يده في عباءته وأخذ الكتاب ورمى به الى جلسائه وقال : ليقرأ احدكم هذا الكتاب فإني اكره ان أمس شيئا مسه ظالم فأخذه أحدهم وفتحه وهو خائف منه كأنما أخذه من فم ثعبان فلما فرغ من قراءته تبسم سفيان تبسم المعجب ثم قال : اقلبوه واكتبوا إليه فيه على ظهره فإن يكن اكتسبه من حلال ، سوف يجزى به وان يكن اكتسبه من حرام ، فكيف يصلى به ، ولا يبقى عندي شيء مسه ظالم فيفسد علينا ديننا ، ثم اكتبوا له فيه من العبد الميت سفيان الى العبد المغتر بالآمال المحب للدنيا هارون الذي سلب حلاوة الايمان . أما بعد ، فإني قطعت حبلك ، وصرمت ودك ، وقلبت موضعك ، ولم ارض بما فعلت حين كتبت إلي كتابا وقد جعلتني في كتابك شاهدا عليك أنا ومن حضرني وسأؤ دي الشهادة بين يدي رب العالمين . يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين ووضعته في غير حقه ، وانزلته في غير موضعه ، فهل يرضي فعلك هذا اهل الفضل من اهل العلم والخير والسنة ، أو هل يرضي فعلك هذا أهل الحاجة والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، والضعفاء من الناس ، حين أخذت حقوقا وجبت لهم واعطيتها غيرهم من غير استحقاقها ووضعتها في غير مواضعها ، أو هل يرضي فعلك هذا محمد رسول الله حين لم تعدل في أمته ، ويكون خصمك غدا بين يدي رب العالمين .

فشد يا هارون مئزرك واستعد للسؤ ال جوابا ، وللبلاء والمحنة جلبابا ،

واعلم أنك ستقف غدا بين يدي رب العالمين ، وهو الحكم العدل الذي لا يجور في حكمه ، ويجزي الظالمين بأعمالهم ، فلا ينفعك حينئذ جندك ، ولا وزراؤك ، ولا جلساؤك ولا أعوانك وخدامك ، ولا ينفعك من غرك بقوله نفسي لك الفداء . وجعلت فداءك ، غروك والله يا هارون كما غروا غيرك من قبلك حتى اهلكوه ، ولو علم عبيد الدنيا المغترون حقيقة الأمر لكانوا يعزونك ولا يهنئونك . فوالله ما احسبك إلا وأنت قد سلبت عقلك ، وحلت بك العقوبة في نفسك حين سلبت حلاوة الايمان ، وفقدت لذاذة القرآن ، ومجالسة الاخوان ورضيت لنفسك ان تكون ظالما وللظلمين إماما .

يا هارون لبست الحرير ، وقعدت على السرير ، والبست ـ لعله ـ واسبلت سترا دون بابك ، وجعلت الحجبة عليه ، وتشبهت بخالقك ، واقعدت على بابك عماد الظالمين ، يظلمون الناس ولا ينصفون المظلوم ، ويشربون الخمر ويحدون من شربها ، ويزنون ويحدون الزاني ، فهلا كانت هذه الأحكام عليهم قبل ان يحكموا بها على الناس ، فكيف بك يا هارون اذا نادى المنادي أين الظلمة وأعوان الظلمة ، وترى الظالمين حولك ، وانت لهم امام فأخذت بضيق الخناق ، وورود السياق فقربت للعرض ويداك مغلولتان الى عنقك ، فلا يفكها ذلك اليوم إلا عدلك وانصافك ، وانت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك ، فإن كنت لم تنصف ولم تعدل في عباد الله فقد خسرت خسرانا مبينا ، والويل لك ثم الويل فاتق الله في رعيتك ، واحسن عليهم الخلافة ، ولا تأخذ الاشياء الا بحقها ، ولا تضعها الا في موضعها ، واحفظ محمدا عليه السلام في أمته ، واعلم ان هذا الأمر الذي صار إليك لو بقي إلى غيرك ما صار إليك ، ولكن زائل عنك الى غيرك ، وهو ينتقل من واحد الى واحد ، فمنهم من يتزود منها ما ينفعه ، ومنهم من يخسر الدنيا والآخرة ، فإياك يا هارون ان تكون ممن خسر الدنيا والآخرة ، واعمل ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

فاتق الله يا هارون ، واحذر عذابه ، ولا تتعرض لسخطه وتواضع لله ، ولا تتكبر على الله ، فقد آلى على نفسه ان يرفع من تواضع ، ويضع من تكبر ، فاتعظ بالموعظة ، فقد نصحتك جهدي ، وما أبقيت لك في النصيحة غاية ، فاتق الله في رعيتك واعلم انه ليس المطلوب بك غيرك من الخلق احد غيرك ، ثم إياك ان تكتب إلي كتابا آخر بعد هذا ابدا .

وقال عباد : ثم رمى الكتاب منشورا غير مطوي ، فأخذت الكتاب وقد وقفت الموعظة في قلبي ، حين أملى الكتاب على كاتبه ، وصرت كالمجنون مما سمعت ، فانطلقت الى السوق ، واشتريت جبة من صوف وعباءة قطوانية فلبستها ، وتركت ما كنت البسه من الحرير ولين الثياب بين يدي امير المؤمنين . فلما وصلت الى حضرة امير المؤمنين تهزأ مني كل من كان عند الباب من اصحابي ، فلما دخلت على أمير المؤمنين ونظر اليَّ قام قائما على قدميه ، وجعل يلطم خديه وهو ينادي بصوت رفيع انتفع المُرسَلْ ، وخاب المرسِلْ ما لي وللملك يزول عني .

قال : فالقيت الكتاب إليه ، فأقبل عليه بالقراءة ودموعه تجري على خديه ، حتى فرغ من قراءته . فقال له من كان بحضرته من جلسائه ووزرائه : لقد احزنك سفيان يا أمير المؤمنين ، وادخل عليك المشقة في نفسك ، واجترأ عليك بأمر عظيم فكان جزاؤه ان توجه إليه اجنادك وأعوانك ، فيأخذوه ويوثقوه في الحديد ، وتضيق عليه السجن ، حتى تجعله مثلة ويكون عظة لغيره من الناس ، ويكون مستحقا لذلك . فقال لهم هارون : اتركوني يا عبيد الدنيا ، فالمغرور من غررتموه ، والشقي من اهلكتموه فوالله لقد نصحني بأبلغ نصيحة ، ووعظني بأكمل موعظة .

ولم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرأه دبر كل صلاة يصليها كما يقرأ القرآن فحسبك ما ذكرت لك .

وذكر في الخبر : أن أبا ذر دخل يوما الى معاوية ، وهو يومئذ قد بنى

بيتا ، فقال له معاوية : كيف ترى هذا البنيان يا أبا ذر ؟

فقال له ابو ذر : ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين والله لا يحب الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين والله لا يحب المسرفين .

وذكر عن وهب بن الورد انه قال : البناء الذي لا اسراف فيه ، ما ستر من الشمس ، واكن من المطر ، واللباس الذي لا اسراف فيه ؛ ما ستر العورة ، وأدفأ من البرد ، والطعام الذي لا اسراف فيه ، ما سد الجوع وكان دون الشبع .

وذكر في الخبر : ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام ، يا داود ؛ اسمع ما اقول والحق أقول : اذا قل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وذهبت الهيبة من العلماء ، وصارت في السفهاء فاطلب الهرب .

وذكر انه قيل لعمر : ان فلانا بنى بالآجر فقال عمر : من بنى بالآجر فقد تشبه بفرعون لأن فرعون أول من بنى بالآجر .

وقال النبي ﷺ : «سيجيء في أخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين أمثال الذئاب الضواري ليس في قلوبهم شيء من الرحمة ، سفاكون للدماء لا يزعون عن قبيح ان تابعتهم واربوك ، وان تواريت عنهم اغتابوك ، وان حدثوك كذبوك ، وان ائتمنتهم خانوك ، صبيهم غارم ، وشابهم شاطر ، وشيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، الاعتزاز بهم ذل ، وطلب ما في ايديهم فقر ، الحليم منهم غاو ، والآمر بالمعروف فيهم متهم ، والمؤمن فيهم مستضعف ، والفاسق فيهم مشرف والسنة فيهم بدعة ، والبدعة فيهم سنة ، فعند ذلك يسلط الله تعالى عليهم شرارهم فيدعون خيارهم . فلا يستجاب لهم» .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «خير الدين النصيحة» فاعلم ان من

نصحك فقد احبك ، ومن داهنك فقد غشك ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك .

كما ذكر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : لا خير في قوم لا يحبون الناصحين ، ولا خير في قوم ليسوا بالناصحين .

فمن لزم منهاج ذوي الألباب ، برعاية حدود الله واقامة الشريعة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه السلام وما اجتمعت عليه الأئمة المهتدون ـ رضي الله عنهم ـ فقد استمسك بالعروة الوثقى وبلغ إلى الدرجة العليا ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا الله عباده المؤمنين إليه بقوله تعالى : **﴿وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[1]، قيل : والله اعلم ان السبل هي الأهواء الضالة ، والأهواء الضالة ما خالف سبيل المؤمنين قال الله تعالى : **﴿ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾**[2] أعاذنا الله منها وجميع المسلمين وما التوفيق إلا بالله .

---

١ - الآية ١٥٣ من سورة الأنعام

٢ - الآية ١١٥ من سورة النساء

الباب الثالث والعشرون

في الظلم

اعلم ـ وفقك الله ـ أن الظلم من المهلكات في الدين ، وقد عظم الله أمره ونسب أكبر الكبائر إليه فقال ـ تعالى ـ : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[1] .

ووعد الظالمين على الظلم أشد العذاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾[2] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾[3] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما﴾[4] وقال ـ سبحانه ـ : ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[5] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ [6] .

---

١ ـ الآية ١٣ من سورة لقمان
٢ ـ الآية ١٧ من سورة الحشر
٣ ـ الآية ٢٩ من سورة الكهف
٤ ـ الآية ٣١ من سورة الانسان
٥ ـ الآية ١٠ من سورة الأحقاف
٦ ـ الآيات ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من سورة الشورى

وقال عز من قائل : ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾[1] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾[2] .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾[3] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[4] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[5] .

الأخبـــار

قال رسول الله ﷺ : "إن الله يملي للظالم ـ أي يتركه ـ فإذا أخذه لم يفلته" ثم قرأ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[6] "ألا وإن السماء تبكي من رجل أصح الله جسمه وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا نصيبا فكان للناس ظلوما"[7].

---

١ ـ الآية ٤٢ من سورة ابراهيم
٢ ـ الآية ٤٥ من سورة الشورى
٣ ـ الآية ٢٤ من سورة الزمر
٤ ـ الآية ٥٢ من سورة النمل
٥ ـ الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الزمر
٦ ـ الآية ١٠٢ من سورة هود
٧ ـ رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى

وقال ﷺ : «إذا كان يوم القيامة يجيء الظالم والمظلوم حتى يقفا بين يديّ الله فيقول المظلوم : يا رب خذ لي بحقي من هذا فيقول الله ـ تعالى ـ : اعطه حقه . فيقول : يا رب قد ذهبت الدنيا فلا حمراء ولا بيضاء . فيقول الله ـ عز وجل ـ له : لو قدرت على ماله أكنت تعطيه إياه ؟ فيقول : نعم يا رب . فيقول الله : انطلقوا به فأروه مال صاحبه . فينطلقوا به إلى شفير جهنم فيمثل له ذلك المـال ثم يقال له : انطلق فاحمله فرده على صاحبه فأدخله جهنم فيحمله فيرتفع حتى يظن أنه قد خرج فتزل قدماه فيهوي في جهنم» .

وقال ﷺ : «من أحسـن ينتظر الثواب ، ومن أساء ينتظر العقوبة ، ومن اعتز بغير حق أذله الله بحق ومن ظلم ليستغني أفقره الله» .

وقال ﷺ : «للظالم ثلاث علامات ؛ يقهر من دونه بالغلبة ، ومن فوقه بالمعصية ، ويضاهي الظلمة» .

وقال ﷺ : «من مشى إلى ظالم ـ وهو يعلم أنه ظالم ـ يعينه فقد خرج من الاسـلام» .

وقال ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة»

وقال ﷺ : «من أحب لقاء ظالم فقد أحب أن يعصي الله» .

الآثـــار

سئل الأحنف بن قيس فقيل له : من أجهل الناس ؟ قال : الذي باع آخرته بدنياه . قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : ألا انبئكم بأجهل من هذا ؟ قالوا : بلى . قال : الذي باع آخرته بدنيا غيره . وقال ابن مسعود ـ رحمه

الله ـ : من أعان ظالما على مظلمة أو لقنه حجة فدحض بها حق امرىء مسلم فقد باء بغضب من الله وعليه وزرها .

وفي الخبر ؛ ان الله ـ تعالى ـ قال لموسى ـ عليه السلام ـ : (قل للظلمة لا يذكروني فإن ذكري عليهم وبال) . قال : يا رب ؛ ومن الظلمة ؟ قال : (الذين يظلمون الناس في أموالهم يا موسى ، بنفسي حلفت أن أبواب السماء مغلقة دون من أكل الحرام ، واني لأمر ملائكتي ينادون في حوائجهم إذا غضبت عليهم) . قال موسى : يا رب ؛ تعطيه وهو مجرم ؟ قال ـ تعالى ـ : (أبغض دعوته فأسارع إلى حوائجه كيلا يدعوني) .

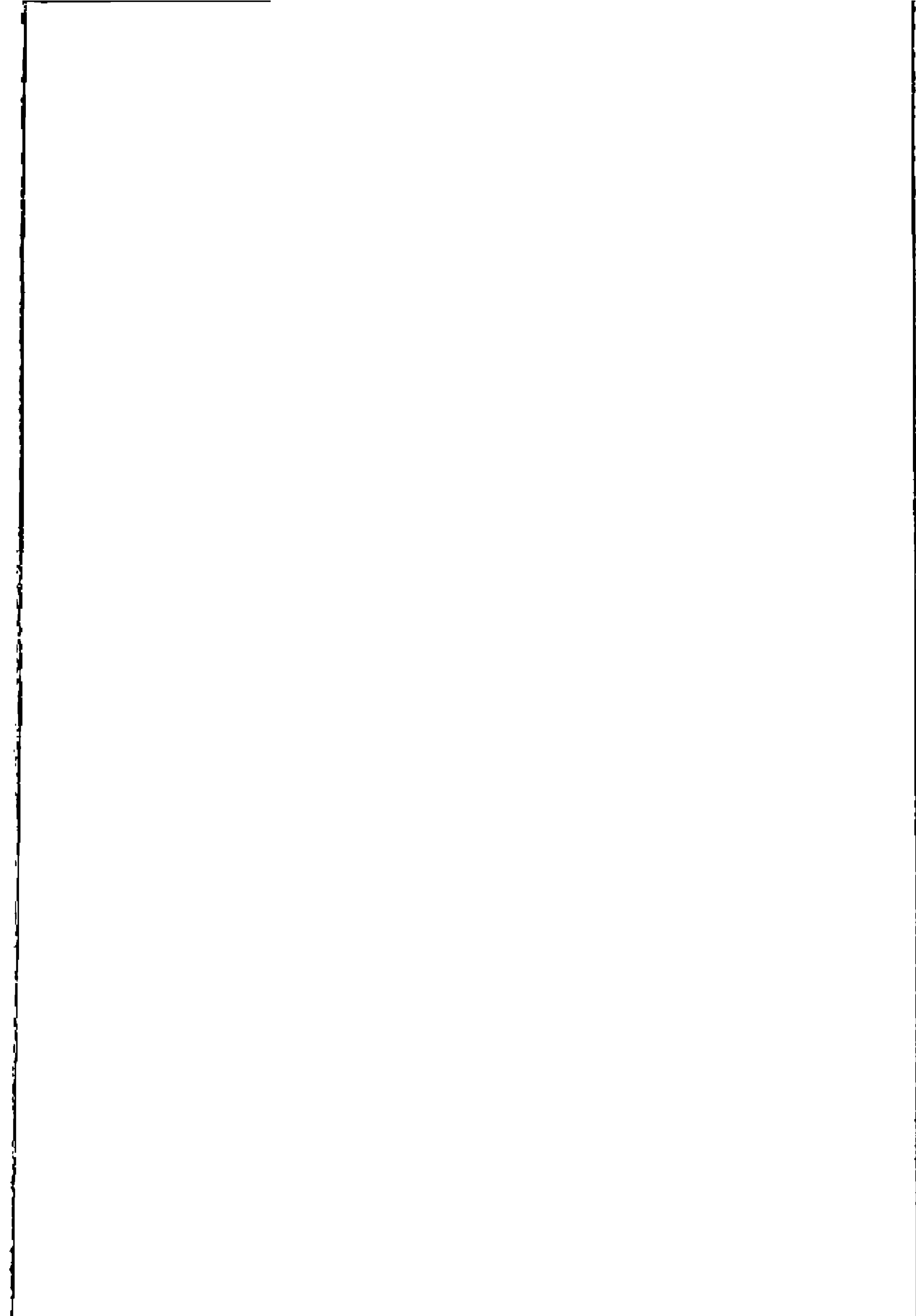
وفي المناجاة : ان الله ـ تعالى ـ قال لموسى : (ان أردت أن أخلصك وأنجيك من أهوال يوم القيامة) قال : نعم ؛ قال : (تخلص من مظالم الناس) .

وحكي أن عبدالملك بن مروان خطب يوما بالكوفة ، فقام إليه رجل من آل سوحان فقال : مهلا مهلا يا ابن مروان ، فإنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ، وان قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممن سمعتموها فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا ، أو ما تعلمون أن فينا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات وأحكم بوجوه العظات ، فإن كانت الامامة تستحق بذلك فخلوا سبيلها واطلقوا عقالها يتدرها أهلها الذين قتلتموهم في البلاد وشردتموهم في كل واد ، أما والله لئن بقيت في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة ووجوب المحنة فإن لكل قائم منكم يوما لا يعدوه ، وكتابا بعده يتلوه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

واعلم أن مظالم العباد سيوف تقطع يمين الظالم عن تناول الكتاب في

المآب إلا من ردها وتاب .

والمظالم هَدٌّ لحصون الايمان في الدنيا ، وان الظالم أبقى للمظلوم ما يغني وأفنى من دينه ما يبقى وهي مكاو يكوي بها الظالم نفسه ، فإياك والمظالم وأن تكون عونا للظالم ، فالعون على كل خبيث شريك ، ولا تصحب الظالم ، ولا تؤاكله ولا تشاربه ، ولا تجالسه ، ولا تبتسم في وجهه ولا تنل منه شيئا ، ولا تعوده إذا مرض ، ولا تشيعه إذا سافر ، واجتنبه ما استطعت اجتنابك الحيات والأفاعي .



الباب الرابع والعشرون

في حق الجار والصاحب والوالد والولد والمماليك

قال النبي ﷺ : «ان خير الأصحاب عند الله ـ عز وجل ـ خيرهم لصاحبه وخير الجيران خيرهم لجاره»[1] .

أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه فأيما رجل أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس جاره ذلك بمؤمن»[2] قالوا: يا رسول الله ؛ وما حق الجار ؟ قال : «ان دعاك أجبته ، وإن أصابته فاقة عدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عدته ، وإن استعانك أعنته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن توفي شهدت جنازته ، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فاهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ بها ولده» ثم قال : «الجيران ثلاثة ؛ فمنهم له ثلاثة حقوق ومنهم له حقان ومنهم له حق واحد ؛ فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق[3] فالجار المسلم ذو الرحم له حق الاسلام وحق الجوار وحق الرحم ، وأما صاحب الحقين فالجار المسلم له حق الاسلام وحق الجوار ، وأما صاحب الحق الواحد ؛ فالجار المشرك له حق الجوار وإن كان مشركا» .

---

١ ـ رواه الترمذي عن عبدالله بن عمر وقال حديث حسن

٢ ـ رواه أبو هريرة ومتفق عليه وفيه رواية أخرى لمسلم

بوائق : جمع بائقة وهي الشرور

٣ ـ في الأصل (الصاحب) والصحيح ما قد أثبت

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «من آذى جاره فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ـ عز وجل ـ» .

وقد قيل : أهل الذمة والمصلون سواء في الجوار ولا ينبغي للجار أن يؤذي جاره .

وقال ﷺ : «حرمة الجار على جاره كحرمة أمه» .

وقال ﷺ : «الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق»[1] .

وقيل : قالت عائشة : يا رسول الله ﷺ ؛ إن لي جارين فأيهما أهدي إليه ؟ قال ﷺ : «أقربهما منك بابا» .

جابر الأنصاري أن نبي الله ﷺ قال : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه كالولد من والده»[2] .

وقيل : غزا رسول الله ﷺ فلما بلغ المنزل نادى : «ألا من كان مؤذيا لجاره فلا يصحبنا» فقال رجل : ما آذيت جارا لي قط غير اني كنت أبول في جداره . فرده ﷺ وقال : «لا تصحبنا» ونهى أن يصدق الرجل ابنه السفيه وامرأته على جاره .

أبو هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه جارا فقال : «اصبر» ثلاث مرات ، ثم في الرابعة : «اطرح متاعك في الطريق» قال : ففعل . فجعل الناس يمرون عليه ويقولون : مالك ؟ فيقول : آذاه جاره . فجعلوا يقولون : لعنه الله . فجاء جاره فقال : رد متاعك لا والله لا أؤ ذيك أبدا .

ويقال : ركوب البحر خير من مجاورة جار السوء .

---

١ ـ رواه الترمذي وابن ماجة عن ابن عمر

٢ ـ رواه ابن عمر وعائشة متفق عليه

وفي الحديث : «ان من صبر على أذى جاره ورثه الله داره» .

وقال رجل لجابر بن زيد : يا أبا الشعثاء ؛ إن لي جارا يؤذيني فقال له جابر : إنما تؤذيك نفسك ، أصلح بينك وبين الله حتى يعطف قلب جارك عليك .

وكف الأذى عن الجار واجب وإن كان مجوسيا ، وبذلك جاء الأثر . ومن استعان به جاره فيما يجوز معونته فيه لم يسعه ترك ذلك وعليه معونته واعانته في كل ما يجوز .

والجار أحق من غيره ولا يعينه على الاثم في شيء من الأمور .

وقيل : يجيء الرجل يوم القيامة متعلقا بجاره فيقول : يا رب هذا جاري خانني . فيقول : وعزتك وجلالك ما خنته في أهل ولا مال . فيقول : يا رب صدق ولكن رآني في معصية فلم ينهني . والجار يسأل عن حق جاره .

وبلغنا عن النبي ﷺ : «ما من امرىء بات وجاره طاوٍ وعلم به ولم يطعمه إلا كان بريئا مني وأنا بريء منه» .

الوضاح بن عقبة : إذا اشتريت فاكهة فاسترها من جارك والا فأنله وإذا طبخت قدرا فاخف رائحتها عن جارك والا فأنله منها .

وقد ذكر لنا أن نبي الله يعقوب ـ عليه السلام ـ قال : إلهي أذهبت ولدي وبصري فارحمني فأوحى الله إليه : (وعزتي وجلالي إني راد ولدك وبصرك عليك ولكن بلوتك بهذه البلية لأنك شويت جملا فوجد جارك رائحته فلم تطعمه) . قيل : فكان ينادي مناد : ألا من كان مفطرا فليتغد مع آل يعقوب . فإذا كان المساء نادى مناديه : ألا من كان صائما فليفطر مع آل يعقوب . فرد الله ولده وبصره كما وعده الله وأصدق وعدا وأوفى عهدا والحمد لله رب العالمين .

ومن حق الجار على جاره أن يستر عورته ويحتمل زلته ويظهر معرفته ويواسيه ولا يرفع عليه صوته ولا يبحث عن عورته وان اطلع على عيب نصح له فيه ، وأصلح له من شأنه ما لم يدخل عليه اثم ولا يخاف عيبا ، وان كان فوقه لم يحسده ، وإن كان دونه لم يحقره ، وعظم من حق جاره ما عظم عليه وحفظ فيه ما أوصاه الله به .

وحق الوالد على ولده ما لا يحصى . ومن ذلك أن يبره حيا وميتا . فأما بره حيا فلزوم طاعته واجابة دعوته ولا يعصيه في معروف ولين الجانب له ويخفض له جناح الذل من الرحمة ، وإن كان وليا من المسلمين تولاه وترحم عليه ودعا له ، وإن كان غنيا تعاهده وسلم عليه ، ويقوم في حاجته ولا يخرج من رأيه ، وإن كان فقيرا أعانه بنفسه ويواسيه بماله ، والأثرة له على نفسه ، والترحم عليه ميتا ، والاستغفار له ، ولا يشتم أعراض الناس فيشتموا عرضه .

وحق الوالدة على ولدها فهي أولى بالبر واللطف لأنها حملته في بطنها وغذته بلبنها وربته في حجرها وأولته الخير إذ كان لا يطيق لنفسه دفعا ولا حيلة ولا نفعا وفي الحديث : «إذا كان معك درهم فأطعمه أمك وإن كان معك آخر فأطعمه أباك والثالث عيالك» .

ويقال : للوالد على الولد عشرة حقوق ؛ أحدها أنه إذا احتاج إلى الطعام أطعمه ، والثاني إذا احتاج إلى الكسوة كساه إن قدر عليه وهكذا .

روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾ قال : «نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص» . قال : «مصاحبة المعروف أن يطعمهما إذا جاعا ويكسوهما إذا عريا» .

والثالث : إذا احتاج إلى خدمته خدمه .

والرابع : إذا دعاه أجابه وحضره .

والخامس : إذا أمره بأمر أطاعه ما لم يأمره بمعصية .

والسادس : أن يتكلم معه باللين ولا يتكلم معه بالكلام الغليظ .

والسابع : أن لا يدعوه باسمه .

والثامن : أن لا يمشي خلفه .

والتاسع : أن يرضى له ما يرضاه لنفسه .

والعاشر : أن يدعو له بالمغفرة كما دعا لنفسه .

وينبغي للولد أن لا يتكلم إذا شهد والداه إلا بأمرهما ولا يمشي بين أيديهما ولا عن يمينهما ولا عن يسارهما ولكن يمشي خلفهما كما يمشي العبد خلف مولاه .

وذكر أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ إن أمي خرفت[1] عندي وأنا أطعمها بيدي وأوضيها وأحملها على عاتقي هل جازيتها[2] ؟ قال : «لا ؛ ولا واحدا من مائة ولكنك قد أحسنت والله يثيبك[3] على القليل كثيرا» .

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : ترك الدعاء للوالدين يضيق العيش على الولد .

وعن النبي ﷺ قال : «لا تقطع من كان يصل أباك فتطفيء بذلك نورك فإن ودك ود أبيك» وذكر أن رجلا من بني سلمة جاء إلى النبي ﷺ فقال له : إن أبويّ قد ماتا ، فهل بقي من برهما شيء ؟ قال : «الاستغفار لهما وانفاذ

---

١ ـ معنى خرفت ؛ أي ضعف عقلها لكبر سنها .

٢ ـ في الأصل (الى) والصحيح ما قد أثبت

٣ ـ في الأصل (ليبك)

عهدهما واكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا تصل إلا بهما»[1] .

وحق الولد على والده أن يحسن تربيته وأدبه ويعلمه القرآن والحساب والصلاة والفرائض وكل ما يحتاج إليه .

وقيل إن النبي ﷺ قال : «من حق الولد على الوالد ثلاثة أشياء ؛ أن يحسن اسمه إذا ولد ويعلمه الكتاب إذا عقل ويزوجه إذا أدرك»

وعن عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ أن رجلا جاء إليه بابنه فقال : ان ابني هذا يعقني فقال عمر للابن : أما تخاف الله في عقوق والدك وان من حق الوالد كذا ومن حق الولد كذا . فقال الابن : يا أمير المؤمنين ؛ أما للولد حق على والده ؟ قال : نعم ؛ حقه أن يستنخب أمه ـ يعني لا يتزوج امرأة دنية لكيلا يكون الابن يعير بها ـ . قال : ويحسن اسمه ويعلمه كتاب الله ـ تعالى ـ . قال : فوالله ما استنخب أمي ، ما هي إلا سندية اشتراها بأربعمائة درهم ، ولا حسن اسمي ، سماني جعلا ، ولا علمني من كتاب الله آية واحدة . فالتفت عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى الأب قال : إنك تقول إن ابني عقني وقد عققته قبل أن يعقك فمرَّ عنّي .

ويحكى عن أبي حفص الاسكندري بسمرقند وكان من علمائها أنه أتاه رجل فقال : إن ابني ضربني . فقال : سبحان الله ! الابن يضرب أباه ؟ قال : نعم ؛ ضربني وأوجعني فقال له : هل علمته العلم والأدب ؟ قال : لا . قال : هل علمته القرآن ؟ قال : لا . قال : فأي عمل يعمل ؟ قال : الزراعة عمله . قال : علمت لأي سبب ضربك فلعله حين أصبح وتوجه إلى الزرع وهو راكب على الحمار والثيران بين يديه والكلب من خلفه وهو لا يحسن القرآن فتعرضت له في ذلك الوقت فظن انك بقرة فضربك ، فاحمد الله حيث لم يكسر رأسك .

---

١ ـ في الأصل (لهما الاستغفار) والصحيح ما أثبت

وعن ثابت البناني قال : رؤي رجل يضرب أباه في موضع فقيل له : ما هذا ؟ فقال الأب : خلوا عنه فأنا كنت أضرب أبي في هذا الموضع فابتليت بإبني فضربني في هذا الموضع .

وقال بعض الحكماء : من لم يبر والديه لم ير السرور عند ولده . ومن لم يستشر في الأمور لم يصل إلى حاجته ، ومن لم يدار مع أهله أذهب عنه لذة عيشه .

وقال الفضيل[1] بن عياض : تمام المروءة لمن بر والديه ووصل رحمه وأكرم إخوانه وحسن خلقه مع ولده وأهله ، وأحرز دينه وصلح ماله وأنفق فضله وحفظ لسانه ولزم بيته . يعني يكون مقبلا على عمله ولا يجلس مع أهل الفضول .

وقال ﷺ : «صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منساة في الأجل» .

وفي رواية : «أول ما يذهب من العدل صلة الرحم وقطعهم من غير جرم» .

وروي عن النبي ﷺ قال : «أربع بالمرء سعادته[2] : أن تكون زوجته موافقة وأن يكون اخوانه صالحين وأن يكون أولاده أبرارا وأن يكون رزقه في بلده» .

وعن النبي ﷺ : «لا تدعُ على ولدك بالموت فإنه يورث الفقر» .

وقال : «رحم الله والدين أعانا ولدهما على برهما»[3] .

---

١ ـ وردت في الأصل (فضيل) والصحيح ما أثبت

٢ ـ وردت في الأصل (سعادة) والصحيح ما أثبت

٣ ـ وردت في الأصل (رحم الله والدين اعانها على ولدها على برها) والصحيح ما أثبت

وفي رواية : «رحم الله من أعان ولده على بره» يعني الاحسان إليه حتى يتبع .

ويقال : بروا آباءكم تبركم أبناؤكم .

وعن المقداد بن الأسود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم الأقرب فالأقرب» .

وحق السيد على عبده ؛ أن يناصحه في صنعته ، ويحفظ ماله ما ائتمنه ، ويحسن خدمته ، ولا يعصيه في جميع أحواله ، إلا أن يأمره بمعصية فلا يطيعه على ذلك .

وحق العبد على سيده ؛ أن يشبع بطنه ، ويكسو جثته ، ولا يستعمله إلا بما يقدر عليه ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ويحفظه فإنه أمانة في يده ، ونعمة من نعم الله كف بها عناءه ، وجعلها وقاية له ، ولا يحمله على ما لا يحل له . وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾[1] .

وذلك مما أدبهم الله وأمرهم أن يعلموا أهلهم وأولادهم وأزواجهم وخدمهم وعبيدهم ومن هو من أهلهم حيث يبلغ طَوْلَهم ويحذرهم الحرام وارتكاب[2] الآثام ويأمرهم بطاعة ذي الجلال والاكرام .

وقال النبي ﷺ : «للمملوك ثلاث خصال ؛ لا يعجله عن صلاته ، ولا يقيمه عن طعامه ، ويبيعه إذا استباعه» .

ويقال : المملوك أخوك من أمك وأبيك ابتليت به وابتلي بك فله أجران وعليك الحساب .

---

١ ـ الآية ٦ من سورة التحريم

٢ ـ في الأصل (وارتكبوا) والصحيح ما أثبت

الباب الخامس والعشرون

في أكل الحرام

اعلم أن الله ـ تعالى ـ لم يرض لأنبيائه ـ عليهم السلام ـ المعصية والحرام والظلم ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾[1] ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾[2] ثم أجملها فقال : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾[3] .

الأخبـــار

قال رسول الله ﷺ : «إن لله ملكا ينادي من أكل حراما لم يقبل الله ـ تعالى ـ منه صرفا ولا عدلا»[4] الصرف : النافلة والعدل : الفريضة .

وقال ﷺ : «من علم أن في بيته من الحرام ولو قيمة شعيرة لم يقبل الله ـ تعالى ـ منه صرفا ولا عدلا حتى يخرج ذلك الحرام من بيته فإن مات على ذلك فأنا منه بريء»[5]

---

١ ـ الآية ٥١ من سورة المؤمنون
٢ ـ الآية ٢٦٧ من سورة البقرة
٣ ـ الآية ١٦٨ من سورة البقرة
٤ ـ رواه مسلم عن أنس
٥ ـ رواه ابن ماجه

وقال ﷺ : «اخرجوا الأمانة من بيوتكم وردوها إلى أربابها فإن لم تفعلوا فلن تنفعكم الأعمال شيئا ، ولا ينفع قول لا إله إلا الله مع الحرام في البيت» .

وقال ﷺ : «من أكل طيبا وعمل صالحا وأمن الناس بوائقه دخل الجنة» .

وقال ﷺ : «من اكتسب درهما من حلال وأنفقه في حلال غفر الله له كل ذنب إلا الدماء والأموال» .

وقال ﷺ : «طلب الحلال فريضة على كل مسلم» .

وقال ﷺ : «من أكل لقمة من حرام لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوما ولم يستجب له دعوة أربعين صباحا وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به» .

وقال ﷺ : «لو أن رجلا اشترى ثوبا بعشرة دراهم وكان فيه درهم حرام لم يقبل الله فيه عملا حتى يؤديها إلى أهلها أو يردها عن نفسه» وفي خبر آخر : ما دام عليه منه شيء .

وقال ﷺ : «لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبت من حرام»[1] .

وقال ﷺ : «من كسب مالا من حرام لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقا ولا حجا ولا عمرة وكان له بعدده أوزارا وما بقي منه بعد موته كان زاده إلى النار» .

وقال ﷺ : «لو أن صاحب المال الحرام استشهد في سبيل الله سبعين مرة لم تكن الشهادة له توبة وتوبة الحرام الرد» .

وقال ﷺ : «من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع

---

١ ـ رواه الطبراني عن ابن عمر

الحكمة من قلبه على لسانه ويهديه الله في الدنيا والأخرة» .

وفي المناجاة : أن الله ـ تعالى ـ قال لموسى ـ عليه السلام ـ : (يا موسى ؛ إن أردت أن تدعوني فصن بطنك عن الحرام) . وقال موسى ـ عليه السلام ـ : يا رب ؛ ما جزاء من أكل الربا ولم يتب منه ؟ قال : (يا موسى ؛ أطعمه يوم القيامة من شجرة الزقوم) .

وقال موسى ـ عليه السلام ـ : يا رب ؛ ما على من أكل الربا ؟ قال : (أخلده في النار) .

وعن جابر قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وهم سواء . قال الناسخ : وذلك على العلم عندي معهم بموجب الربا ، والربا مما لا يسعه جهله عند ارتكابه والله أعلم .

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾[1] .

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تُظلَمون﴾[2] . جعل من يتعامل في الربا في الآية مأذونا بمحاربة الله ـ تعالى ـ وفي آخره متعرضا للنار .

وقال رسول الله ﷺ : «درهم من ربا أشد على الله ـ تعالى ـ من ثلاثين زنية في الاسلام»

---

١ ـ الأيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ من سورة البقرة

٢ ـ الأيتان ٢٧٥ ، ٢٧٦ من سورة البقرة

الآثـــار

وبلغنا في الرواية أن الأرض عجت وضجت لمن سفك دما حراما واغتسل من نطفة حرام .

وبلغنا أنه ما يقطر على الأرض قطرة أثقل من نطفة حرام أو دم حرام . وقال : ما يوافي عبد يوم القيامة بذنب أعظم من شتم عرض مسلم فاجتنبوا شتم أعراض المسلمين .

وعن ابن عباس : من دخل دعوة بغير دعاء فقد دخل فاسقا وأكل حراما .

جابر بن عبدالله ، قال النبي ﷺ : «نزعت البركة من ثلاثة أشياء ؛ من الغالّ والحرام والجاني» .

وقال عبدالله بن عمر : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا أو صمتم حتى تكونوا كالآثار لم يتقبل ذلك منكم إلا بورع .

وقال بعض أهل العلم : أف للدنيا ؛ حلالها حساب وحرامها عقاب . ثم إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ويقول : يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام فإنه يستجيب له بالسلامة في الدنيا والصحة ، وأما الآخرة فلن يتقبل الله إلا من المتقين كما جاء في كتاب الله المنزل على لسان نبيه المرسل : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾[1] فالمؤمن يستجاب له بالرحمة وجزاؤه الجنة والظالم يستجاب له باللعنة وجزاؤه النار .

وعن بشير ؛ «إن الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك شبهات لا يعلمها

---

١ - الآية ١٨٦ من سورة البقرة

كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات شرى دينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه» .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء شيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هذا ؟ فقال : كنت تكهنت لانسان في الجاهلية وما احسن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه . فأدخل أبو بكر يده فتقيأ كل شيء في بطنه .

وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب شرب لبنا فأعجبه ، فقال للذي سقاه : فمن أين لك هذا اللبن ؟ فأخبره أنه من نعم الصدقة ، فأدخل عمر يده فتقيأه .

وقال يوسف بن أسباط : اذا تعبد الشاب قال ابليس ـ لعنه الله ـ : انظروا من أين مطعمه فإن كان مطعمه مطعم سوء قال : دعوه لا تشتغلوا به دعوه يجتهد أو ينتصب فقد كفاكم نفسه .

وعن حذيفة أنه نظر إلى الناس يتبادرون الصف الأول فقال : ينبغي أن يتبادروا الخبز الحلال .

وعن الفضل بن عياض قال : سئل سفيان الثوري عن فضل الصف الأول فقال : انظر كسرتك التي تأكلها وتصلي في الصف الأخير .

وعنه أيضا : انظر إلى درهمك من أين هو وصل في الصف الأخير .

وقال ابن عباس : لا تقبل صلاة رجل في جوفه حرام .

وقيل : الشبع من الحلال مثل العلة مبدأ كل شر فكيف من الحرام .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : الطاعة مخزونة في خزائن الله ـ تعالى ـ ومفتاحها الدعاء ، وأسنانه الحلال ، وإذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب ، وإذا لم ينفتح باب الخزانة كيف يوصل إلى ما فيها من الطاعة ، فاصف لقمتك ، وأطب طعمتك حتى يتبين لك مبيض خيط صالح العمل من مسود خيط الأمل من فجر الأجل ثم أقم صيام الجوارح عن حرام طعام الآثام الى ليل القيام فتفطر على فوائد موائد ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾[1] ومن لم يجتنب الحرام من الطعام أفطر بعد طول الصيام على مرارة حرارة شجرة الزقوم التي هي ﴿طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾[2] ويسمع نداء ﴿خذوه فغلوه﴾[3] إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، فياله من طعام ما أطعم ضرره وأين لمن نظر أثره يفت الفؤاد ويقطع الأكباد ويمزق الأجساد ويورث الأنكاد في المعاد واعلم أن الحرام من الطعام نار تذيب شحمة الفكر وتذهب لذة حلاوة الذكر وتحرق يانع نبات إخلاص النيات ، وحرام الطعام روح جسد المعاصي وحلاله روح جسد الطعام .

ومن الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة وفساد السيرة وهو حجاب العقل عن معقولات الحقائق وستر يستر عنه صفاء الدقائق وواصل بينه وبين مهاجرة الخلائق وقاطع بينه وبين مواصلة الخالق .

واعلم أنه لا يمنع من الحرام الا من هو مشفق على لحمه ودمه فأما دينك لحمك ودمك فاكتسب حلالا وانفقه في قصد واجلس مع من كسبه من حلال وليكن أهل مشورتك من كسبه من حلال فإن الورع ملاك الدين وقوام العبادة واستكمال أمر الآخرة فاجتنب الحرام وأهله ما استطعت ولا تؤاكلهم ولا تجالسهم ولا تأكل طعام من كسبه من حرام ولا تدلن أحدا على الحرام

---

١ ـ الآية ٢٤ من سورة الحاقة

٢ ـ الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ من سورة الدخان

٣ ـ الآية ٣٠ من سورة الحاقة

فيأخذه ولا تعينه فتكون شريكه فالعون على كل خبيث شريك .

واعلم أن البركة لا تكون مع الخيانة وأن قليلا من الحرام يتلف كثيرا من الحلال وإنك إذا خنت في درهم خانك إبليس في سبعين درهما . وقيل لرسول الله ﷺ : أيذهب الحلال يا رسول الله ؟ قال : «نعم» . قيل : والحرام ؟ قال : «هو أهله» .

فصـــل

وإياك والطمع مما في أيدي الناس فإن الطمع هلاك في الدين وفساد في القلب ، وإياك والحرص على الدنيا فإن الحرص يفسد الناس في الدنيا ويهلك في الآخرة ، وإن الحريص بدنه في تعب وقلبه في شغل ، وكن طاهر الجسد من الذنوب نقي اليدين من الظلم ، سليم القلب من الغش والمكر والخيانة ، خالي البطن من الحرام ؛ فإنه لا يدخل الجنة لحم نبت على السحت ، ولا تسد جوعك إلا من حقك ، ولا تستر عورتك إلا من الحلال . فقد بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال : «من حشا بطنه وستر عورته من حرام لم يقبل له عمل حتى يؤديه ولا دعاء له» .

فإياك والحرام أن تناله بيديك أو ترفعه إلى أحد ، وأدنى ما يكون الظالم أن ترضى عمله وان لم تصب منه شيئا ، ولا تدخل في شيء من أمر الدنيا حتى تنظر في أمر دينك فإذا علمت أنك إن دخلت سلم لك دينك فادخل وإلا فرده عن نفسك ؛ فإنه ليس لك عند الله عذر فإن الله لم يأمرك أن تضيع شيئا من أمر دينك في أمر معيشتك . يا أخي اتق الله وانظر إلى ما هو دونك في دنياك واحمد الله على ما فضلت عليه وانظر إلى ما هو فوقك في دينك واسأل الله أن يرزقك أن تكون فوقه واقتد بمن هو فوقك في أمر دينك يردك ثوابه وإن لم تعمل عمله واحمد الله على ما نلت في دنياك على من هو تحتك تكن راضيا بما قسم الله لك ،

واعلم أن الذي ينظر إلى من هو فوقه في دنياه فيقتدي به وينظر إلى من هو دونه في دينه فيقتدي به فهو من سخط الله عليه . يا أخي لا تقتد بمن يبيع دينه بدنياه وإن كان يقال هو العالم فإنه هو الجاهل لأن معصية الله جهل فهذا جاهل وليس بعالم إنما العالم الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة .

يا أخي وإن طلبت حقا هو لك واجب ليس فيه باطل وكلفوك الخصومة فانظر إن وصل حقك بسلامة دينك فخذه وإن علمت أنه يحرم عليك دينك بقبض حقك فدع حقك لسلامة دينك فإنما دينك لحمك ودمك ولو أنه طلب فك خنصرك بمال عظيم ما كنت قاطعها فإن لم يسلم لك دينك لم يسلم لك جسدك ولا تكون مخاصما فتكون ظالما ولا تكون ممارياً فتكون كاذبا .

يا أخي ؛ الله الله في دينك فإن سلم دينك سلمت [1] أخرجها معك إلى الآخرة ثم بعثت بين يدي الجبار فألقى عليك الضماء[2] فسئلتها بشربة ماء لكنت تعطيها وتفدي بها نفسك فدينك أسلم لك على كل حال فإنه ليس لك عند الله ـ عز وجل ـ عذر أن تأخذ شيئا من أمر الدنيا بذهاب دينك ، وارمها إلى أهلها فإنها كلها شغل .

يا أخي ؛ لا تدع أيامك ولياليك وساعاتك تمر عليك باطلا وقدم لنفسك من نفسك بمالك وبدنك ليوم العطش فإنك لا تروى يوم القيامة إلا برضا الرحمن ، ولا تدرك رضوانه إلا بطاعته ، وإياك والربا فإنه أخفى من دبيب الذر في الصفا في الليلة الظلماء وإن أدنى الربا كالذي يزني مع أمه والزنية مع أمه أعظم من سبعين زنية مع غيرها .

---

١ ـ فراغ وجد في الأصل

٢ ـ هكذا بالأصل والصحيح أبا الظمأ

الباب السادس والعشرون

في فضل الكسب الحلال وكراهية السؤال

واعلم أن كسب الحلال فضيلة عظيمة وانما صارت فضيلة عظيمة لاجتهاد طلبه المجتهدين ودفع الحرام بكف الورع .

وقال أبو الحسن : طلب الحلال أشد من لقاء الزحف وما زال الأنبياء والصالحون يطلبون الحلال .

وقال بعض الصالحين من المسلمين : ما أعلم الحلال اليوم إلا أن يجيء الرجل إلى الدجلة فيشرب منها الماء بكفيه والطلب واجب . فقد كان آدم ـ عليه السلام ـ حراثا ونوح نجارا وادريس خياطا وداود زرادا وابراهيم زراعا وصالح تاجرا ولقمان خياطا وموسى وشعيب ومحمد ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ رعاة .

وعن النبي ﷺ أنه قال : «من ـ لعله ـ ما أكل منكم طعاما في الدنيا خير له من أن يأكل من عمل يده فإن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من عمل يده»[1] .

ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يكسب عبد مالا من حرام فيبارك له فيه فإن تصدق به فلا يقبل منه وإن تركه خلف ظهره كان زاده إلى النار لأن الله ـ عز وجل ـ لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء

---

١ ـ رواه البخاري

بالحسنى» ـ لعله ـ بالحسن لأن الخبيث لا يمحو الخبيث .

أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه ولكن خيركم من أخذ منهن جميعا ولم يكن كلا» أو قال : عالا على الناس .

وقيل : العامل بيده أفضل من التاجر ، والتاجر أفضل من الجالس .

وقال النفوسي :

أحب فتى ماضي العزيمة حاذقا لدنيا وأخرى عاملا بالتشمر

وقال بعضهم : من لزم المسجد وليست له حرفة وهو يقبل ما يأتيه فقد ألحف في السؤال .

وقال مالك بن دينار : لأن يرد الرجل درهما حلالا خير له من أن يتصدق بمائة ألف درهم حراما .

وقال ـ عليه السلام ـ : «أفضل الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور» .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿معيشة ضنكا﴾[1] الكسب الخبيث .

وقوله : ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾[2] قال : الرزق الحلال .

وقيل : إن ابراهيم ـ عليه السلام ـ كان يحرث الأرض . قال : قرأت يوم وهو في حرثه[3] حتى ذكر شغله بحرثه عن ربه فطرح المصحفة من يده ولام نفسه . فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه : يا ابراهيم ؛ إن عمل الحلال من

---

١ - الآية ١٢٤ من سورة طه

٢ - الآية ٩٧ من سورة النحل

٣ - هكذا وردت العبارة في الأصل ولعله أراد أن ابراهيم أثناء حرثه تذكر قراءة المصحف

طاعتي .

وقيل : العبادة عشرة أجزاء فتسعة منها في طلب الحلال والجزء العاشر في الصوم والصلاة ولا يجوز ذلك الجزء إلا بالتسعة .

قال أبو سليمان الداراني : صاحب العيال أعظم أجرا لأن ركعتين منه تعدل سبعين من الأعزب والمتفرغ يجد من لذة العبادة ما لا يجد صاحب العيال لأنه في شيء لا يشغله عنه شيء .

وعنه ﷺ : «ما أنفق منفق ولا تصدق متصدق أفضل من كلام الحكمة إذا تكلم به الحكيم» .

وقال بعض المفسرين : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] أي دين عظيم .

وقال النبي ﷺ : «أبكروا في طلب الرزق فإن النجاح والبركة في المباكرة» .

وقال : من كثر عياله زيد في رزقه ومن عظمت مؤ ونته كثرت معونته .

وذكر عنه ﷺ أنه قال : «من بات متعوبا من طلب القوت من حله بات مغفورا له وأصبح ومولاه عنه راض ومن طلب الدنيا مكاثرا مفاخرا مباهيا مرائيا لقي الله ـ تعالى ـ يوم القيامة وهو عليه ساخط غضبان» .

ويقال : (في التوراة مكتوب ؛ يا ابن آدم حرك يدك أبسط لك رزقك وأطعني فيما أمرتك به ولا تعلمني بما يصلح لك فإني أدبر لك أمرك) .

وذكر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

---

١ - الآية ٤ من سورة القلم

وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾[1] .

وذكر عن لقمان أنه قال لابنه : يا بني استعن بالمـال على الفقر فإنه ما افتقر أحد إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث ؛ استخفاف الناس به ، وحفظك لما في يدك أولى من طلب ما في يد غيرك ، وخيار الناس الذين لم يدعوا الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا وأفضل ما أكل العبد من كسبه وان أتاه من كسبه فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم الشيطان إذا أبطأ عليكم شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال بالمعصية .

ومن عرف من أين يأكل وماذا يأكل كتب عند الله صديقا . وما تزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال .

وذكر عن عمر أنه كان يقول : يا معاشر الفقراء ؛ اتجروا ولا تكونوا عيالا على الناس .

وذكر عن بعض الحكماء أنه قال : الأسواق موائد الله في أرضه فمن نزل فيها نال منها ، ومن سعى على عياله ليكفيهم عن الناس فهو في سبيل الله ، ومن كان في حوائج أهله ليكفيهم عن الناس فهو في سبيل الله .

وقال عمر : مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس .

وقال بعض الحكماء : من وجد كفاية عن الأسباب فالله أغناه ، والا فلا يجوز لأحد يقعد عن الاكتساب اتكالا على الناس وهو قادر على الاكتساب .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله كان يقول : «إن الله يحب الحليم

---

[1] - الآية ٢٠ من سورة المزمل

الحيي الضعيف ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف» .

من طريق ابن عمر أن النبي ﷺ قال : «لا تحل المسألة إلا من فقر مدقع أو غرم مفظع أو دم موجع» .

ويروى عنه ﷺ أنه قال : «من سأل عن ظهر غنى جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه» .

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال : «من سأل الناس وعنده وُقْيَة فقد سأل الحافا» .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «المسألة في غير حق الله كالشين في الوجه وهي نار فإن أعطي قليلا فقليل وإن أعطي كثيرا فكثير» .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لا تصلح المسألة إلا لثلاثة : رجل حمل دينار في صلاح قومه حتى يؤديه لا يزاد عليه ، ورجل أصابته جائحة في ماله فصار عليه الفضل فيسأل حتى يؤدي ، ورجل شهد ذو الحجى من قومه أنه دخل عليه وعلى أهل بيته فقر فيعطى حتى يجبر هو وعياله» .

وعنه ﷺ أنه قال : «اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه» .

وقال بعض الحكماء : الحاجات إلى الأحداث أسهل منها إلى المشايخ .

وقيل : لا تطلب حاجة إلى أعمى ولا في ظلمة فإن الحياء في العينين .

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال : طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة إن أعطاه حمد غير الذي أعطاه ، وإن منعه ذم الذي منعه .

أبو سعيد الخدري : أعوزنا مرة أمر وأهلكنا جهد شديد فقال أهلي : لو أتيت النبي ﷺ فسألته . فانطلقت إليه فقال : أول شيء واجهني به أن قال : «من استعف أعفه الله ومن استغنى أغناه ومن سألنا لم ندخر عنه شيئا

وجدناه» .

أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ليأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا آتاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» .

الباب السابع والعشرون
في كراهية جمع المال
والحجة على من احتج بمال الصحابة

اعلم أيها الانسان الراغب في الدنيا أن أعظم آفة دخلت على العباد من الجمع وحب المال وهي البلية الكبرى كما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «لو كان لابن آدم واديان من ذهب أو فضة لابتغى لهما واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» ثم قال لأصحابه : «سيأتي من بعدكم قوم يحبون المال ويجمعونه مخافة الفقر فأولئك فاجتنبوا» وحب المال والعلو والشرف ينبت في القلب النفاق كما ينبت الماء البقل .

وذكر في الخبر أن الله أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ : (يا موسى ؛ لا تركنن إلى حب الدنيا والجمع لها فلن تأتيني بكبيرة هي أشد عليك منها وأصل كل فتنة وبلاء يدخل على الانسان من حب التعظيم والعلو والشرف والثناء والرفعة وحب المال حتى يتقلبوا في فنون الحرام والشبهات والآثام ، واستهانوا بكثير من أمر الله ونهيه ، وبارزوا الله بالجرائم العظام وأصروا على الكبائر والآثام وضيعوا من الصلاة والزكاة والصيام وأتوا على أنفسهم وما يشعرون) .

وقد جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه حذر قومه من فتنة الدنيا ونهاهم عن حبها والجمع لها فقال لهم : «إني ما أخاف عليكم الفقر ولكني أخاف عليكم الغنى فتبسط لكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا كما تنافسوا فتهلكوا كما هلكوا» .

وذكر عن بعض الحكماء أنه قال : من ازداد بالله علما وازداد للدنيا حبا ازداد من الله بعدا ويؤيد ذلك قصة بلعام لما مال إلى الدنيا بعد علمه بالله سلبه الله علمه فطرده عن بابه وأنزله منزلة الكلب ، فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[1] .

وذكر في الخبر أن الله ـ تعالى ـ أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ : (يا موسى ؛ لا تستشر في أمرك عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك بسكره عن طريق الآخرة فأولئك قطاع الطريق ، ألا فراقبوا الله عباد الله وانتبهوا من غفلتكم واذكروا ما يراد بكم ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الانس بالحجج الداحضة عند الله حيث يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ويقولون : نحن نجمع الأموال كما جمعها أصحاب رسول الله ﷺ وقد كانت لهم الأموال ، فزين لهم الشيطان ذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دعاهم الشيطان وهم لا يشعرون ويحتجون بعبدالرحمن بن عوف حين جمع المال وليس الأمر كما زعموا ، بل ذكر الصحابة هاهنا مكيدة من الشيطان ليضل به الناس ويخرجهم عن الطريق وهم لا يشعرون .

وبعد ؛ فاعلم أيها الانسان الراغب في الدنيا أنك متى زعمت أن أصحاب رسول الله ﷺ جمعوا المال للتكاثر والعلو والتعظيم والثناء وخوف من الفقر فقد اغتبت السادة والقادة وأخيار الأمة ونسبتهم إلى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال المحض أفضل من تركه فلقد أزريت بالنبي ﷺ وبجميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ونسبتهم إلى الجهل حين لم يجمعوا المال كما جمعته ، وزعمت أنك أعلم منهم بمعرفة فضلك ، وزعمت أن رسول الله ﷺ لم ينصح لأمته حين نهاهم عن جمع المال فلقد كذبت أيها المفتون المغرور .

ولقد كان النبي ﷺ لأمته ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رحيما ، ومتى

---

١ ـ الآية ١٧٦ من سورة الأعراف

زعمت أيها الانسان المفتون المغرور أن جمع المال الحلال المحض أفضل من تركه فلقد زعمت أن الله لم يعلم الفضل والخير الذي فيه فلذلك نهاهم عن جمعه وزعمت أنك أعلم بمكان الفضل فيه من الله ـ تعالى ـ فلذلك جمعته أنت ورغبت فيه وفي الاستكثار منه . فما أجهلك أيها المفتون المغرور .

ولقد أوعد الله ـ تعالى ـ على المال بالعذاب والخزي والنكال فقال الله ـ تعالى ـ : **﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى﴾**[1] .

وقال ـ تعالى ـ : **﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة﴾**[2] .

وقال ـ تعالى ـ : **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾**[3] .

وبعد هذه الجملة فقد روي في الخبر عن عبدالرحمن بن عوف أنه يود يوم القيامة أنه لم يؤت من الدنيا أكثر من القوت ليومه بدليل ما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من أحد من الناس غني ولا فقير إلا يود يوم القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوت»[4] .

وذكر في الخبر عن عبدالرحمن بن عوف أنه قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة لقدومها وقالت عائشة : ما هذا الضجيج الذي أسمع ؟ فقيل لها : عير قدمت لعبدالرحمن بن عوف . فقالت : صدق الله وصدق رسوله فبلغ قولها لعبد الرحمن بن عوف فأتى اليها فقال لها : يا أم المؤمنين ؛ ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقالت : سمعته يقول : «رأيت الجنة ونعيمها فرأيت فقراء

---

١ ـ الآيات من ١٥ ـ ١٨ من سورة المعارج

٢ ـ الآيات ١ ـ ٤ من سورة الهمزة

٣ ـ الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة «المؤمنون»

٤ ـ هكذا في الأصل ولعله يريد قوت يومه كما جاء في حديث آخر

المسلمين يدخلون الجنة سعيا ولم أر أحدا من الأغنياء يدخل معهم إلا عبدالرحمن بن عوف رأيته يحبو في آثارهم حبوا» فقال عبدالرحمن بن عوف : أشهد الله ومن حضر أن العير وما عليها في سبيل الله لعلي أدخلها معهم سعيا .

وذكر عن النبي ﷺ أنه قال لعبدالرحمن بن عوف : «إما أنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا» . فهذا عبدالرحمن بن عوف على فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله - تعالى - وصحبته لرسول الله ﷺ وبشراه له بالجنة يوقف في عرصات يوم القيامة وأهوالها بسبب مال جمعه من حلال محض للتعفف ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا وبذل الأموال في سبيل الله ، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء والمساكين وصار يحبو في آثارهم ، فما ظنك أيها المفتون المغرور بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا فالعجب كل العجب لكل مفتون يسرع في تخاليط السحت والسخط ويتكالب على الأوساخ ويتقمص في المكاسب من حيث ما أسرعت ومن حيث ما كانت ولا يبالي حلالا كانت أو حراما وإنما همته الكسب وجمع المال للتكاثر والعلو والزينة والفخر ، ويتقلب في فتن الدنيا ، ويجمعه خوفا من الفقر ، ويحتج بالحجج الداحضة ، ويقول إن كنت جمعت المال فقد جمعته الصحابة ، ونحن والله بعيدو الشبه بالقوم فهذا من قياس إبليس ، فلقد روي أنه كان لبعض الصحابة أموال اكتسبوها من حلال محض للتعفف ، والبذل في سبيل الله ، ولصنائع المعروف للفقراء والمساكين ، وأنفقوا منها قصدا ، ولم يمنعوا منها حقا وجب لله عليهم فيها ، ولم يبخلوا بها ، ولكنهم تصدقوا بأكثرها ، وتصدق بعضهم بجميعها ، وكانوا في الشدة يؤثرون على أنفسهم ، وكانوا إذا أقبلت عليهم الدنيا وسلك بهم سبيل الرخاء يحزنون ويقولون : إنا قد أذنبنا ذنبا وقد عجلت علينا العقوبة ، وإنما هذا الرخاء هو الاستدراج لهلاكنا ، وكانوا من أجل ذلك مشفقين وجلين خائفين على أنفسهم وإذا أقبل عليهم الفقر والغلاء والشدة والبلاء فرحوا واستبشروا

ويقولون : مرحبا بشعار الصالحين ونحن على غير هذه المنزلة . نحن نبغض الفقر ونأنف من المسكنة وذلك من شعار الصالحين وفخر المرسلين ونحن نجمع المال خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله وقلة الثقة بضمانه وكفى بذلك إثما ونحن نجمعه للتنعم في الدنيا وزينتها وشهواتها وقد ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليهم لحوم أجسامهم وابغض الأجسام إلى الله - تعالى - الجسم الناعم الكثير اللحم الشمين وما ذلك إلا من كثرة أكل الشهوات واللذات» .

وذكر في الخبر أنه يجيء يوم القيامة قوم إلى الحساب فيطلبون حسناتهم التي عملوها في الدنيا في كتبهم حتى يقرأها فيقال لهم : ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ [1] .

وقال - تعالى - : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [2] .

وقال - تعالى - : ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [3] .

فيالها حسرة عظمت فجائعها ونحن نجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا والرفعة على الناس .

ولقد ذكر في الخبر أن من طلب الدنيا ليكاثر بها أو ليفاخر بها أو يباهي بها الناس وأصابها وهي حلال محض لقي الله - تعالى - يوم القيامة وهو عليه ساخط غضبان ، فهذا حال من طلب الدنيا حلالا محضا للتكاثر ، فكيف بمن يطلبها من الشبهات والحرام ويجمعها في المآثم وظلم الأرامل والضعفاء والأيتام ونحن أكثر هما وغما إذا فاتنا من الدنيا شيء ولم ننل منها فوق ما يكفينا ونتأسف على كل ما فاتنا من عرض الدنيا وحطامها وقد ذكر عن النبي ﷺ أنه

---

١ - الآية ٢٠ من سورة الأحقاف .

٢ - الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم

٣ - الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

قال : «من تأسف على ما فاته من الدنيا وحطامها قرب من النار مسيرة سنة ومن أحب الدنيا وسرته نزع خوف الآخرة من قلبه» .

وبعد هذه الجملة فاعلم أن الحلال في دهرنا عسر منذ زمان ولقد ذكر لنا عن بعض الصحابة أنه قال : كنا نحتاط على أنفسنا في جمع المال فندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام .

وذكر عن بعض الناس انه قال : لأن تدع درهما واحدا مخافة الا يكون حلالا خير لك من ان تتصدق بألف دينار من شبهاتٍ لا تعرف أتحل لك ام لا ، فإن كنت أيها الانسان غافلا فاستيقظ ، وان كنت نائما فانتبه ، وان كنت تزعم أن التقوى والخوف من الله فلا تتعرض للحساب .

ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه قال : ما سرني ان اكسب كل يوم الف دينار من حلال وأنفقها كلها وأتصدق بها في سبيل الله ولم يشغلني كسبها عن صلاة الجماعة ولا عن ذكر الله فقيل له : ولم ذلك وقد جاء في الخبر ان الصدقة تطفىء غضب الرب سبحانه وتعالى وفيها فضل عظيم وأجر مضاعف كثير فقال لأني غني أن يقال لي يوم القيامة من أين اكتسبت وفي أي شيء انفقت فهؤلاء المتقون كانوا في اول الاسلام وكان الحلال لديهم موجودا حين أحل لهم الطيبات والغنائم قد تركوا جمع المال الحلال خوفا من المحاسبة مخافة ان لا يقوم خير المال بشره فكيف بنا ونحن من بقايا الأمم والحلال في زماننا معدوم مفقود منذ زمان لأن الأموال قد تغيرت بالفتن والمظالم وصار الحلال متشابها والمتشابه حراما نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه .

ثم نحن تزعم أن كسبنا هو من حلال ، واين الحلال ؟ ثم أين الحلال ؟ فياليتها من الشبهات المشهورة ولكنها من التخاليط المكشوفة ، كما ذكر عن ابن عباس انه قال : كسب الحلال عسير وما اعلم اليوم درهما من حلال ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا وداويناهم فإن صح هذا القول عن ابن عباس وهو في الصدر الأول من دين الاسلام وهو في زمن الصحابة فكيف بنا

في زماننا هذا .

ولقد تغيرت الأموال بالفتن والنهب والنفاق والظلم فأين يوجد الحلال فتنبه أيها الانسان الراغب الغافل ولا تغتر بالدنيا فإنك عن قريب ستندم حين لا ينفعك الندم .

وكما ذكر عن ابي ذر انه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ نحو أُحُد فقال : «يا أبا ذر فقلت لبيك يا رسول الله فقال : الأكثرون هم الأقلون إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ثم قال لي يا أبا ذر ما يسرني ان يكون لي مثل أحد ذهبا وفضة فانفقه في سبيل الله أموت يوم أموت ما أترك خلفي منه قيراطين» .

وذكر في الخبر ان بعض الصحابة كان يرث المال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ويغيره ويفتنه فانتبه أيها الانسان فإني لك ناصح وعليك مشفق واستيقظ من هذه الرقدة وانتبه من هذه الغفلة واقنع بالبلغة من الدنيا ولا تشتغل بجمع المال فيكون عليك وبالا ولا تعرض نفسك للمساءلة والمحاسبة كما ذكر عن النبي ﷺ انه قال : «من نوقش الحساب عذب» وذكر في الخبر أنه اذا كان يوم القيامة يؤ تى بالعبد وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام فيؤمر به الى النار .

ويؤ تى بالعبد وقد جمع مالا من حلال وأنفقه في حرام فيؤمر به الى النار ويؤ تى بالعبد وقد جمع مالا من حلال وانفقه في حلال فيقال له :

قف حتى تسأل عنه لعلك حين جمعت هذا المال فرطت في شيء مما فرض عليك من الصلاة ولم تصلها في وقتها أو فرطت في شيء من ركوعها أو سجودها أو تسبيحها أو قراءتها أو ضيعت شيئا من الغسل والوضوء ولم تكمل ذلك من أجل جمع المال فيقول لا . بل كسبته من حلال وانفقته في حلال ولم أضيع شيئا مما فرض الله عليَّ فيقال له : لعلك باهيت به أو جمعته خوفا من الفقر للتكاثر والزينة والرفعة والعلو على الناس فيقول : لا . بل كسبته من

حلال وانفقته في حلال ولم أضيع شيئا مما فرض عليَّ ولم اباهِ به ولم أختل ، ولم ارد به التكاثر ولا الزينة ولا الرفعة ولا جمعته خوفا من الفقر وانما جمعته لصنائع المعروف وبذلته في سبيل الله .

فيقال له : فلعلك منعت منه حق أحد من الناس أمرت ان تعطيه منه من اقربائك واليتامى والضعفاء والفقراء والمساكين وأبناء السبيل وبخلت به .

فيقول: لا . بل كسبته من حلال وانفقته في حلال ولم اضيع شيئا مما فرض عليَّ ولم أباهِ به ولم أختل ولم أجمعه خوفا من الفقر ولا للتكاثر والزينة والرفعة والعلو ولا منعت حق احد من الناس أمرت ان اعطي منه فإن كان أوفى بما قال ولم اضيع شيء وكان ذلك كذلك .

وقيل قليل من الناس من يوجد فيه هذا على التمام والكمال فيقال له حينئذ قف الآن حتى تؤدي شكر نعمة أنعمها الله عليك من أكلة أو شربة أو لذة أو كسوة فلا يزال يسأل عن ذلك كله وهو عاطش جائع حاف عريان جاثيا على ركبتيه كما قال ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ [1] معنى النعيم ها هنا على قول اهل التفسير ؛ هو بارد الشراب وظلال المساكن ، ولذات النوم ، فهذا حال من لم يضيع شيئا مما أمر به ، مع أنه جمعه من حلال ، ولم يبخل به ، وانفقه في مرضاة الله ، ولم يرد به شيئا من المحذورات ، والمكروهات ، والشهوات ، فكيف بمن أنعم على نفسه في الدنيا ، يأكل الشهوات واللذات من الحرام ، والشبهات ، وضيع اكثر المفروضات ، ومنع منه حق الله تعالى ، وبخل وأراد به الفخر والزينة ، والعلو على الناس ، والرفعة والتعظيم ، كيف يكون حاله عند الله غدا .

وأما إن كان بخل به ، ولم يعط لأحد شيئا مما أمر أن يعطيه من القرابة ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والفقراء ، والضعفاء ، وأهل الحاجة ، فإنهم يأتون إليه فيخاصمونه بين يدي الله عز وجل . فيقولون : يا ربنا هذا اعطيته فمنعنا فضل ماله ولم يعطنا شيئا مما أمرته به ، فرب ليلة بات

---

١ ـ الآية ٨ من سورة التكاثر .

فرحا مسرورا شابعا على رغد من العيش ، وبتنا على شدة جوع وخصاصة .

وكذلك إن ضيع شيئا من فرائض الله بسبب جمع المال ، وجمعه للزينة والتكاثر والرفعة والعلو والمباهاة فيبقى في حسرة وندامة بين يدي الله عز وجل .

فما يتعرض لهذه المسألة والى هذه المحاسبة إلا كل مستدرج احمق لا عقل له ، ولو كان له عقل ما عرض نفسه لهذا الخطر العظيم ، وما يطلب هذا إلا كل مجنون مغرور مفتون قد غلب عليه الجنون وغرته الدنيا بغرورها وأهلكته الى الأبد .

الا ترى إلى حال هذا العبد الذي كسب من حلال وأنفق في حلال ولم يضيع شيئا ولم يمنع منه حقا وجب عليه فيه كيف حوسب بهذه المحاسبة الشديدة جاثيا على ركبتيه ، وقد منع من الجنة حتى يأذن الله له فيها برحمته .

فكيف تكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وشهواتها ولذاتها وتخاليطها مع التفريط فيما أمرنا به من تضييع صلاة ووضوء وغسل وزكاة وصيام وغير ذلك مما فرضه الله علينا من أجل جمع المال . ونحسب ان جمع المال علينا فرض اعظم من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك من الفرائض الشرعية .

ثم ان اكثر جمعنا للمال إنما هو للتكاثر والعلو والرفعة على الناس والزينة والمباهاة ومخافة الفقر .

فيا لها من مصيبة ما أجلها نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه الذي لا طاقة لنا به .

وقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عطش يوما فطلب شربة

من ماء فأتي بشربة من ماء وعسل ممزوج به فلما ذاقه وأخذ منه جرعة نزعه من فمه ثم بكى ومسح الدموع من عينيه ليتكلم ثم عاد في البكاء واكثر فقيل له : ما هذا البكاء كله من اجل هذه الشربة ؟ فقال نعم . إني كنت جالسا يوما عند النبي ﷺ في بيته وما معه أحد غيري اذ رأيته يدفع بيديه عن نفسه ويقول : إليك عني اليك عني » فقلت له : يا رسول الله فداك أبي وأمي لا ارى بين يديك احدا تخاطبه وليس معك احد غيري فمن الذي تخاطب ؟ فقال : هي الدنيا تطاولت علي بعنقها ورأسها وتزخرفت إلي وقالت لي يا محمد خذني اليك . فقلت لها : اليك عني فقالت لي : إن تنج أنت مني فلن ينجو مني احد من بعدك فإني اخاف ان تكون الدنيا قد لحقتني فقطعتني عن رسول الله ﷺ .

فهذا من أجل شربة خاف على نفسه مع فضائله وتقواه ، وصحبته لرسول الله ﷺ وبشراه له بالجنة فكيف بأمثالنا الغرقى نتقلب في النعيم والتفكه وأنواع الشهوات واللذات وننغمس في المكاسب من الشبهات والحرام مع كثرة الذنوب والمعاصي ونحن آمنون على أنفسنا لا نخاف الانقطاع عن رسول الله ﷺ .

فيا اعظمها من مصيبة وما أجلها . فالله الله عباد الله في انفسكم فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

واعلموا علما يقينا أن من خالف سيرتهم فقد خولف به عن طريقتهم .

وقد ذكر عن بعض الصحابة أنه قال : لو أن رجلين أحدهما في حجره دراهم ينفقها في سبيل الدنيا ويتصدق والآخر يذكر الله تعالى لكان الذاكر افضل لأن الذي ينفق الدراهم يسأل عنها من اين اكتسبها وفيما انفقها ، والآخر لا يسأل عن شيء لأنه لا شيء عنده .

ولو أن رجلين أحدهما طلب الدنيا فأصابها محضا حلالا فوصل بها رحمه وأعان المسلمين وتصدق منها وقدم لنفسه ، والرجل الآخر اجتنب الدنيا

وتركها ولم يطلبها ، ولم ينل منها شيئا لكان بين الرجلين كما بين السماء والأرض .

وفي موضع آخر قيل : في رجلين أحدهما يطلب الدنيا بحلاها فوصل منها رحمه وقدم منها لنفسه وجانب الآخر الدنيا قال الربيع : أحبهما إلي الذي جانب الدنيا فأعاد عليها مثلها .

وذكر في الخبر ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك : هذه مفاتيح خزائن الأرض ويجعل لك جبال الأرض ذهبا وفضة تكون معك حيثما كنت وتسير معك حيثما سرت فأطرق النبي ﷺ برأسه الى الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال : يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فما بسط يده الى مفاتيحها ولا التفت اليها .

وذكر في الخبر عنه ﷺ أنه أتاه ضيف ولم يكن عنده طعام لضيفه يضيفه ، فأرسل الى رجل من يهود خيبر وقال له : يقول لك محمد سلفه أو بعه دقيقا الى هلال رجب . فأبى اليهودي إلا برهن . فقال النبي عليه السلام : والله إني لأمين ولو باعني أو سلفني لأديت إليه ثم ارسل إليه درعه رهنا ولقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند اليهودي ولم يجد لها قضاء حتى افتكها من بعده عمر رضي الله عنه .

وأعلم أيها الانسان الراغب في الدنيا أن الشر كله مجموع في الاستكثار من الدنيا والجمع لها وحطامها فنعوذ بالله من ذلك لا سيما في دهرنا هذا ، لأن الحلال فيه معدوم مفقود منذ زمان متقدم حتى لا نعلم درهما حلالا محضا ويا ليتها شبهات مستورة ولكنها من التخاليط المكشوفة .

فما لك أيها الانسان في جمع المال من حجة اكثر من طلب البلغة من القوت يوما بيوم .

فأما جمعه للاستكثار في هذا العصر فهو الداء العضال ، وهي الطامة الكبرى ، والداهية العظمى ، وهي أعظم البلايا والآفة المهلكة .

كما ذكر عن النبي ﷺ انه قال : دعوا الدنيا لأهلها فمن أخذ منها فوق ما يكفيه فقد أخذ منها حتفه وما يشعر إلا وأن شرار الناس من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه . ثم قال : سيأتي من بعدي قوم يأكلون أطيب الطعام ، وينكحون اجمل النساء ، ويلبسون الين الثياب ، ويركبون فرهة[1] الدواب . بطونهم من القليل لا تشبع ، وانفسهم بالقليل لا تقنع ، قد اعتكفوا على حظوظهم من الدنيا وعملوا لها ، وتركوا حظهم الأكبر من الآخرة فصارت همتهم جمع المال وزينة الدنيا لا يغدون واليها يروحون وعليها يعكفون ، قد اتخذوا المال زينة الدنيا آلهة من دون الله وربما من دون رب العزة فبعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبهم لعله عقبكم ان لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ، ولا يشيع جنائزهم ، ولا يجالسهم ، ولا يوقر كبيرهم ، ومن لم يفعل ذلك فقد أعان على هدم دين الاسلام .

وذكر عنه ﷺ أنه قال : «من أصبح آمنا في سربة معافى في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وما قل وكفى خير مما كثر وألهى»[2].

ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ويلهيك لا بالقليل تقنع ولا من كثير تشبع ، فطوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافا فدل هذا على ان جميع الشر مجموع في جمع المال .

وذكر عن محمد بن واسع انه قال : لأن القى الله مؤمنا مهزولا خير لي من ان القاه منافقا سمينا .

---

١ - الجيد السير

٢ - رواه مسلم عن ابن عباس

وذكر عن ابي الدرداء انه قال : صاحب الدرهمين أطول حسابا من صاحب الدرهم .

فاتقوا الله عباد الله ، ولا تغتروا بالدنيا ، واتركوا الجمع لها واقنعوا منها بالبلغة وارضوا منها باليسير ولتكن كثرة عملكم وجملة طلبكم للآخرة ولا تتعرضوا للحساب وأليم العقاب ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾[1]

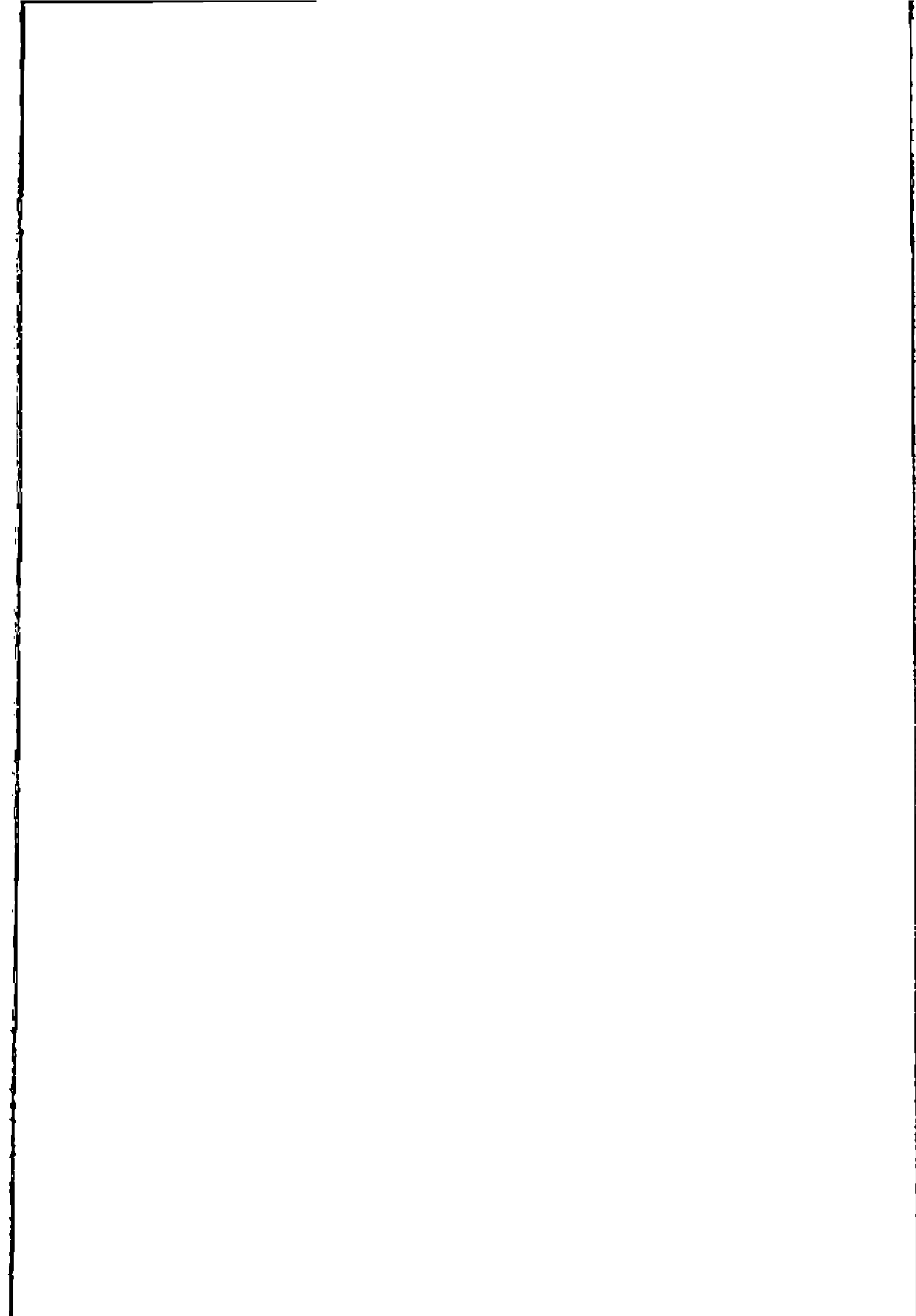
واعلم ايها الانسان الغافل الراغب في الدنيا المقبل على دنياه المعرض عن اخراه ان جمع المال لا حاصل فيه غير تعب النفس بلا فائدة ولو أن الدنيا كلها ملك لك لم يكن لك منها إلا القوت وما سوى ذلك حساب عليك .

كما ذكر في الخبر : أن الله تعالى أنزل في بعض الكتب المنزلة على انبيائه : (يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها ملكا لك لم يكن لك منها الا القوت فإذا أنا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن) .

«وتركت باقي الباب ؛ لأن في بعض ما كتبته كفاية لمن من الله عليه بالهداية وما التوفيق إلا بالله» .

---

١ ـ الآية ٢٨١ من سورة البقرة



الباب الثامن والعشرون

في الحكرة والأثرة وعلامة السعادة والشقاء

عبدالله العدوي قال : سمعت رسول الله ﷺ انه قال : «لا يحتكر الا خاطىء» .

ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء الله تعالى منه» [1] .

وقيل : عنه عليه السلام أنه قال : «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» [2] ، وانما أراد بالجالب الذي يشتري الطعام للبيع فيجلبه الى بلده فيبيعه فهو مرزوق ولأن الناس ينتفعون فينالون بركة دعاء المسلمين ، والمحتكر الذي يشتري الطعام للمنع ويضر بالناس .

وقال الفقيه : الحكرة ان يشترى الطعام في مصر ويحبسه عن البيع وللناس إليه حاجة في هذا الاحتكار الذي نهي عنه .

واما الذي أدخل ـ لعله ادخر ـ الطعام من ضيعته أو جاء من مصر آخر فإنه لا يكون احتكار ولكن لو كان للناس حاجة فالأفضل ان يبيعه لأن امتناعه عن ذلك يكون اساءة مسيء وله شفقة بالمسلمين ، فينبغي ان يجبر المحتكر على بيع الطعام فإن امتنع من ذلك فإنه يعزر ويؤدب ولا يسعر عليه ويقال له بع كما يبيع الناس .

---

١ ـ (فقد بريء الله تعالى وبريء منه) هكذا ورد في الأصل والصحيح ما ثبت

٢ ـ اخرجه ابن ماجة والحاكم

وروي عن رسول الله ﷺ انه قال : «لا اسعر فإن الله هو المسعر» .

وذكر عن بعض الرهبان أنه كان في بيته وفر من حنطة فقحط الناس وباع ما عنده من الحنطة ثم جعل يشتري لحاجته . فقيل له : لو أمسكت ما عندك . فقال : اردت ان اشارك الناس في غمهم كما اشاركهم في فرحهم .

وذكر في الخبر أن عابدا من عباد بني اسرائيل مر على كثيب من رمل فتمنى في نفسه ان لو كان دقيقا فأشبع بها بني اسرائيل في مجاعة اصابتهم . فأوحى الله تعالى إلى نبي فيهم ان قل لفلان : «ان الله تعالى قد اوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقا وتصدقت به» . يعني كما نوى نية حسنة اعطاه الله من الأجر بحسن نيته وشفقته على المسلمين ورحمته عليهم .

فينبغي للمسلم ان يكون مشفقا رحيما على المسلمين . وروي ان رجلا جاء الى ابن عباس فقال له : اوصني . فقال له عبدالله بن عباس : أوصيك بستة أشياء : أولها يقين القلب بالأشياء التي تكفل الله تعالى بها لك والتفكر في الآخرة .

والثاني أداء الفرائض لوقتها .

والثالث : بلسان رطب في ذكر الله تعالى .

والرابع : لا توافق الشيطان فإنه حاسد الخلق .

والخامس : لا تعمر الدنيا فإنها تخرب آخرتك

والسادس : كن ناصحا للمسلمين دائما .

وذكر في الخبر أن آدم عليه السلام أوصى ابنه شيث بخمسة أشياء وأمره ان يوصي بها أولاده من بعده .

اولها : قال له : قل لأولادك لا يطمئنوا الى الدنيا فإني قد اطمأننت

بالجنة الباقية فلم يرض الله عني واخرجني منها .

والثاني : قل لهم لا تعملوا بهوى نسائكم واني عملت بهوى امرأتي فأكلت من الشجرة فألحقتني الندامة .

والثالث : كل عمل تريدونه فانظروا عاقبته فإني لو نظرت عاقبة امري لم يصبني ما أصابني .

والرابع : إذا اضطربت قلوبكم من شيء فاجتنبوه فإني حين أكلت من الشجرة اضطرب قلبي فلم أرجع فلحقني الندم .

والخامس : استشيروا في الأمور فإني لو شاورت الملائكة لم يصبني ما أصابني .

أبو هريرة : جاء رجل الى النبي ﷺ وقد اصابه الجهد فقال : يا رسول الله إني جائع فأطعمني ، فبعث النبي ﷺ إلى ازواجه هل عندكن شيء ؟ فكلهن قلن : والذي بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء . فقال رسول الله ﷺ : «ما عند رسول الله ما يطعم هذه الليلة ثم قال : من يضيف هذا في هذه الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فأتى منزله فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله ﷺ فاكرميه ولا تدخري عنه شيئا . فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبية . قال : قومي فعللي لهم عن قوتهم حتى يناموا فلا يطعموا شيئا ثم اسرجي[1] وابرزي فإذا جاء الضيف ليأكل قومي كأنك تصلحين السراج فاطفئيه وتعالي نمضغ السنتنا لضيف رسول الله ﷺ حتى يشبع ضيف رسول الله ﷺ.[2]

فقامت الى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئا ثم

---

١ - المقصود اضاءة المصباح وتقديم الطعام

٢ - رواه البخاري ومسلم

قامت فأبرزت واسرجت . فلما اخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته وجعلا يمضغان السنتهما لضيف رسول الله ﷺ حتى شبع ضيف رسول الله ﷺ وباتا طاويين فلما اصبحوا غدوا الى رسول الله ﷺ فلما نظر اليهما تبسم ثم قال : «لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة» فأنزل الله تعالى : ﴿**ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[1] .

وقال أنس بن مالك : اهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي وكان مجهودا فوجه الى جار له فتداوله تسع ثم عاد الى الأول فأنزل الله تعالى : ﴿**ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ اي فاقة وحاجة .

فصل

وعلامة السعادة إحدى عشرة خصلة : احدها ان يكون زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة .

والثاني ان يكون نهمته العبادة وتلاوة القرآن .

والثالث قلة القول فيما لا يحتاج اليه .

والرابع ان يكون محافظا على الصلوات الخمس في الجماعة .

والخامس ان يكون ورعا فيما قل أو كثر من الحرام والشبهات .

والسادس ان تكون صحبته مع الصالحين .

والسابع ان يكون متواضعا غير متكبر .

والثامن ان يكون سخيا كريما .

---

١ ـ الآية ٩ من سورة الحشر

والتاسع ان يكون رحيما بخلق الله .

والعاشر ان يكون نافعا للخلق .

والحادي عشر ان يكون ذاكرا للموت كثيرا ليلا ونهارا .

وعلامة الشقاوة احدى عشرة خصلة :

احدهما ان يكون حريصا على جمع الأموال .

والثاني ان تكون نهمته في الشهوات واللذات في الدنيا .

والثالث ان يكون فاحشا في القول مكثارا .

والرابع ان يكون متهاونا بالصلاة .

والخامس ان تكون صحبته مع الفجار .

والسادس ان يكون سيء الخلق .

والسابع ان يكون متكبرا مختالا فخورا

والثامن ان يمنع منفعته عن الناس .

والتاسع ان يكون قليل الرحمة للمسلمين .

والعاشر ان يكون بخيلا .

والحادي عشر ان يكون ناسيا للموت .

واعلم ان عليك حقوقا كثيرة واجبة سوى الفريضة فلا تكن مسلما بغير منفعة فإن المسلم بغير منفعة مثله كمثل الشجرة الدفلى ورقه اخضر ونواره أحمر

يزين بنفسه وليس لأحد فيه منفعة فيعجب من رآه وان أكله أحد قتله . قال ﷺ : «لا خير في مسلم لا منفعة للمسلمين فيه» .

وكان ﷺ يحب الوفاء وأهله ، وكان الذين يلونه من الناس خيارهم ، وافضلهم عنده ، واعمهم نصيحة ، واعظمهم عنده منزلة ، واحسنهم مواساة ، وقد وسع الناس بسطة فصار لهم أبا ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا غياب ، ولا مزاح ، ولا غابش[1] ، ولا غدار .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وأنه لا ينطق عن الهوى ، ولا يتكلم إلا في حاجة ، طويل السكوت اذا تكلم تكلم بجوامع الكلم ، لا فضول فيه ولا تقصير ، واذا سكت . سكتب عن اربع خصال ، على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكير .

أما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من بين الناس . واما تفكيره ففيما يبقى ويفنى ، وجمع له الحلم في الصبر ﷺ فكان لا يبغضه شيء ولا يستفزه ،وجمع له في الحذر أربع ، أخذه بالحسن ليقتدي به وتركه القبيح لينتهي عنه .

واجتهاد الرأي فيما يصلح أمته ، وحسن القيام لهم من أمر الدنيا والآخرة ﷺ .

---

١ - الغابش : غبش فلانا غبشا : غشه وخدعه ، ويقال : غبشه عن حاجته ، خدعه عنها فهو غابش (خادع) .

الباب التاسع والعشرون

في النصيحة

قال أبو سعيد : إنما الدين النصيحة والنصيحة لا تكون معي إلا بصدق النية وموافقة الأعمال الصالحة ، وليس في الخلق تَشَفٍ ولا مكايدة ولا محاسدة وإنما هو بالصدق ووضعه في موضعه ومواضع السنة فيه .

قال عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ رحم الله امرأً أهدى الينا عيوبنا والويل يوم يخافنا الناس فلا يأمروننا بالحق . فإياك أن تكره النصيحة ممن يؤديها اليك ، ولتقل ذلك بوجه طليق ، وسمع مصغٍ وشكر جزيل ، وتعلم صدق ناصحك ، وتنصف من نفسك ، فإن المرء لا يدري عيوبه ، ولعله ما كتمك عن مساوئك اكثر مما أبدى لك ، فاجعل لنفسك مثالا من الناس فما استحسنته منهم فاعمل به وما استقبحته فاجتنبه . وذلك معنى قول رسول الله ﷺ : «المؤمن مرآة اخيه المؤمن» اي يرى فيه المحاسن فيعمل بها والمقابح فيجتنبها ولا يراها من نفسه بغلبة الهوى .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لا تزيدوا في مهر النساء على اربعين أوقية ولو كانت ابنة ذي الفضة ـ يعني يزيد بن الحصين الحارثي فمن زاد القيت الزيادة في بيت المال فقامت إليه من بين النساء امرأة قسطا فقالت : ما ذاك لك يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : **﴿وءاتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا﴾**[1] .

---

١ ـ الآية ٢٠ من سورة النساء

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : امرأة اصابت ورجل اخطأ .

فتأمل رجوعهم الى الحق واعطاءهم النصفة من انفسهم وتركهم الألفة خوف الوقوع في المعصية بكراهية الحق ، فتأسوا به رحمكم الله .

الباب الثلاثون

في كتمان السر

اعلم أن كتمان السر من أقوى أسباب النجاح وأدوم وأقوم لأحوال الصلاح فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «استعينوا على حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»

وقال القرشي : سرك اسيرك فإن تكلمت به صرت اسيره .

وقال بعض الادباء : من كتم سره كان الخيار اليه ، ومن افشاه كان الخيار عليه .

وقال بعض الحكماء : سرك دمك فإن تكلمت به أرقته .

واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهار سر نفسه ؛ لأنه يبوء بإحدى وصمتين ؛ اما الخيانة ان كان مؤتمنا والنميمة ان كان متبرعا . وأما الضرر فربما استويا فيه وتفاضلا وكلاهما مذموم وهو منهما ملوم .

وقال رسول الله ﷺ : «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله فلا يحل لأحد ان يفشي على صاحبه ما يكره» .

وقال ﷺ : «من سمع من رجل حديثا لا يشتهي أن يذكر فهو أمانة وان لم يستكتمه» .

وقال ﷺ : «اذا حدث الرجل حديثا فالتفت فهو أمانة» .

وقال عمر بن عبدالعزيز : القلوب أوعية السرائر والشفاهأقفالها ، والألسن مفاتيحها فليحفظ كل ذي سر مفتاح سره .

وقيل في الحكم : قلوب العقلاء حصون الأسرار .

فلو قدرت على نسيان ما اشتملت   مني الضلوع من الاسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سـرائـره   إذا كنت من نشرها يوما على خطر

وقال بعض الحكماء : كلما كثرت خزان الأسرار ازدادت ضياعا .

وقال غيره :

أُآخي رجالا لست أطلع سرهم   على سر بعض غير اني جماعهـا
يـظلون شتى في البلاد وسـرهم   الى صخرة أعيى الرجال انصراعها[1]

وقال بعض الحكماء : من طلب لسره موضعا فقد أشاد به .

قال المهلب : ما رأيت صدور الناس تضيق على شيء كما تضيق عن حمل الأسرار .

وقال المأمون : قد يحتمل الملوك على ـ لعله ـ كل شيء إلا ثلاثة أشياء : الطعن في الملوك ، وافشاء السر ، والتعرض للحرم .

وروي عن النبي ﷺ : رأى ـ لعله ـ في المنام ان ولد الحكم يتداولون

---

١ ـ لعله انصداعها

منبرا وذلك بالمدينة كما يتداول الصبيان الكرة فجاء رسول الله ﷺ في بيته وهو بيت عائشة فقص رؤياه على أبي بكر وعمر فلما تفرقوا سمع رسول الله ﷺ الحكم بن العاص يخبر برؤياه فاشتد ذلك عليه ﷺ وأتهم عمر ان يكون أفشى سره وبرأ أبا بكر فقال لعمر : حدثتكم بحديث أظهرتموه فقال عمر ـ رحمه الله ـ ما فعلنا فقال ﷺ : إنما كنت أنا وأبوبكر وانت وأنا أشهد ان أبا بكر ما أفشاه فقال عمر : ولا أنا والله يا رسول الله فقال ﷺ : فمن أخرج حديثي فقال عمر : يا رسول الله تعود إلى مجلسك حتى تتحدث كما كنت تتحدث فأنا آتيك بمن أفشى سرك فقعد حتى كاد ﷺ ينسى ما قعد له ثم خرج عمر مبادرا فإذا الحكم كان يستمع إليهم فنفاه رسول الله ﷺ وقوله : ﴿**والشجرة الملعونة في القرآن**﴾[1] يعني الحكم في التفسير والله أعلم .

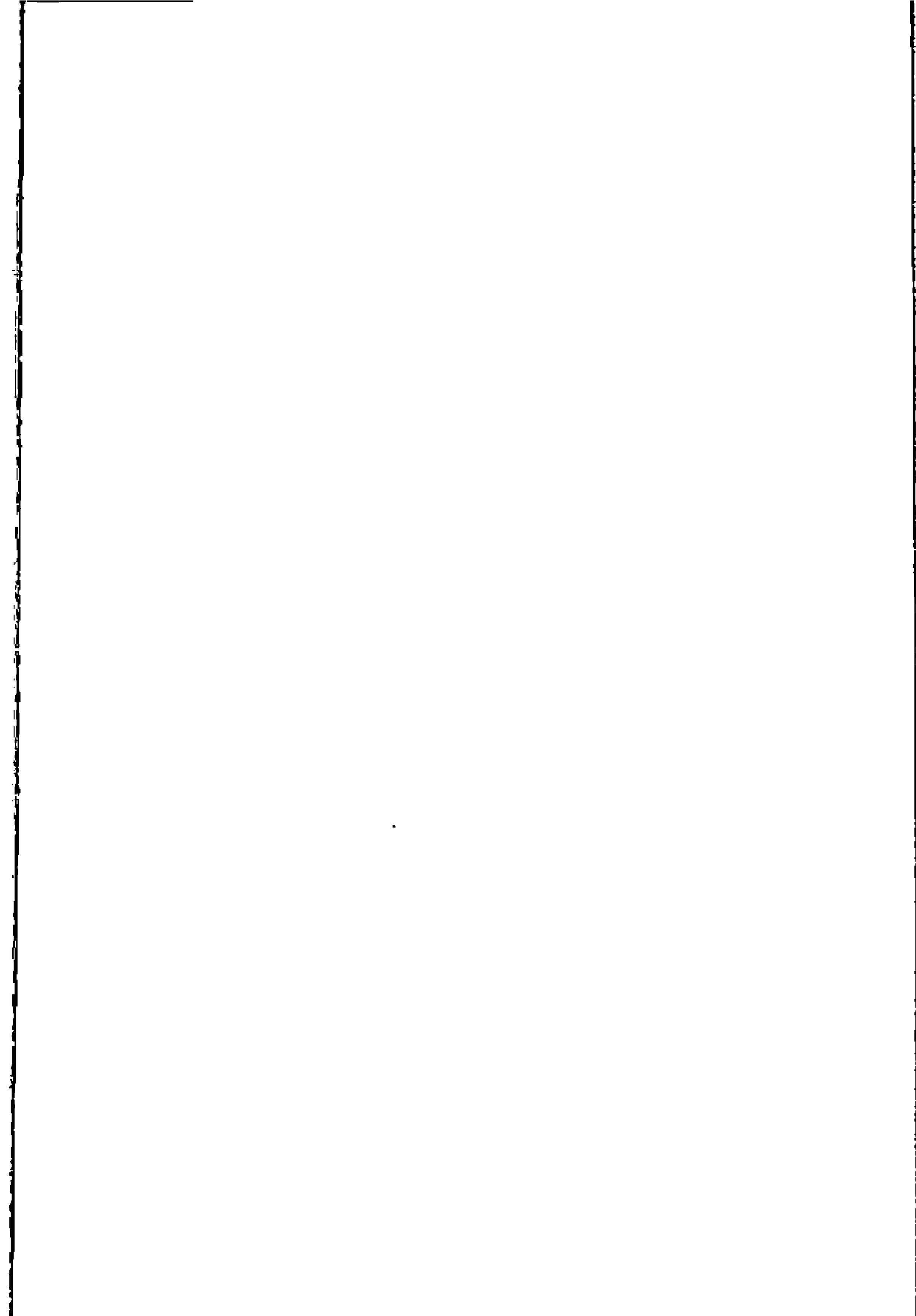
ابو عبيدة عن جابر قال بلغني عن رسول الله ﷺ قال : «من روع مسلما روعه الله يوم القيامة ومن افشى سر اخيه ابدى الله سره يوم القيامة على رؤوس الخلائق»

وقال ﷺ :«من آذى مؤمنا وروعه أطال الله روعته في جهنم» .

جابر بن زيد عن النبي ﷺ قال : «من حقر مسلما فليس بمسلم» وقيل : لا تصطنع من يكفر بربك ولا تستبطن من يظهر سرك ولا تصاحب من ينسى أياديك ويجهل معاديك .

---

١ ـ الآية ٦٠ من سورة الاسراء



الباب الحادي والثلاثون

في أسباب اقتراب الساعة وما جاء من الروايات

في الرواية عن النبي ﷺ انه قال : «من أسباب اقتراب الساعة ان يكون الملك من الأشرار والمكر في الكبار والمداهنة في الأخيار والعلم في الصغار» .

وقال ابو سعيد رحمه الله : فمعنى قوله : المداهنة في الأخيار قال : الأخيار ليس عندهم مداهنة ولكن هم خيار من أهل زمانهم لأن معهم من أشر منهم ، قال : والمداهنة هي المصانعة يزين له افعاله من القبيح ويلقاه به ويلقاه بما حسن من أفعاله ويكنى عن القبيح من أفعال ولا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر وكل هذا من أمور الدنيا .

قال : ويكون العلم في الصغار . قال : الصغير لا يسمع له قول ، واقل ما يكون يكف عنه ألا يضرب على قوله .

قال : والمكر في الكبار هو الخديعة والمكر بالباطل وهو المكر السيء قال الله تبارك وتعالى : **﴿وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾**[1] .

وروي عن النبي ﷺ انه قال :« بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه الوسطى والمسبحة »[2]

---

١ ـ الأية ١٢٣ من سورة الأنعام

٢ ـ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

وفي خبر : «بعثت أنا والساعة كفرسي رهان سبق أحدهما صاحبه» .

سئل عيسى بن مريم عليه السلام عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن لها أشراط قالوا : وما اشراطها ؟ قال : إذا بعثت أمة محمد فهو كالحامل تضع في شهرها ولا تدري في اوله تضع أو وسطه أو آخره» .

الزبير : لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت عليه : ﴿فيم انت من ذكراها إلى ربك منتهاها﴾[1] .

ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأهل مكة : «إن الساعة كائنة قالوا يا محمد متى هي ؟ يقولون متى مجيئها فأنزل الله : ﴿إلى ربك منتهاها﴾ وقيامها .

وقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده لتنفخن الساعة ولتقومن الساعة والرجل قد لاط حوضه فلا يسقى فيه والرجل قد انصرف بلبن ناقته من تحتها فلا يشربه والثوب بين الرجلين فلا يطويانه ولا يتبايعانه والرجل قد رفع لقمة الى فيه فلا يطعمها» ثم تلا هذه الآية : ﴿وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾[2] .

أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويكثر الجهل ويفشو الزنا وتشرب الخمر ويقل الرجال حتى يكون على خمسين أمرأة قيم واحد» .

وقال ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يغضب الرجل على من يقول له : اتق الله» .

وفي الحديث : «لا تقوم الساعة حتى تظهر التحوت يعني الذين كانوا

---

١ ـ الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة النازعات

٢ ـ الآية ٥٣ من سورة العنكبوت

تحت أقدام الناس لا يشعر بهم» .

وعنه ﷺ : «من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد لا يجدون إماما يصلي بهم ، ومن أشراطها ان تكثر الأهلة فتختلف» والله اعلم .

وعنه ﷺ : «لا تقوم الساعة إلا على أشرار الخلق وحتى يظهر الزنا والكذب ويخدم الشيخ الصبي ويسعى له في الحوائج» .

واعلم ان في آخر الزمان يخرج قوم يكون معبودهم بطونهم ، ودينهم لباسهم ، وحليتهم كلامهم ، إن رأوا الحق تركوه وان ظهر لهم الباطل اتبعوه ، الشيخ منهم زان ، والفقير منهم مختال ، بطونهم مثل الخوابي ملآى من الطعام والشراب ، والأرض تضج إلى الله تعالى منهم ، وفي ذلك الزمان تظهر الفواحش بين الناس وتقسو القلوب وتولع الأنفس بلذات الدنيا وحديث الغيبة ، وينفرد كل أحد بالدعوة في العلم من غير عمل ، ولا يفيد الوعظ والزجر ، ويكثر فيه الذنب إذا قال الرجل لأخيه اتق الله قال له : عليك نفسك وفي ذلك الزمان يسلط الله جور السلطان على الرعية جزاء على ما قدمت أيديهم من الخطايا كما جاء في الخبر : «كما تكونوا يولى عليكم» وفي ذلك الزمان تطلب الدنيا بالدين فمن يشرق في قلبه نور اليقين لم يشاهد ما شاهده الصالحون .

وعنه ﷺ من طريق أنس : «ان من أشراط الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجأة» .

ابو موسى الأشعري سمعت النبي ﷺ يقول : «إن يدي الساعة أياما يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويظهر فيها الهرج بلسان الحبش - لعله - القتل»

داود : لا تقوم الساعة حتى تكون الهيبة في السفهاء وتذهب من العلماء ، وتذل الأخيار وترتفع الأذلة ويهجر فيه كتابي ويكثر فيه رزق

العاصي ، وأقبل الدنيا على كل فاجر وامنعها من كل حبر فاضل واحبب إليهم الغنى واحرمهم الخلوة بي والقيام بأمري فإذا اجتمعت هذه الخصال فيهم سلطت عليهم سيف النقمة وجعلت الصغير لا يهاب الكبير ، واغليت اسعارهم ، واقللت المطر ، وأوحيت الى نبات الأرض ان يقل زكؤه ، وابتليتهم في ذلك بالقسوة والفجور جزاؤ هم عندي لأنهم يكذبون بي وبرسلي لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر» .

ابن عمر : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن الاسلام بدأ غريبا ولا تقوم الساعة حتى يكون غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء حين يفسد الناس ثم طوبى» «ثلاث مرات» .

قيل يا رسول الله من الغرباء ؟ قال : «الذين يصلحون اذا فسد الناس» وقيل : يأتي على الناس زمان لا يكون للمؤمن فضل على عبده في دينه مما يموجون في باطلهم وتكون الأمة أعز من المؤمن .

وروي عن النبي ﷺ : «سيأتي على أمتي زمان يكون طفلهم شاطرا (١) وشابهم مقامرا وكهلهم كافرا ويخزن العمل» .

وعن حذيفة قال : قال علي بن ابي طالب : يأتي على الناس زمان لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ، ومن القرآن الا رسمه ، مساجدهم عامرة وهي خراب من اهل الهدى علماؤ هم شر من تحت أديم السماء ، من عندهم تخرج الفتنة واليهم تعود .

وعنه ﷺ أنه قال : «يأتي ناس في آخر الزمان يأتون المساجد يقعدون فيها حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة» .

أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تأتي الساعة حتى يقبض الله

---

١ - أي لئيما خبيثا

العلم وتأتي الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج» .

أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «سيكون في آخر هذه الأمة قلوب اعاجم ولسان عذب يلقى الرجل أخاه فيخبره بغير ما في قلبه» .

ومن كتاب القناطر : عن النبي ﷺ قال : «سيأتي بعدي قوم يأكلون اطايب الأطعمة وألوانها وينكحون اجمل النساء وألوانها ويلبسون لين الثياب ويركبون فره[1] الدواب ، لهم بطون من القليل لا تشبع وانفس من الكثير لا تقنع عاكفين في الدنيا يغدون ويروحون إليها اتخذوها إلها دون إلههم وربا دون ربهم إلى امرها ينتهون وهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم ان لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام» .

وكان عبدالله بن مسعود يقول : يا أيها الناس كيف انتم اذا غشيتكم الفتن ، ويكثر فيها الغضب ، ويهرم بها الكبير ويستعري فيها الأعمى ، ويتخذ دينا . قالوا : متى ذلك يا عبدالرحمن ؟ قال : اذا كثرت اموالكم وقلت أمانتكم ، وتفقه في الدين لغير الدين ، وطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وكان يقول : ستكون فتن كالليل المظلم يموت فيها قلب المؤمن يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويبيع فيها قوائم دينهم ببعض الدنيا . وكان يقول : سيأتي عليكم زمان تجتمعون في المساجد وتصلون جميعا وما منكم رجل مؤمن .

وقيل : تقوم الساعة إذا غضب الناس على من يأمرهم بتقوى الله وطاعته .

وعن النبي ﷺ أنه قال : «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ؛ إذا أكلوا الربا وارتكبوا الزنا وجعلوا الأموال دولا والزكاة مغرما

---

١ - الجيد السير من الدواب

والأمانة مغنما وأطاع الرجل زوجته وجفا أباه وأكرم الرجل من مخافته وكان زعيم القوم أرذلهم وساد القرى منافقوها وارتفعت الأصوات في المساجد بذكر الدنيا ولبس الحرير وشربت الخمور واتخذت المعازف والقيان ولعن آخر الأمة أولها فليتقوا خسفا وصرفا ومسخا إلا أن خسف هذه الأمة بالسنين وموتها بالطاعون» .

ويقال : مسخ هذه الأمة بقلوبها ومسخ الأمم الماضية بأبدانها وهذا أشد .

وعلامة مسخ القلوب أربعة أشياء ؛ لا يجد حلاوة الطاعة ، ولا يخاف المعصية ، ولا يعتبر بموت أحد ، ويصير راغبا في الدنيا كل يوم .

وقيل : هلاك هذه الأمة من سبعة نفر ؛ من عالم فاجر ، وعابد جاهل ، وزاهد راغب ، وحاكم مرشي ، ومؤذن كذاب ، وقارىء خائن ، وأمير فاسق .

والله - عز وجل - زين الدنيا بخمسة نفر ؛ بعلم العلماء ، وعدل الأمراء ، وأمانة التجار ، وغزو الغزاة ، وزهد الزهاد . فجاء إبليس فخلط العلم بالحسد والعدل بالجور والأمانة بالخيانة والغزو بالطمع والزهد بالرغبة حتى ذهب نفع هذه الأشياء من المؤمنين .

وقيل : ان في آخر الزمان يرفع الله من هذه الأمة أربعة أشياء ؛ أولها الرحمة من قلوبهم ، والثاني البركة من الأرض ، والثالث الحياء من النساء ، والرابع العدل من الأمراء . فتكون الأمراء ذلك الزمان على الجور ، والعلماء على الطمع ، والعباد على الرياء ، والتجار على أكل الربا والنساء على زينة الدنيا .

وقيل : في آخر الزمان لا يبالي المرء بما أخذ المال حلال أم حرام ، ولا يبقى أحد إلا أكل الربا فإن لم يأكله وإلا أصابه غباره

ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكون عليكم أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوان خونة وعرفاء ظلمة وفقراء فسقة سيماهم سيماء الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة يفتح الله عليهم فتنة غبراء مظلمة فيتهوكون فيها تهوك اليهود والظلمة لتنفصمن للاسلام عروة حتى لا يقال لا إله إلا الله»[1].

وقال ابن عمر : أول ما يرفع من هذه الأمة الألفة والشفقة .

الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك نشكو إليه الحجاج فقال : اصبروا فإنه لا يأتي عليكم يوم أو زمان إلا الذي بعده أشد منه حتى تلقوا ربكم . سمعته من نبيكم .

وعنه ﷺ قال : «خير أمتي القرن الذي بعثت فيه ثم القرن الذي يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الآخر أشر إلى يوم القيامة» .

وعنه ﷺ قال : «خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنوهم ويلعنونكم»[2].

وذكر جابر أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : عمال الناس على قدر أعمالهم ، إن صلحوا صلح عمالهم ، وإن فسدوا فسد عمالهم .
وقيل : كان جابر يقول : إن السلطان الجائر عقوبة فإن قويت عليه فرده إلى الحق ، وإن خفت أن يذلك فعليك بالرضا والتضرع .

قال الناظر : الرضا بما حكم الله وقضى والتضرع إليه في البأساء والضراء ، ليس الرضا هنا ما يفعله الجائر من الجور والله أعلم .

وقال النبي ﷺ : «إذا بلغ العبد أربعين سنة ولم يغلب خيره شره

---

١ ـ رواه ابن ماجه عن أبي هريرة
٢ ـ رواه مسلم والترمذي بطرق مختلفة

فليتجهز إلى النار» .

سلمان الفارسي عن النبي ﷺ : «يوشك أن يبذل الكلام ويخزن العمل» .

وقال النبي ﷺ : «لكل شيء حصاد وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين» .

عن معاذ بن جبل قال : يكون في آخر الزمان أقوام اخوان العلانية أعداء السريرة .

قيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : برغبة بعضهم إلى بعض ورهبة بعضهم إلى بعض .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : «الكواكب أمان لأهل السماء فإذا طمست أتى ما يوعدون ، وأنا أمان أصحابي ، فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون ، وأصحابي أمان أمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون ، والجبال أمان أهل الأرض فإذا نسفت أتى أهل الأرض ما يوعدون» .

الباب الثاني والثلاثون

في الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر : «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء[1] ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبدالله لا تدري ما اسمك غداً» .

وروى عليّ عن رسول الله ﷺ : «ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان ؛ اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه يحبب في الدنيا . ثم قال : لأن الله ـ تعالى ـ يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب الله عبدا أعطاه الايمان ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا . ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن الأخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وإنكم توشكون أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل» .

وقال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف شوارع إليه والهرم وراء الحتوف والأمل وراء الهرم فهو يأمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها مر به أخذه فإن اخطأ الحتوف قتله الهرم وهو ينظر إلى الأمل .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ[2] : «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان ؛

---

١ ـ رواه البخاري عن ابن عمر

٢ ـ رواه البيهقي عن ابن عمر

الحرص والأمل» .

وفي رواية : «ويشب معه اثنان ؛ الحرص على المال والحرص على العمر» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل» .

قال رسول الله ﷺ : «قلب الشيخ شاب في حب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «نعمتان مغبون[1] فيهما كثير من الناس ؛ الصحة والفراغ» .

وقال بعض المفسرين في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فتنتم أنفسكم﴾[2] قال : بالشهوات واللذات ﴿وتربصتم﴾ قال : بالتوبة ﴿وارتبتم﴾ قال : شككتم (حتى جاء أمر الله)، قال : الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾[3] قال : طول الأمل .

وقال الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء .

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والواسطة بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام .

اعلم أن طول الأمل له سببان ؛ أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا ، أما حب الدنيا فهو إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها

---

١ ـ رواه البخاري عن ابن عباس

٢ ـ الآية ١٤ من سورة الحديد

٣ ـ الآية ١٤ من سورة الحديد

فامتنع قلبه عن الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من أهل ومال ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد سوّف ووعد نفسه . وقال الأيام بين يديّ فإلى أن يكبر ثم يتوب وإذا كبر فيقول إلى أن أصير شيخا فإذا صار شيخا قال : إلى أن أفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه القرية أو يرجع من هذه السفرة أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أُخَر هكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال كثيرة إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار صياحهم ، من سوف يقول : واحزناه من سوف والمسوف والمسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا وانما تطول المدة قوة ورسوخا يظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ما فرغ منها إلا من طرحها .

وقال بعضهم :

فما قضى أحد منها لبانته ... ولا انتهى أربٌ إلّا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ـ عليه السلام ـ : «أحبب ما شئت فإنك مفارقه» .

وأما الجهل فهو أن الانسان يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عُشْر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب ، وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري

أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا ، فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فإنما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا .

ولو تفكر هذا الغافل أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل هو بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعاه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر تشييع جنازته لأنه قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهد موت غيره وأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه وأنه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعده فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره فلعل اللبن الذي يغطي بها الحفار لحده قد ضرب وقد فرغ منه وهو لا يدري .

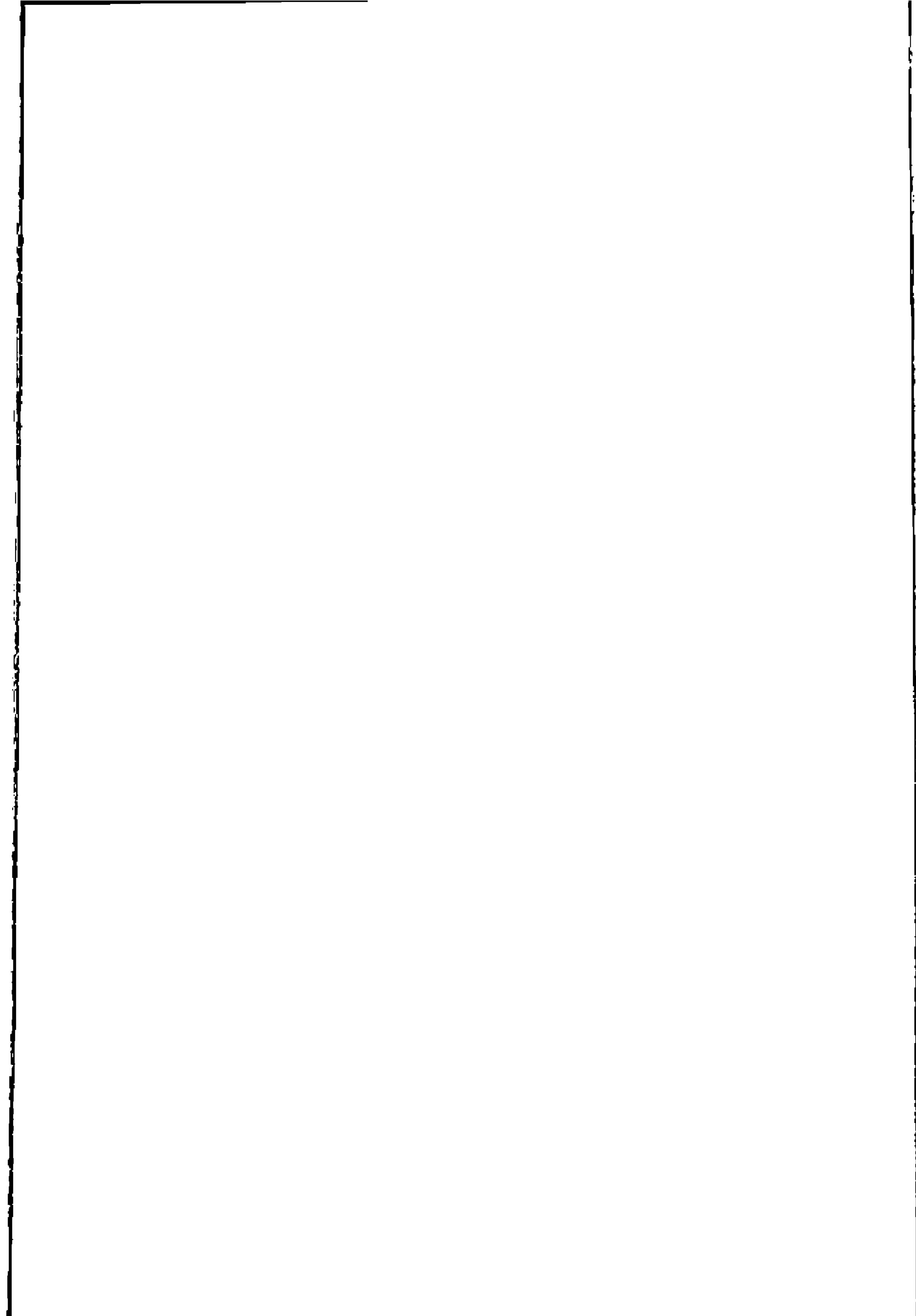
فتسويفه جهل محض وإذا عرف أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر واستماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

وأما حب الدنيا ؛ فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الايمان باليوم الآخر بما فيه من عظم العقاب وجزيل الثواب .

ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير يمحو عن القلب حب الحقير ، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن ينظر أو يلتفت إلى الدنيا وإن أعطي ملك الأرض بأسرها من المشرق والمغرب فكيف وليس لكل عبد من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر فكيف يفرح به ويترسخ في القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده .

ولا علاج في تقريب الموت من القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنه كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوه .

أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان بطول أمله مغرورا فقد خسر خسرانا مبينا ولينظر الانسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر كيف تأكلها الديدان لا محالة ، وكيف تتفتت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا وباليسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله ـ تعالى ـ .



الباب الثالث والثلاثون

في ذكر الموت

اعلم أن المنهمك في الدنيا المنكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وان ذكره كرهه ونفر منه أولئك الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم : ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[1] .

وروي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى والسقم أحب إليّ من الصحة والموت أحب إليّ من العيش فسهل عليّ الموت حتى ألقاك .

وقال ﷺ : «كفى بالموت واعظا» .

واعلم أن الموت لازم لجميع الأحياء من جميع من له روح تتنفس ولا بد من ملاقاته والحازم اللبيب يستعد له قبل موافاته . قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[2] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾[3] (الآية) .

---

١ ـ الآية ٨ من سورة الجمعة

٢ ـ الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

٣ ـ الآية ١١ من سورة السجدة

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[1] .

وقال رسول الله ﷺ : «ما من بيت في الدنيا من شعر ولا مدر إلا وملك الموت يقف على بابه في كل يوم وليلة خمس مرات فيعرف عدد أهله ويتصفح وجوههم فإذا وجد الانسان قد نفد أكله وانقضى أجله ألقى عليه غم الموت فغشيته كرباته وغمرته سكراته فمن أهل بيته الناشرة شعرها والصاكة خدها والصارخة بويلها فيقول لهم ملك الموت : ويلكم مم الفزع وفيمَ الجزع ؟ والله ما أذهبت لواحد منكم رزقا ولا قربت له أجلا ولا آتيته حتى أمرت ولا قبضت روحه حتى استأمرت وإن لي فيكم لعودة ثم عودة حتى لا أبقي منكم أحدا» .

قال النبي ﷺ : «فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون مكانه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش وهو ينادي : يا أهلي ويا أولادي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله وغير حله ثم ذهبت عنه وتركته لغيري فالهناء له والتبعة عليّ فاحذروا مثل ما حل بي» .

وقال ﷺ : «اكثروا ذكر هادم اللذات فإنكم ما ذكرتموه في ضيق إلا وسعه عليكم ورضيتم به فأجرتم وإن ذكرتموه في غنى بغضه عليكم فجدتم به فأثبتم ، إن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال» .

وقال ﷺ : «الكيّس من دان[2] نفسه وعمل لما بعد الموت» .
وأبلغ ما وعظ به المرء نفسه وداوى به قلبه ذكر الموت .

وقد عظم رسول الله ﷺ ثواب ذكر الموت ، قالت عائشة : يا رسول الله ؛ هل يحشر أحد مع الشهداء ؟ قال : «نعم ؛ من يذكر الموت في اليوم

---

١ - الآية ٧٨ من سورة النساء

٢ ـ رواه الترمذي وقال حديث حسن

والليلة عشرين مرة» .

وكيف لا أعظم ذكر الموت وهو قاطع الآمال ، وخاتم الأعمال ، وهادم اللذات ، ومبغض الشهوات .

وقال رسول الله ﷺ : «ما من ميت يموت إلا وله خوار يسمعه كل شيء إلا الانسان فإنه لا يسمعه ولو سمعه لصعق» .

قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ وهذا إخبار لرسول الله ﷺ بحال الظالمين عند الموت أي ولو ترى يا محمد كيف يغمرهم بغمراته ويغشاهم بسكراته وملائكة رب العالمين باسطو أيديهم إليهم بالعذاب المهين ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾[1] .

وذلك أن الملائكة يقبضون روح الكافر ويعدونه النار ويشددون عليه ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾[2] أي وجدتموه فيها وتركتموه فيها ولم يصحبكم منها شيء .

وقال رسول الله ﷺ : «تركت فيكم واعظين ؛ ناطقا وصامتا فالناطق القرآن والصامت الموت» .

وقال ﷺ : «لو تعلم البهائم ما علمتم من الموت ما أكلتم منها سميناه .

وقربك من الله ومنزلتك عنده على قدر حبك الموت وذكرك له فإذا سكن ذكر الموت قلبك واستولى أنتج لك ذلك رفض الشهوات البهيمية .

وقال ﷺ : «يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه وإذا كره لقائي كرهت لقاءه» .

---

١ ـ الآية ٩٣ من سورة الأنعام

٢ ـ الآية ٩٤ من سورة الأنعام

وانظر كيف ذم الله أقواما كرهوا الموت فقال : ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ [1] .

وقال ـ سبحانه ـ ذاما لليهود : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ [2] .

وأحسبك لا تفهم من الموت إلا امتداد الجسم وانقطاع الحراك وهمود الأعضاء وانقطاع النفس والغسل والكفن وبكاء الأهل وبحزنهم وغير ذلك من الأمور المشاهدة بالحس فهيهات ما أبعدك من التحصيل وأحوجك من التفكيل .

واعلم أن الموت الذي عظم الشارع ذكره واستعظم المحققون العارفون شأنه وأمره على ثلاثة معان ؛ المعنى الأول ـ وهو أيسرها وأخفها ـ ما يكابده الميت عند خروج روحه من الألام والأهوال العظام والشدة ومرارة المذاق وتقلقل الروح في العذر ـ لعله الصدر ـ وخروجه وإليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ [3] وبقوله ـ تعالى ـ : ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون﴾ [4] .

وقد كان رسول الله ﷺ يقول حين حضرته الوفاة : «يا جبريل ؛ اشفع إلى ربك لعله يهون عليّ الموت» ويمد يده ويقول : «إن للموت سكرات» .

وقيل : الموت أشد من وقوع مائتي ضربة بالسيف الكليل .

وقيل : كمن أدخل في جوف انسان المراس [5] ثم أدير فيه حتى علقت

---

١ ـ الآية ١٠٧ من سورة النحل

٢ ـ الآية ٩٦ من سورة البقرة

٣ ـ الآية ٩٣ من سورة الأنعام

٤ ـ الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الواقعة

٥ ـ وردت في الأصل في جوف المراس وهي زيادة تخل بالمعنى فحذفت

كل شوكة بعرق من عروقه ثم جذبه جذبا قويا .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص حين حضرته الوفاة : يا أبت ؛ كنت كثيرا ما أسمعك تقول إني لأعجب من رجل ينزل به الموت ومعه عقله كيف لا يصفه . فقال : يا بني ؛ إن الموت أعظم من أن يوصف وساصف لك منه شيئا ، والله لكأن جبال رضوى على كتفي ، ولكن روحي تخرج من سم ابرة ، ولكأن في جوفي الهراس ، ولكأن السماء انطبقت على الأرض وأنا بينهما . ثم قال : اللهم انك أمرتني فتركت ونهيتني فركبت ولا تسعني إلا مغفرتك . ثم قال لولده : إذا أنا مت فلا تبكين عليّ باكية ولا تغالي في اكفاني ، وشد عليّ الازار فإني مخاصم ولا تستر بدني بطوب ولا خشب ولا حجارة ، فإذا واريتني فاجلس على قبري قليلا أستأنس بك ، واكثر من زيارة قبري والاستغفار لي .

المعنى الثاني هو أعظم من الأول وهو ما أنت عليه جار من سابقتك وصائر إليه من خاتمتك والخاتمة تابعة للسابقة والله أعلم السابق نافذ فيك وأنت ميسر لما خلقت له ، ومع الموت ينكشف لك ذلك ويظهر .

وقال رسول الله ﷺ : «رب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر الويل لمن له الويل يأكل ويشرب وهو في الكتاب من وقود النار» .

وفي حديث عبدالله بن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه كتابان وهو قابض على كفيه فقال : «أتدرون ما هذان الكتابان ؟» قلنا : لا يا رسول الله . فقال : «الذي في يمينه بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعددهم قبل أن يستقروا نطفا في الأرحام إذ هم في الطينة مخلدون[1] فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم اجمال من الله - تعالى - عليهم إلى يوم القيامة . ثم قال الذي في يساره هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم

---

١ - وردت في الأصل (متخلدون)

وعددهم قبل أن يستقروا نطفا في الأرحام إذ هم في الطينة مخلدون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم اجمال من الله ـ تعالى ـ عليهم إلى يوم القيامة» . فقال عبدالله بن عمر : ففيم العمل إذاً يا رسول الله ؟ فقال : «اعملوا ولا تفتروا فكل ميسر لما خلق له وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل» .

وقال ﷺ : «إذا وقعت النطفة في الرحم أوحى الله ـ تعالى ـ إلى ملك الأرحام اكتبه سعيدا أو شقيا بعمله واكتب أجله وأثره وعمله» .

ويقال : إنه يأخذ من التراب الذي قدر فيه دفنه وتربته فيخلطه بتلك النطفة .

وفي حديث عليّ قال : كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد فقعد وقعدنا فنكس رسول الله ﷺ رأسه وجعل ينكت في الأرض فقال : «ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار وكتبت سعيدة أو شقية» فقال رجل : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا إذاً وندع العمل إذاً فمن كان من أهل السعادة فسيصير إليها ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إليها ؟ فقال ﷺ : «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة» ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾** [1] فقال ﷺ : «لما خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ أخرج ذريته من صلبه كالذر فأخذ مواثيقهم وأمرهم بالسجود فأبت طائفة وأجابت طائفة فمن أجاب يومئذ فهم المؤمنون وهم السعداء ومن أبى فهم الكافرون» .

فهذه [2] الأحاديث كلها في ذكر السابقة ولهذا روي عن بعض الصالحين

١ ـ الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الليل

٢ ـ وردت في الأصل (لهؤلاء) والصحيح ما أثبت

أنه قال : الناس يبكون على النهاية ، وأنا أبكي على البداية فمعنى النهاية الخاتمة ومعنى البداية السابقة والسابقة قاضية على الخاتمة ، فما يؤمنك أن تكون ممن سبق له في علم الله الشقاء ، فيختم لك بعمل أهل النار وتسلب الايمان عند الموت ، ولا يظهر لك ذلك إلا عند الموت . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾ [1] .

وقال : البشرى في ثلاث مواضع ، والبشرى بالخير والشر عند الموت ، وفي القبر ، وعند النشر .

فإن قال قائل : فما فائدة العمل حيث سبقت السابقة والخاتمة بالضرورة تبعت ؟

فاعلم ان ها هنا ثلاث مقامات يجب عليك تحصيلها بمعانيها وفوائدها هنالك تتضح لك فائدة العمل مع السابقة : أولها الربوبية ومعانيها ، والثانية العبودية وفوائدها ، والثالثة العلة وموجبها .

فالرب معناه المالك الآمر الناهي .

والعبد معناه المأمور المنهي ، وفائدة العبودية التصرف في المربوب بالامر والنهي والاثابة والعافية .

وفائدة العبودية الامتثال والطاعة والمعصية والترك والعلة الموجبة لسعادتك وشقاوتك العلم القديم الذي لا يتأتى في المعلوم خلافه وموجب العلة هو العمل فالعلم باطن لك والعمل ظاهر لك وتعبد الله تعالى بالظاهر الميسر لك ، وخوفك بالباطن المغيب عنك .

فانظر هل ينظر المأمور المقهور ان يقول علم الله الآمر أني لا امتثل امره فلا فائدة لأمري أو لا أنتهي فلا فائدة لنهي .

---

١ ـ الآية ٣٠ من سورة فصلت

أولا في هذا تعطيل الربوبية ومعانيها ، والعبودية وفوائدها والأمر والنهي .

وفوائد الربوبية وبماذا علم الله السعيد سعيدا والشقي شقيا بلا طاعة ولا معصية ومحال ذلك وقد سبق العلم بالطاعة كما سبق بالمطيع ، وسبق العلم بالمعصية كما سبق بالعاصي وان طلبت لهذا الشأن نظيرا من العلم فاطلبه في باب الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب والأجل المضروب والعمر مع الأمر بالتطبب .

واعلم ان جميع طاعتك وأعمالك موقوفة على باب خاتمة عملك وانقطاع اجلك .

قال الله عز وجل : ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق**﴾[1] اي بخاتمة العمل .

وقال ﷺ : «صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وصاحب النار يختم له بعمل أهل النار» ولا يختم عملك إلا عند خروج روحك فإن ختم لك بالعمل الصالح فما يضرك ما أسلفت من المعاصي فإن ختم لك بسوء العمل والكرة الخاسرة ، وسلبت الايمان عند الموت فما ينفعك عمل صالح قدمته فتذكر وتدبر .

وأعلم أنه أشبه شيء بقول رسول الله ﷺ : «يتفكرون في الموت عشرين مرة في اليوم والليلة ومن هذا اشفاق عباد الله المخلصين ، واخوف ما أخاف منه سلب الايمان عند الموت ، يلقى العبد خاسرا خائبا ذلك هو الخسران المبين» .

وروي عن ابي هريرة أنه بكى عند الموت فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ما

---

١ ـ الآية ١٩ من سورة «ق»

أنا باك على دنياكم هذه ولكن إنما أبكي لبعد سفري وقلة زادي وأنا أمسيت في صعود مهبطة على جنة أو نار ولا أدري على أيهما يؤخذ بي .

وروي عن بعض أنه بكى عند الموت فقيل له ما يبكيك ؟ قال سمعت الله يقول : **﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾**[1] ، وهذا وقت يبدو إلي فيه عملي فليس أدري ما يبدو لي منه .

وروي عن جابر بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أنه لما حضرته الوفاة دخل عليه ثابت البناني فقال له : أي شيء تشتهي يا أبا الشعثاء فقال له : ملاقاة الحسن والحسين اذ ذاك مستخف من الحجاج فجاء ثابت فأخبره فقال الحسن : كيف بالوصول اليه فقال ثابت : اركب بَغْلي وأردفك من وراء سرجي ، واغمرك بطيلساني وارجو ان لا يعرض لنا ، ففعلا حتى دخلا عليه ، فقال له الحسن :

يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله فسكت جابر رضي الله عنه .

فقال له الحسن : يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله فسكت ، فقال الحسن مرارا فقال له جابر : يا أبا سعيد أنا من أهلها في الدنيا وقد طال ما قلتها إن قبلت ولكن أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار . يا أبا سعيد اخبرني عن آية خروج نفس المؤمن ؟ فقال الحسن : برد يجده على قلبه ونفسه طامعة فقال جابر : اللهم اني اجد بردا على قلبي ونفسي طامعة في ثوابك لكرمك . اللهم فحقق رجاؤ ها وآمن محذورها وما أفاض بعدها بكلام .

المعنى الثالث من معاني الموت ، وهو ما أنت إليه صائر بعد خروج روحك من جسدك وصعود الملائكة بروحك إلى السماء ثم رجوعه بعد ذلك إلى جسدك ، وهول المطلع ، وضغطة القبر ، وسؤ ال الملكين ، وعذاب القبر قال

---

١ ـ الأيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الزمر

الله عز وجل : ﴿حتى إذا جاء احدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[1] .

ويقال : ان لملك الموت عليه السلام أعوانا من الملائكة يقبضون الأرواح بإذنه .

وقيل : هو القابض وحده ، ولكن الملائكة يأخذون من يده بعد القبض ملائكة الرحمة إذا كان من أهل الرحمة ، وملائكة العذاب إذا كان من أهل العذاب .

وقيل : جعلت الأرض لملك الموت عليه السلام كالطاسة يتناول منها حيث يشاء .

وقيل : أن الأرض تزوي لملك الموت عليه السلام أي تضم اليه .

وقال الحسن : إذا احتضر المؤمن نزل لشهود جنازته خمسمائة ملك يقبضون روحه ويعرجون به .

وقال ابن عباس : اذا احتضر المؤمن شهدته الملائكة وسلموا عليه ، وبشروه بالجنة ، وشهدوا غسله وكفنه ، ومشوا مع جنازته ، وصلوا عليه مع الناس .

وقال بعضهم إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن فيقول : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرئك السلام ويبشرك بالجنة .

وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لعبد الله يوم طعن . ادع لي طبيبا فدعاه فقال : لا اراه ان يمسي فقال عمر : الله اكبر وايقن بالموت فجعل من حوله يثنون عليه . فقال : المغرور والله من غررتموه ، والله

---

١ - الآية ٦١ من سورة الأنعام

لو كان لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع ووحشة القبر وكان رأسه في حجر عبدالله ولده فقال له : ضع خدي في الأرض ، فجعل يحك خده بالأرض ويقول : الويل لعمر وأم عمر ان لم يغفر الله له .

وقال بعض العارفين إن ملك الموت عليه الصلاة والسلام إذا ظهر للعبد أعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرات ما لو كانت الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا .

واعلم ان شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي ادركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه .

فأما القياس الذي يشهد له هو ان كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالآلم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هي الروح فمهما أصاب العضو جرح او حريق يسري الأثر الى الروح فبقدر ما يسري الى الروح يتألم ، والألم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء ولا يصيب الروح إلا بعض الأثر فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح ، ولا يلاقي غيره فاستغرق جميع اجزائه حتى لم يبق جزء من اجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابه الشوك وإنما يعظم آثر الاحتراق لأن اجزاء النار تغوص في سائر اجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا أو باطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر اجزاء اللحم .

وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي يمسه الحديد فقط فكان كذلك

ألم الجرح دون ألم النار ، أو ألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع اجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل .

وفي أصل كل شعرة وبشرة من القرن الى القدم فلا يسأل عن كربه وألمه حتى قالوا : إن الموت أشد من الضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلمه لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول والمباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب لبقاء قوته في قلبه ولسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة المه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وغلب على كل موضع فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة للاستغاثة .

وأما العقل فقد غشيه وشوشة ، وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد اضعفها ، ويود لو انه قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت منه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وأزبد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وجذب منه كل عرق على حياله فالآلم منتشر في داخله وخارجه ترفع الحدقتان الى أعالي جفونه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، ويرتفع الأنثيان الى اعالي موضعهما ، وتخضر أنامله فلا عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه فلو كان المجذوب عرقا واحدا لكان المه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المؤتلم المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من اعضائه تدريجيا أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة .

الباب الرابع والثلاثون

في عذاب القبر نعوذ بالله منه

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا الى القبر ولم يلحد بعد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا وكأن على رؤ وسنا الطير وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال : استعيذوا من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال : ان العبد المؤمن إذا كان في اقبال من الأخرة ، وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس المنيرة معهم كفن من اكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون معه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال : فتخرج وتسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فلا يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن والحنوط فتخرج منها رائحة كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن اسمائه حتى ينتهوا بها الى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربها الى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها الى السماء السابعة فيقول الله عز وجل : «اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه الى الأرض منها خلقتهم وفيها اعيدهم ومنها أخرجهم تارة اخرى»[1] ، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك

---

١ ـ حديث رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري

وما دينك فيقول : الله ربي فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام . فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت قال : فينادي مناد من السماء صدق عبدي فافرشوا له فراشا من الجنة ، وألبسوه لباسا من الجنة ، وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول : أبشر بالذي أبشرك هذا يومك الذي كنت توعد **﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**[1] فيقول له : من انت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح .

قال : وان العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال إلى الاخرة أنزل الله ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون معه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من الله وعذابه فينزعها كما ينزع السفود* من الصوف المبلول فتنقطع منها العروق والعصب فيأخذها فإذا اخرجها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في المسوح فتخرج منها أنتن ريح خبيثة فيصعدون بها على ملأ من الملائكة فيقولون ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون هذا فلان بن فلان بأقبح أسمائه حتى ينتهوا بها الى السماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : **﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾**[2].

ثم يقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتابه في سجين ثم تطرح روحه طرحا ثم قرأ : **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[3] .

---

١ ـ الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء

٢ ـ الآية ٤٠ من سورة الأعراف

٣ ـ الآية ٣١ من سورة الحج

فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان ويجلسان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول :هاه ما أدري . فيقولان له :ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه لا أدري . فينادي مناد من السماء كذب عبدي فافرشوا له فراشا من نار وألبسوه لباسا من نار ، وافتحوا له بابا من النار فيدخل عليه من حرها وسمومها فيضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح المنظر فيقول له : أبشر هذا يومك الذي كنت توعد فيقول من انت ؟ فيقول أنا عملك السيء فيقول : يا رب لا تقم الساعة يا رب لا تقم الساعة .

فإن سئل عن عذاب القبر كيف هو؟ قيل له : قد تكلم العلماء فيه واختلفت فيه الروايات .

قال بعضهم : يجعل الروح في جسده الى صدره .

وقال بعضهم تكون الروح بين جسده وكفنه وفي كل ذلك قد جاءت الآثار .

والصحيح عند اهل ـ لعله ـ العلم ان يقول الانسان بعذاب القبر ولا تشتغل بكيفيته ويقول الله اعلم وانما نعاين إذا صرنا إليه .

فإن أنكر احد سؤ ال منكر ونكير فإن انكاره لا يخلو من أحد الوجهين إما ان يكون هذا لا يجوز من قبيل لعله من قِبَل العقل إذ هو خلاف الطبيعة أو يقول يجوز ولكن لا يثبت فإن قال لا يجوز من طريق العقل فإن قوله يؤ دي الى تعطيل الرسل وابطال معجزاتهم لأن الرسل كانوا من الآدميين وطبيعتهم مثل طبيعة غيرهم وقد شاهدوا الملائكة وانزل عليهم وانفلق البحر لموسى بن عمران عليه السلام ، وصارت العصا ثعبانا فهذا كله خلاف الطبيعة فمن أنكر هذا خرج من الاسلام من حيث دخل ، وان قالوا يجوز ولكن لم يثبت فقد روينا من الأخبار ما فيه مقنع لمن سمعها ، وفي كتاب الله تعالى دليل على ذلك

قال الله تعالى : ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1]

قال ابو هريرة قال رسول الله ﷺ : «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعين ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر» هل تدرون فيما أنزلت : ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ ؟[2] قالوا : الله ورسوله اعلم قال : عذاب الكفار في قبورهم يسلط عليهم تسعة وتسعين تنينا هل تدرون ما التنين ؟

تسعة وتسعين حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه الى يوم القيامة .

---

١ - الآية ٢٧ من سورة ابراهيم

٢ - الآية ١٢٤ من سورة طه

الباب الخامس والثلاثون

في صفة الحشر

ابن عباس عن النبي ﷺ : «ان الشمس لا تزال تجري إلى مغربها حتى يأتي الوقت الذي جعل الله لتوبة عباده فتستأذن من أين أطلع ويستأذن القمر من اين أطلع فلا يؤذن لها فيحبسان مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف مقدار حبسهما إلا قليل من الناس وهم بقية أهل الأرض وحملة القرآن فيقرأ كل واحد منهم ورده في تلك الليلة حتى إذا فرغ منه نظر واذا الليلة على حالها فلا يعرف طول تلك الليلة ثلاث ليال إلا حملة القرآن فينادي بعضهم بعضا فيخرجون من مساجدهم بالتضرع والبكاء بقية تلك الليلة ثم يرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام الى الشمس والقمر فيقول إن الرب يأمركما ان ترجعا من مغربكما فتبكي الشمس والقمر من خوف يوم القيامة فيرجعان ويطلعان من مغاربهما فبينما الناس كذلك يبكون ويتضرعون الى الله عز وجل والغافلون في غفلتهم نادى مناد ألا إن باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما .

قال : فينظر الناس فإذا بهما اسودين كالعلمين كلفا لا ضوء لهما ولا نور فذلك قوله تعالى : ﴿**وجمع الشمس والقمر**﴾[1] فيرتفعان مثل البعيرين المقرونين ، ينازع كل واحد صاحبه استباقا ، ويتصايح اهل الدنيا ، وتذهل

---

١ - الآية ٩ من سورة القيامة

الأمهات وتضع كل ذات حمل حملها .

فأما الصالحون والأبرار فإنهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة .

وأما الفاسقون والفجار فلا تقبل منهم توبتهم ولا ينفعهم بكاؤهم ويكتب عليهم عبرة .

فإذا بلغت الشمس والقمر سرة السماء وهو نصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرنها فردهما الى المغرب ولا يغربها في مغاربها ، ولكن يغربها في باب التوبة . فقال عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ للنبي ﷺ : وما باب التوبة . قال : يا عمر خلق الله بابا للتوبة خلف المغرب وهو من ابواب الجنة له مصراعان من ذهب مكلل بالدر والجواهر ما بين المصراع الى المصراع مسيرة اربعمائة عام للراكب المسروع [1] فذلك الباب مفتوح مذ خلق الله خلقه الى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربها فإذا اغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها إلا ما كان قبل ذلك قوله عز وجل : ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها﴾ [2] الآية ، قال وهب : تقبل الساعة من قبل المغرب كأنها سحابة خضراء يعلوها سواد فإذا نظروا إليها ظنوا أنها رعد ومطر فيسرعون إليها على الخيل والسلاح فإذا انتهوا اليها ماتوا ويموت من بقي في مواضعهم .

ويقال : إنه إذا نفخ في الصور النفخة الأولى لم يبق شيء من خلق الله إلا هلك كل منهم على مكانه في الدور والأسواق والطرق وشعاب الجبال وبطون الأودية والبحار ووجدت في قوله تعالى : ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ [3] هو طلوع الشمس من مغربها فإذا طلعت الشمس من مغربها

---

١ ـ هكذا في الأصل ولعله يقصد المسرع أو السريع

٢ - الآية ١٥٨ من سورة الأنعام

٣ - الآية ١٥٨ من سورة الأنعام

اغلق باب التوبة .

ويوم القيامة هو اليوم الآخر وانما دعاه الناس بيوم القيامة واليوم الآخر يريد بذلك أن يقروا باليوم الأخر أما هو كما نقول أشهد أن محمدا رسول الله وان محمدا هو نبي الله .

ويوم القيامة هو من الآخرة وهو اليوم الآخر والدنيا لها طرف معلوم قد علمه الله تبارك وتعالى فإذا انقضت الدنيا وتناهت وبلغت غايتها جاءت الآخرة .

والله تبارك وتعالى جعل انقضاء الدنيا بالنفخة الأولى فإذا نفخ في الصور النفخة الاولى فني اهل الدنيا ثم نفخ فيه الثانية فيبعث الناس .

وكانت القيامة والله أعلم ما بين النفختين بينهما وقت أم لا والله تعالى يفني الدنيا ، ويفني ارضها وسماءها وهوامها وحيوانها ومواتها ، والموات هي الحجارة واشباهها الذي لا روح[1] فيه ثم يستقر الناس في الآخرة إذا بعثوا فحينئذ ذهب عنم ، وصاروا في الخلود في الجنة والنار وكذلك الثقلين من الجن والانس .

وأما غيرهم فالله اعلم ما يفعل بهم وانما علينا بما كلفنا الله تعالى بمعرفته وما ستره عنا وعذرنا بجهله فليس علينا تكلفة من أمر الله عز وجل وقد يقال إن الناس اذا ماتوا فهم في برزخ الى يوم يبعثون .

وعن ابن عباس ان بين النفخة الاولى والثانية اربعين سنة وأن في النفخة[2] ترد فيهم الارواح ويمطرون كَمنيٍّ الرجال فينبتون ثم ينفخ في الثانية فتخرج الخلائق من قبورهم على الأرض .

فأما المؤمنون فيسرعون إلى الداع ، ويتثاقل المشركون والمنافقون فيبعث

---

١ ـ وجدت في الأصل (لا فيه روح)

٢ ـ أي في النفخة الثانية

الله عليهم دخانا يسوقهم الى المحشر عميا فذلك قوله عز وجل : **﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾** [1] ، وعن النبي ﷺ : «بين النفختين أربعين» ولم يزدهم على ذلك ولم يسأل اربعين ليلة أم اربعين شهرا .

وعن وهب والحسن : فأما بين النفختين لا من الدنيا ولا من الآخرة ، ولا ينام اهل النار الا بين النفختين وذلك قوله تعالى : **﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا﴾** [2] الآية .

وقال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن اسرافيل واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص ببصره نحو العرش ، فينظر حتى يؤمر ، فينفخ النفخة الاولى ، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض ، اي مات كل حيوان من شدة الفزع الا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل ثم روح اسرافيل ، ثم يؤمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله تعالى اسرافيل فيأمره ان ينفخ الثانية ؛ فذلك قوله تعالى : **﴿ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام﴾**[3] على ارجلهم ينظرون الى البعث .

---

١ ـ الآية ١٠٢ من سورة طه
٢ ـ الآية ٥٢ من سورة يس
٣ ـ الآية ٦٨ من سورة الزمر

الباب السادس والثلاثون

في ذكر الحساب

وقيل : إذا أراد الله إعادة الخلق أحيا اسرافيل وأمره بالنفخة الثانية فنفخ فقيل انه يقول في نفخته الثانية : أيتها الأرواح الفانية ، والأجساد البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتناثرة ، والعروق المتقطعة ، والعظام النخرة ، قوموا الى محاسبة الجبار .

قيل : فتظهر القبور وتنشق الأرض عنهم ويقومون من قبورهم شعثا غبرا سعيا الى الصوت ولا أحد يتكلم .

ويقال : ربما وقعت عين الانسان على من يعرفه فيثبت معرفته ، ولا يتكلم أحد لصاحبه .

ويقال : انهم إذا قاموا والجبال تنقلع فيقول قائلهم : قامت الساعة ورب السماء ، ولا تسمع صوتا إلا صوت الصور إلا همسا كما قال الله تعالى ؛ هو وطء الأقدام حتى ينتهي بهم الى العرصة[1]

ويقال : ان معنى قوله عز وجل : ﴿فلا تسمع إلا همسا﴾ [2] ، الا ضجيج الأقدام على الأرض ولا أحد يتكلم .

---

١ ـ العرصة : المكان الواسع ليس به بناء

٢ ـ الآية ١٠٨ من سورة طه

قال الخليل : خفق الأقدام على الأرض .

وقال أبو عبيدة : ﴿إلا همسا﴾ إلا صوتا خفيا فإذا صاروا على عرصة يوم القيامة وقفوا بين يدي الجبار برؤوس مقنعة ، وأبصار خاضعة . قال رسول الله ﷺ : «يبعث الناس حفاة عراة قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» .

قالت سودة زوج النبي ﷺ : قلت : يا رسول الله ؛ واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض . قال : «شغل الناس عن ذلك» ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[1] .

وقال ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة بهما» واحدها بهيم يعني ليس فيهم امراض الدنيا يعني أنها أجساد مبهمة صحيحة .

وقال ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كعرض النقى ليس فيها معلم لأحد» .

قال الراوي : العفرة بياض ليس بالناصع ، والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ، ولا معلم أيْ لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر قال الله تعالى : ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾[2] .

قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظي ارض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة والسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

وقال كعب وقتادة : ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[3] ، قال ثلاثمائة عام .

وقال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : «والذي نفسي

---

١ - الآية ٣٧ من سورة عبس

٢ - الآية ٤٨ من سورة ابراهيم

٣ - الآية ٦ من سورة المطففين

بيده انه ليخفف عن المؤمن حتى يكون اهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» .

ويقال : ان أول من تنشق عنه الأرض رسول الله ﷺ فيقوم فإذا هو بجبريل عليهما السلام فأول ما يسأل عنه جبريل أن يقول له : يا حبيبي جبريل ما فعل الله بأمتي ؟ فيقول : يا محمد قد اعطاك الله في الجنة عطاء إذا رأيته يسرك فيقول : يا حبيبي جبريل ليس عن هذا سألتك أتركتهم في الأغلال فيقول يا محمد ما لفظت الأرض انسيا قبلك .

وقال وهب : يدعو الرب تعالى بالشمس والقمر فيجاء بهما أسودين مكورين كالعلمين ترتعد فرائصهما من هول ذلك اليوم ومخافة الرحمن فإذا كانا حيال العرش خرا ساجدين فيقولان : إلهنا قد علمت طاعتنا لك ودؤ وبنا في طاعتك وسرعتنا للمضي في أمرك أيام الدنيا ولياليها فلا تعذبنا بعبادة المشركين لنا قد علمت أنا لم ندع إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك فيقول الرب تبارك وتعالى : صدقتما فإني قد قضيت على نفسي أبدىء واعيد واني أعيدكما الى ما بدأتكما منه فارجعا الى ما خلقتكما منه فيقولان : ربنا ومما خلقتنا ؟ فيقول : خلقتكما من نور عرشي فارجعا إليه فيلمع كل واحد منهما برقه يكاد يخطف الأبصار نورا فيختلطا بنور العرش فذلك قوله تعالى : ﴿يبدىء ويعيد﴾ [1] ثم لا يكون بعد ذلك شمس ولا قمر .

وقيل : إن أول من يحاسب يوم القيامة اسرافيل يؤتى به حتى يوقف بين يدي الله عز وجل وانه ليرتعد من خوف الحساب وما عصى الله طرفة عين قوله تعالى : ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [3] ،

---

١ - الآية ١٣ من سورة البروج

٢ - الآية ٦ من سورة الأعراف

٣ - الآيتان ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر

فيبدأ بالأنبياء ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا﴾[1] إلا ما علمتنا .

فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذا يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم الى الخلائق وكان قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا انك انت علام الغيوب ، وهم في ذلك الوقت صادقون اذ طارت فيه العقول وامحقت إلى ان يقويهم الله تعالى فيدعى بنوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من بشير ولا نذير .

ويؤتى بعيسى بن مريم فيقول الله تعالى : ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله﴾ [2] فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال .

فيا اعظم يوم يقام فيه على الانبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان بن فلانة هلم الى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام ان يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح اعمالهم إلى الجبار ، ولا يكشف سترهم علام الغيوب على ملأ من الخلق .

قال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة بين يدي الله تعالى حتى يسأله عن اربع خصال ، عن عمره فيما افناه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن جسمه فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما أنفقه .

وقيل ان العبد تنشر له سنته في الآخرة شهورا ، وتبسط شهوره أياما ، وتفرش أيامه ساعات ، وتكشف ساعاته انفاسا ثم يسأل عن كل نفس وينشر له بكل فعلة فعلها وان صغرت ثلاثة دواوين الديوان الأول لما فعلت وهذا

---

١ - الآية ١٠٩ من سورة المائدة

٢ - الآية ١١٦ من سورة المائدة

مكان الابتداء بالكلام فإن سلم له نشر له الديوان الثاني وهو كيف فعلت وهذا موضع المطالبة بصحة العمل فإن صح له هذا نشر له الديوان الثالث وهو لما فعلت وهو مكان المطالبة بالاخلاص فإن بكيف او بلم أو لم خيف عليه إلا ان يعطف الله عليه بحيث لا يحتسب فيستنقذه وقد قال الله تعالى : ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾[1] ، أي احضرناها .

ويقال : إن العبد تعرض له ساعاته في اليوم والليلة فيراها ـ لعله ـ خزائن موضوعة اربعا وعشرين خزانة فيرى في كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء بما أودع خزائنه في الدنيا .

فكل ساعة في الدنيا لم يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة ، ولا عطاء ولا جزاء عليها فيسوؤه ذلك فيتحسر كيف اذ لم يدخر فيها شيئا ، لو لم يتحسر العبد إلا على فوت الفضائل والمندوب اليه من الخيرات لكان في فوت المسابقة والمسارعة حسرات فكيف بمن فاته أوقاته بالسيئات ، وفرطت منه بالخسارات ولو لم يشتغل العبد في عمره الا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانا له من الدرجات فكيف بمن شغل بالمحظورات فسبحان الله ما أعظم الخطر وأصعب الأمر .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : لو لقيت الله تعالى بعمل سبعين نبيا لخشيت أنك لا تنجو من اهوال يوم القيامة ، ولو ان عبدا كان يجر على وجهه من اول الدنيا الى قيام الساعة في طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة لما يرى من الزلازل .

ثم لا تغفل عن تطاير الكتب شمالا ويمينا [2] فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق .

---

١ ـ الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

٢ ـ وردت في الأصل الى الشمائل والايمان

فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلفظهم لفظ الطير الحبة ، وينطوي عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار فينادى عليهم بشقاوة لا سعادة بعدها

وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد : ليقم الحامدون الله تعالى على كل حال فيقومون ويسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل بمن لم تشغله تجارة في الدنيا ولا بيع عن ذكر الله فينادى عليهم بسعادة لا شقاوة بعدها .

قال : والقسم الثالث تركت ذكره لما بان لي في ضعفه لأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿إما شاكرا وإما كفورا﴾ ،[1] وقال : ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ .[2]

وليس بين ذلك منزلة ثالثة والله اعلم :

قال الشيخ أحمد بن الفطر :

ماذا تقول اذا وقفت محاسبا ... وسئلت عن لقلاقك الفتان
اذ كل نفس عند ذاك رهينة ... يوم الحساب وكل وجه عان
بجراءة بارزته متعرضا ... للقاء من يلقاك بالنيران
لما تشققت السماء فاقبلت ... بدخانها فأتتك بالدخان
إذا سدت الشفتان ثم استنطقت ... وتكلمت بذنوبك الرجلان
فهناك لا وزر سوى ما قدمت ... عند الحساب يداك من قربان
وهناك ليس سوى الذي قدمته ... عذرا من النقصان والرجحان
في موقف عكفت به اهواله ... ضنك يشيب ذوائب الولدان
وتطايرت فيه الصحائف كلها ... بشمائل الايدي وبالايمان

١ - الآية ٣ من سورة الانسان

٢ - الآية ٧ من سورة الشورى

هـذا كتابـك يا شقي بكـل ما	أتيت من قبـح ومـن إحسـان
فيـه الصغائـر والكبائـر احصيت	ما غاب عن إحصـائها الملكـان
امـا تجـر الى الجحيم مكبـلا	ومسـر بـلا بسـرابـل القـطران
فخسرت نفسك خالدا في قعرها	هـذا وجـدك أخسـر الخسـران
وان تـزورك بـالسـلام مـلائـك	تسليمهم بـالـروح والـريحـان
في جنـة الفـردوس جـار محمـد	ورفيق خـازن بـابهـا رضـوان

قال أبو الحسن ـ رحمه الله ـ أما الكتاب الذي يعطى ابن آدم فالله اعلم ما هو إلا أنه كتاب مرقوم أي مختوم كما قال الله تعالى يريهم فيه حسناتهم وسيئاتهم ، فالمؤمن يرى حسناته مثبتة وسيئاته مكفرة فيسره ذلك .

والكافر يرى حسناته محبطة وسيئاته مثبتة فيسوؤه ذلك قال : واقول إن هذا الكتاب يكون عند حفظته الذين كانوا يكتبون عليه حسناته وسيئاته وشهوده الذين يشهدون عليه كما قال الله تعالى : ﴿**وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد**﴾[1] ويوجد في الآثار وفي بعض القول ان الحفظة يرفعون الأعمال الى حفظة آخرين وينسخون ذلك ويثبتونه في اللوح المحفوظ والله اعلم بذلك .

وحال المؤمنين يوم القيامة كما قال الله عز وجل : ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾[2] الآية .

وقوله : ﴿**يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا**﴾[3] ، اي ركبانا .

وقال عز وجل : ﴿**ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة**﴾[4] .

---

١ ـ الآية ٢١ من سورة «ق»
٢ ـ الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء
٣ ـ الآية ٨٥ من سورة مريم
٤ ـ الآية ٢٦ من سورة يونس

وقـال تعالى : ﴿فـوقاهم الله شـر ذلك اليـوم ولقـاهم نضـرة وسرورا﴾[1] .

---

١ ـ الآية ١١ من سورة الانسـان

الباب السابع والثلاثون

في ذكر الشفاعة والحوض

قال ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا ، وأعطيت الشفاعة ، وبعث كل نبي إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[1] .

وقال : «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر» .

وقال : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض وأنا أول شافع ومشفع ، وبيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه»[2] .

وروى ابن عمر لما نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[3] قال رسول الله ﷺ : «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأشد ريحا من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان» .

وعن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ؛ ما آنية الحوض ؟ قال : «والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة

---

١ ـ أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه

٢ ـ أخرجه الترمذي عن ابن عباس

٣ ـ الآية ١ من سورة الكوثر

المصحية ،[1] من شرب منه شربة لم يظمأ» .

ويقال : إنه ﷺ لا يزال واقفا في عرصة القيامة حتى ينطلق من أمته باثنتي عشر زمرة بالأدلة بين أيديهم والأعلام المرفوعة .

وقيل : إنه ﷺ يرى أقواما ما كان يعرفهم يرمى بهم إلى جهنم فيقول : «هؤلاء كانوا عندي وهم من أمتي» فيقال له : يا محمد ؛ لم تدر ما أحدثوا بعدك ؟ فيشير بيده شبه الأمر ويقول : «بعدا وسحقا» ثم ينصرف ﷺ إلى الجنة . ألحقنا الله به وحشرنا في زمرته وعلى منهاجه .

وروي عنه ﷺ أنه قال : «إذا كان يوم القيامة واجتمع الناس في صعيد واحد نادى مناد : أين النبي العربي ؟ فيقول الأنبياء : إن فينا عربا فأيهم تريد ؟ بيّن بيّن . فيقول : أين النبي العربي المكي المدني محمد بن عبدالله ؟ فأقوم فأقول : هأنذا فأنطلق حتى أخر ساجدا بين يدي العرش فيقول الله : يا محمد ؛ ارفع رأسك واشفع تُشفَّع ، واسأل تعط . فأرفع رأسي فأقول : رب أمتي فيقول : ادع أمتك . فأنادي أمتي فأقول : ألا هلموا فقد دعيتم للحساب فأشفع إلى الله ـ تعالى ـ فأشفع فيهم فهو المقام المحمود الذي وعدنيه ربي» قال : فقال النبي ﷺ : «إن ذلك المقام يرغب إلي فيه الخلق حتى إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ» .

قال أبو سعيد : وكذلك شرف الله نبينا محمدا في الموقف وترغب الأنبياء في الشرب من حوضه كما رغبوا إليه في المقام المحمود .

ويقال والله أعلم : ان في القيامة عشرين ومائة صف فثمانون صفا منها أمة محمد ﷺ وأربعون صفا من سائر الأمم .

قال أبو الدرداء : ليس لك إلا موضع قدم ، ولا ظل إلا ظل العرش .

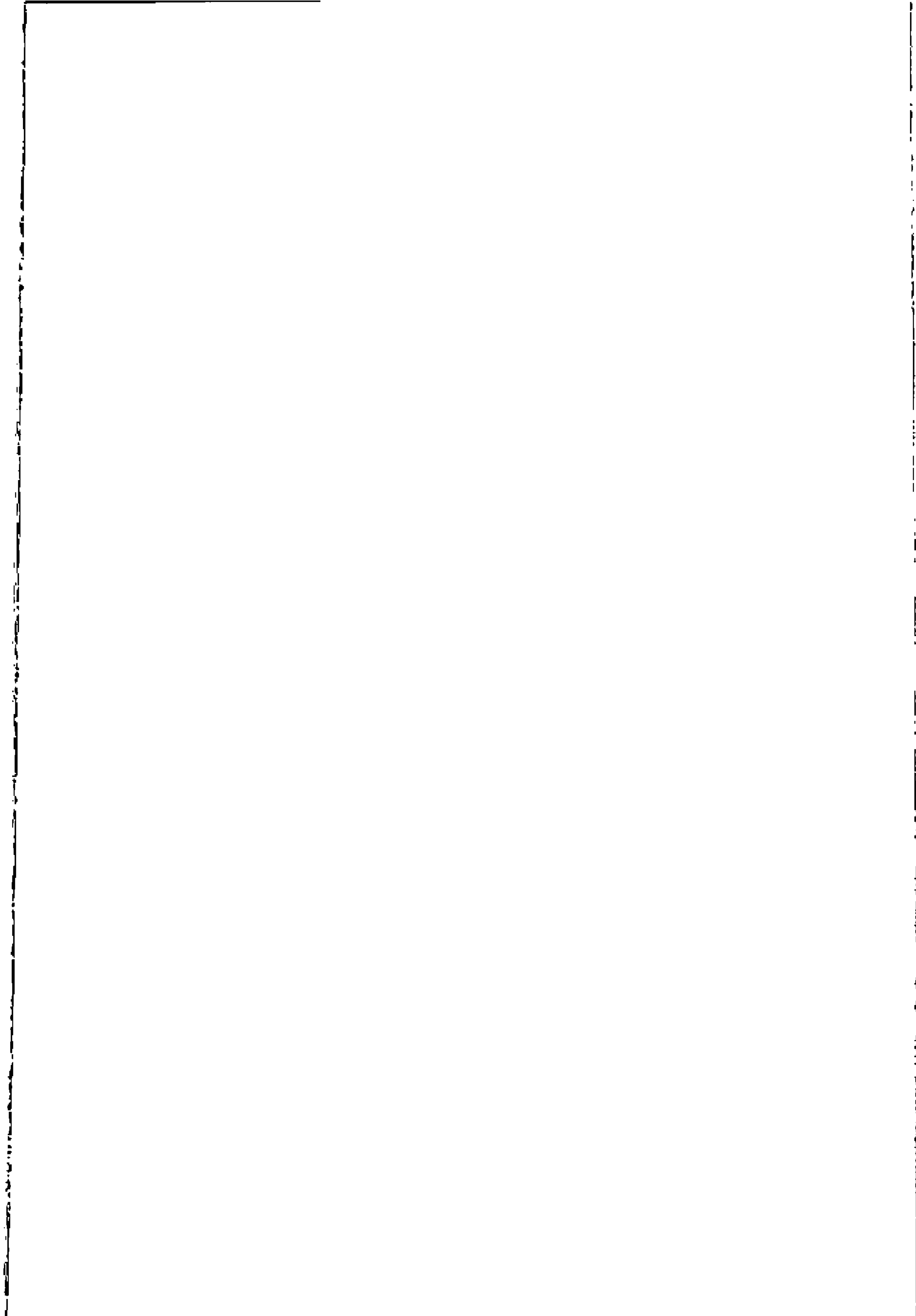
---

١ ـ أي الليلة التي تكون فيها السماء صافية ونجومها ساطعة

وقال أبو الحسن ـ رحمه الله ـ : قد قيل إن مقدار القيامة خمسون ألف سنة والله أعلم .

إلا أني أقول إن يوم القيامة هو يوم ـ لعله ـ من أيام الآخرة .

وقيل : مقدار ذلك اليوم كألف سنة مما تعدون .



الباب الثامن والثلاثون

في ذكر النار نعوذ بالله منها

أيها الغافل المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء ؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت أن النار مورد للجميع ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**﴾[1] فأنت من الورود على اليقين ، ومن النجاة على شك ، فاستشعر في قلبك هول ذلك الورود فعساك تستعد للنجاة بالتشمير لأعمالها وتأمل حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كروبها وأهوالها واقفين ينظرون حقائق أنبائها ، وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأطلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فأيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البريء من سوء المنقلب وخرج المنادي من الزبانية أين فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره في سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقه إلى عذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير فشرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم

---

١ ـ الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة مريم

إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلم المعاصي ، ينادون من أكنافها ويضجون في أطرافها ؛ يا مالك قد حق بنا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود . فيقول الزبانية : هيهات ؛ لات حين مناص ولا أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسأوا فيها ولا تكلمون لو أخرجتكم لكنتم إلى ما نهيتم عنه عائدين فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ولا ينفعهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل فهم يتجلجلون فيها وفي مضائقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤ وسهم الحميم ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد﴾[1] تهشم جباههم فينفجر الصديد من أفواههم فتقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، وتسقط من الوجنات لحومها ، وتتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وعريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنشأ في لفح تلك النيران يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم ، وقد اسودت وجوههم أشد سوادا من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وجدعت آذانهم ، وأخرست ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمعت بين نواصيهم أقدامهم وهم يمشون على وجوههم في النار ، ويطأون حسك الحديد بأحداقهم فلهب النار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذه جملة أحوالهم .

---

١ ـ الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الحج

وانظر الآن في تفصيل أهوالهم ، وتفكر أولا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي ﷺ : «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله» .

وقال علي : قال رسول الله ﷺ : «تعوذوا من جب الحزن أو وادي الحزن» قيل : يا رسول الله ﷺ ؛ وما وادي الحزن ، أو جب الحزن ؟ قال : «واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة ، أعده الله للقراء المرائين» . فهذه سعة جهنم ، والشعاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها ، وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها العبد يعصى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن إلى عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي إرب من الدنيا إلى إرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلى هاوية أعمق منها ، قال النبي ﷺ : «إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه» .

وقال ـ عليه السلام ـ : «أمر الله ـ تعالى ـ إلى النار ـ لعله بالنار ـ حتى أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» .

وقد قال بعض العلماء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿تلفح وجوههم النار﴾[1]، أي لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته على أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا إلى أنتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقوا فيه وهو الغساق .

---

١ - الآية ١٠٤ من سورة المؤمنون

قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : «لو أن دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض» . فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾[1] ثم إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾[2] وقال : إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم وقال ـ تعالى ـ : ﴿تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية﴾[3] . وقال : ﴿وطعاما ذا غصة﴾[4] .

وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه في ذلك» .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون طعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذا غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب فيدفع إليهم الحميم بكلالب الحديد فإذا دنت من وجوههم فإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا بخزنة جهنم أن : ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب﴾[5] فيقولون : ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في

---

١ ـ الآية ٢٩ من سورة الكهف
٢ ـ الاية ٥٢ من سورة الواقعة
٣ ـ الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الغاشية
٤ ـ الآية ١٣ من سورة المزمل
٥ ـ الآية ٤٩ من سورة غافر

ضلال﴾[1] . قال : فيقولون ادعوا مالكا فيدعون ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾[2] قال : فيجيبهم ﴿إنكم ماكثون﴾[3] .

قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم . فيقولون : ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾[4] قال : فيجيبهم ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[5] قال : فعند ذلك ييأسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل .

قال أبو امامة : قال رسول الله ﷺ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ويسقى من ماء صديد﴾[6] قال : «يقرب إليه فيكرهه فإذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه ، وإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره» يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم﴾[7] .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾[8] فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن إلى حياة جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وأعظم أشخاصها وفظاعة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة .

وقال رسول الله ﷺ : «ان في النار لحيات مثل أعناق الابل يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا» . وهذه العقارب والحيات إنما تسلط على

---

١ - الآية ٥٠ من سورة غافر
٢ - الآية ٧٧ من سورة الزخرف
٣ ـ الآية ٧٧ من سورة الزخرف
٤ - الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة المؤمنون
٥ ـ الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون
٦ ـ الآية ١٦ من سورة ابراهيم
٧ - الآية ١٥ من سورة محمد
٨ - الآية ٢٩ من سورة الكهف

من تسلط عليه البخل في الدنيا وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له .

ثم تفكر بعد هذا كله في عظم أجسام أهل النار فإن الله يزيد في أجسامهم وأشخاصهم طولا وعرضا حتى يتزايد عقابهم بسببها فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائهم دفعة واحدة على التوالي .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث فراسخ وأيام والله أعلم» .

وقال رسول الله ﷺ : «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه» .

وقال ﷺ : «إن الكافر ليجر لسانه في سجين الفرسخ والفرسخين يوم القيامة يتوطأه الناس وهم مع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار كرات فتجدد جلودهم ولحومهم» .

قال الحسن : ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾ [1] قال : تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فإن ذلك يسلط عليهم في أول لقائهم النار .

قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك» .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون

---

١ ـ الآية ٥٦ من سورة النساء

حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى تبقى وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت» .

وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستَرْوَح[1] ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك .

قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يكلموا بعدها أبدا فيقولون : ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾[2] فيقول الله ـ تعالى ـ مجيبا لهم ذلك : ﴿ذلك بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾[3] ثم يقولون : ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾[4] فيجيبهم الله ـ تعالى ـ : ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾[5] (الآية) ثم يقولون : ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾[6] فيجيبهم الله ـ تعالى ـ : ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[7] فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب .

وقال عيسى ـ عليه السلام ـ : كم من وجه صحيح ـ لعله صبيح ـ وجسد صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح .

واعلم أن النار خلقها الله ـ تعالى ـ بأهوالها وخلق لها أهلا ولا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وانذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾[8] .

---

١ ـ يجدون في ذلك راحة

٢ ـ الآية ١١ من سورة غافر

٣ ـ الآية ١٢ من سورة غافر

٤ ـ الآية ١٢ من سورة السجدة

٥ ـ الآية ٣٧ من سورة فاطر

٦ ـ الآية ١٠٦ من سورة المؤمنون

٧ ـ الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون

٨ ـ الآية ٣٩ من سورة مريم

ولعمري الاشارة إلى يوم القيامة ولكن ما قضي الأمر يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء .

قال الناسخ : فما أجل الأمر واعظم الخطر فطوبى لمن سبقت له من الله الحسنى فسلك سبيل التقوى وزحزح من النار في العقبى وكان من أهل النعيم في جوار النبي الكريم الرؤوف بالمؤمنين الرحيم .

الباب التاسع والثلاثون

في الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن الدار التي عرفت غمومها وشرورها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها ، وأن من بعد من إحداهما استقر لا محالة في الأخرى ، فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بصوت الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم ، وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ [1] جالسين على منابر من الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على الأرائك منصوبة على أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ [2] ، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ [3] يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيتها حمل أعطافها سبعون من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ما يتحير فيه الأبصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في قصور من الياقوت يبنين في روضات الجنان قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب

---

١ ـ الآية ٢٥ من سورة المطففين

٢ ـ الآية ٥٨ من سورة الرحمن

٣ ـ الآية ٧٤ من سورة الرحمن

وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ولا يخافون فيها ولا يحزنون ، وهم عن ريب المنون آمنون فهم فيها يتمتعون ويتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أرضها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أزفر ونباتها زعفران ويمطرون فيها من سحاب فيها من ماء النسيم على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي أكواب ، أكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق من نور من صفاء جوهرة يبدو الشراب من ورائه مرقته وحمرته لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في اشراقها ، ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه ، وملاحة أحداقه ، فياعجبا لمن لم يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن أنه لا يموت أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله ـ تعالى ـ في خرابها ، ويتهنى بعيش دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والعطش والجوع وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا أن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرُّم والتنغُّص من ضرورته ، كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور يجتمعون متمتعون لهم فيها ما يشتهون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : «ينادي مناد آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وآن لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبدا وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وآن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا» فذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ونودوا أن

تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[1] ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس بعد بيان الله بيان فاقرأ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[2] إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور ، وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها ، وتأمل أولا عدد الجنان .

قال رسول الله ﷺ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال : «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما» ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعة كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة» .

وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد .

عن علي قال : ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا﴾[3] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة تخرج من تحت ساقيها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كأنما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى وبأس ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تغير شعورهم[4] بعدها ولا تتشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة فقالوا ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[5] ثم يلقاهم

---

١ ـ الآية ٤٣ من سورة الأعراف
٢ ـ الآية ٤٦ من سورة الرحمن
٣ ـ الآية ٧٣ من سورة الزمر
٤ ـ وردت في الأصل (أسعارهم) والصحيح ما أثبت
٥ ـ الآية ٧٣ من سورة الزمر

الولدان يطوفون بهم كما يطوف ولدان الدنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر يا عبدالله بما أعد الله لك من الكرامة ثم قال : فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي يدعا به في الدنيا قالت : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو يأتي فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى اسفكت بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله قدره لألم أن يذهب بصره ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه **﴿وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة﴾**[1] ثم اتكأوا فقالوا : **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾**[2] .

ثم ينادي مناد : تحيون ولا تموتون أبدا ، وتقيمون ولا تظعنون أبدا ، وتصحون ولا تمرضون أبدا .

وقال ﷺ : «آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها ، وأن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا كما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فإن كنت أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة وفيها قال الله ـ تعالى ـ : **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة . .﴾**[3] (الآية) .

وقال ـ تعالى ـ : **﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**[4] .

---

١ - الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ من سورة الغاشية
٢ ـ الآية ٤٣ من سورة الأعراف
٣ ـ الآية ١٣٣ من سورة آل عمران
٤ ـ الآية ٢٦ من سورة المطففين

قال رسول الله ﷺ : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما يتراءون الكوكب الذي زي ـ لعله الدُّري ـ في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهما» .

وقال أيضا : «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وأن أبا بكر وعمر منهم» .

وقال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : «ألا أحدثكم بغرف الجنة ؟» قال : قلت بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال : «ان في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، وفيها النعيم واللذات والسرور ، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت» قال : قلت يا رسول الله لمن هذه الغرف ؟ قال : «لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وداوم الصيام وصلى بالليل والناس نيام» .

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾[1] قال : «قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن كل غداة من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع» .

قال رسول الله ﷺ : «إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ترابها زعفران وطينها مسك» .

وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال : «درمكة بيضاء مسك خالص» .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يسقيه الله ـ تعالى ـ

---

١ - الآية ٧٢ من سورة التوبة

الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا» .

قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها فاقرأوا إن شئتم : ﴿وظل ممدود﴾[1] .

أقبل أعرابي فقال : يا رسول الله ؛ قد ذكر الله ـ تعالى ـ في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة مؤذية تؤذي صاحبها ، فقال ـ عليه السلام ـ : «ما هي : قال : هي السدر فإن له شوكا فقال : قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وسدر مخضود﴾ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما منها لون يشبه الآخر .

وقال أبو هريرة : قال ـ عليه السلام ـ : «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقيها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا وفي رواية أنه على كل زوجة سبعين حلة» .

وقال ـ عليه السلام ـ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾[2] .

ويقال : ان عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب .

---

١ - الآية ٣٠ من سورة الواقعة

٢ - الآية ٣١ من سورة الكهف

وقال ـ عليه السلام ـ : «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراه الآخرون» رواه البخاري في الصحيح .

قال ابن عباس : الخيمة درة مجوفة طولها فرسخ ولها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

وقال أبو سعيد : قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وفرش مرفوعة﴾[1] قال : ما بين كل ـ لعله فراش ـ كما بين السماء والأرض» .

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها﴾[2] .

وذكر الله ـ تعالى ـ ثواب[3] في مواضع كثيرة .

وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال : يا أبا القاسم ؛ ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ وقال لأصحابه : إن أقر لي خصمته . فقال ﷺ : «والذي نفسي بيده إن أحدهم يعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والجماع» . فقال اليهودي : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة . فقال ـ عليه السلام ـ : «عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر» .

وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : «إنك تنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا» .

وقال حذيفة : قال ـ عليه السلام ـ : «إن في الجنة طيرا كأمثال النجابي»

---

١ ـ الآية ٣٤ من سورة الواقعة

٢ ـ الآية ٢٥ من سورة البقرة

٣ ـ هكذا وردت بالأصل ولعله يقصد أنواع نعيم الجنة

فقال أبو بكر : إنها لناعمة يا رسول الله فقال ـ عليه السلام ـ : «أنعم منها الذي يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر» .

وقال عبدالله بن عمر في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾[1] قال : يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب في كل صحيفة فيها لون ليس في الأخرى .

وقال أبو الدرداء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ختامه مسك﴾[2] قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به في آخر شرابهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال : «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة ـ لعله ـ خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينها رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» ـ يعني الخمار ـ .

قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾[3] قال : «تنظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقيها من وراء ذلك» .

وقال مجاهد : في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وأزواج مطهرة﴾[4] يعني من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والنجاسة والمني والولد .

الآية ٧١ من سورة الزخرف

٢ ـ الآية ٢٦ من سورة المطففين

٣ ـ الآية ٥٨ من سورة الرحمن

٤ ـ الآية ١٥ من سورة آل عمران

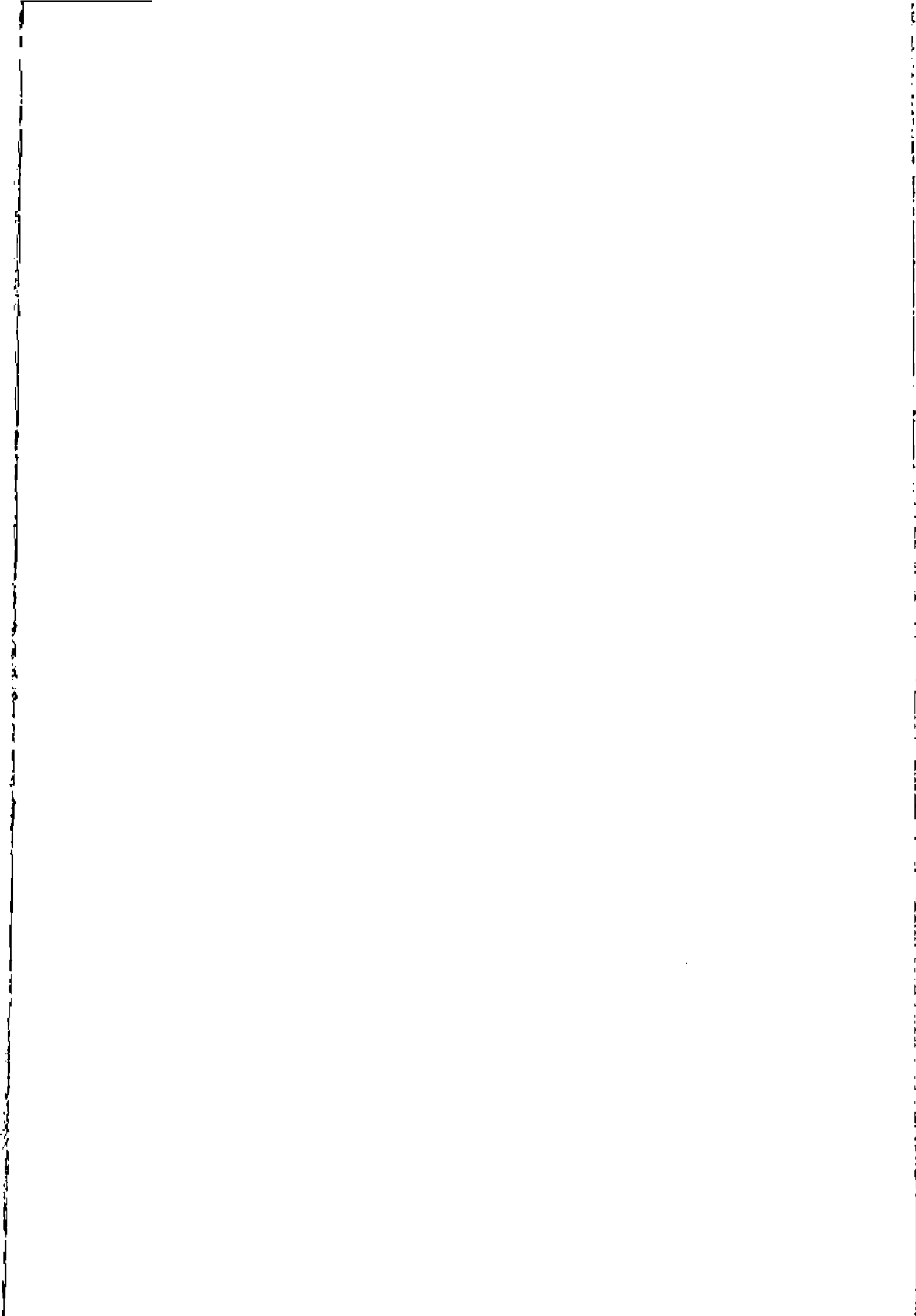
وقال رجل : يا رسول الله ؛ أيباضع أهل الجنة ؟ فقال : «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» .

قال عبدالله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء ، وأربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة مقدار عمره في الدنيا» .

قال أنس : قال رسول الله ﷺ : «إن الحور في الجنة يغنين يقلن نحن الحور الحسان جئنا لأزواج كرام» .

وقال أبو امامة الباهلي : قال رسول الله ﷺ : «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت يسمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ، ولكن بتحميد الله وتقديسه» .

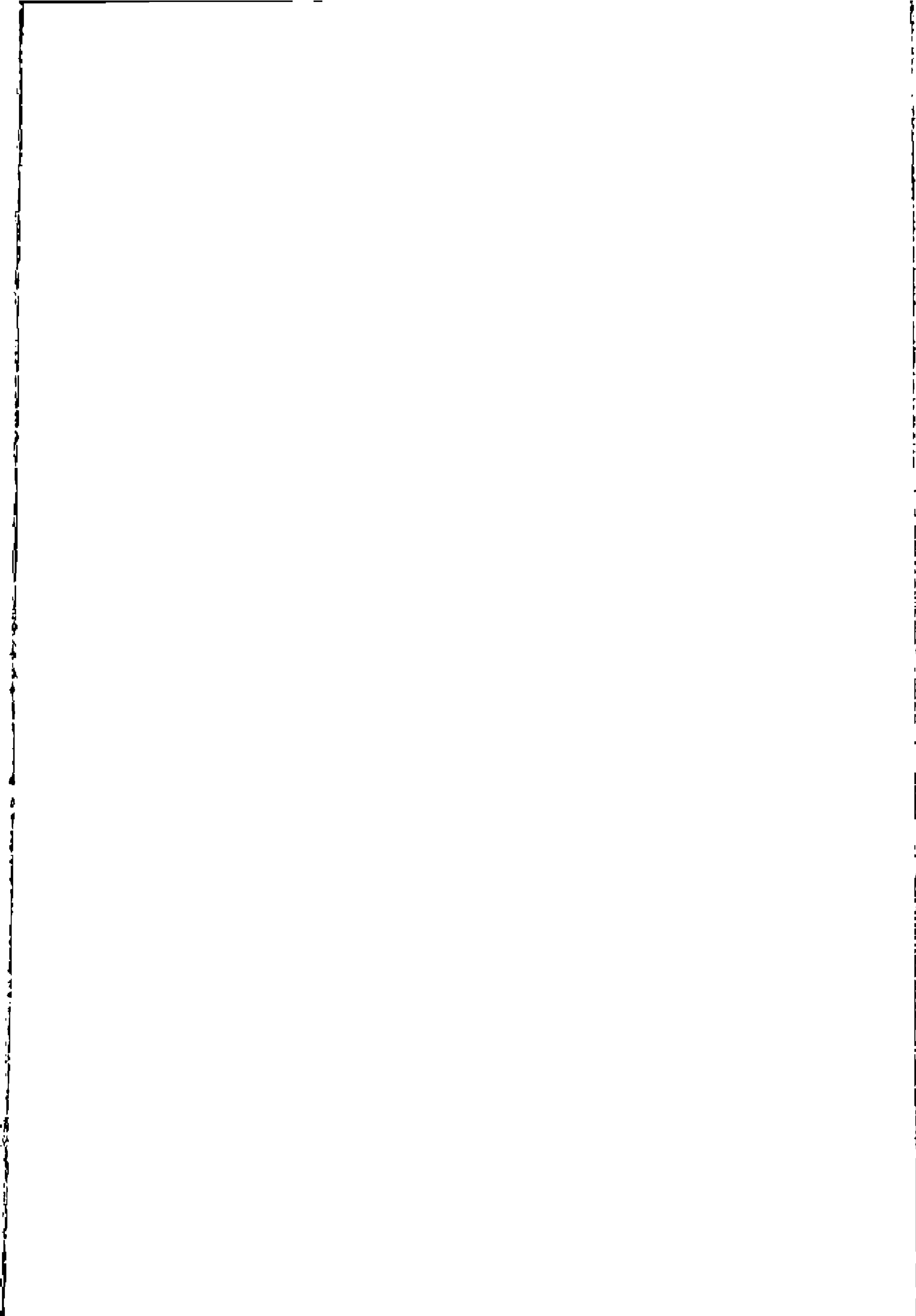


تم بحمد الله وعونه نسخ وتحقيق الجزء الأول من كتاب الأخبار والآثار للعلامة المحقق الشيخ سالم بن عبدالله بن راشد آل بوسعيدي العقري النزوي وهو في فضيلة العلم وتحريم كتمانه وبيان علامات علماء الدنيا والآخرة وفي العقل وفضائل الايمان ، وصفات المؤمنين ، والجاهل والمنافق ، وأخبار أهل التقى ، وفي النية والتوبة والتفكر والرضى بالقدر والعدل في الرعايا وفي كسب الحلال والحرام ، وكراهية جمع المال ، وفي الاحتكار والايثار ، والنصيحة وكتمان السر واقتراب الساعة ، وفي الأمل وذكر الموت ، وذكر عذاب القبر والحساب وصفة المشرك وذكر النار ، والجنة ونعيمها .

يليه بإذن الله وعونه الجزء الثاني وهو في المواعظ والقلب وآفاته ، والنظر وتهذيب النفس ، وحب الدنيا ، والزهد والصبر على البلاء ، وفي التواضع والقناعة ، وحسن الخلق والعزلة والصمت والحلم والرفق والمروءة والسخاء والايثار والغضب والحسد والكبر ، وفي المزاح والضحك والعجب والرياء والغيبة والنميمة وفيما ورد في النساء ومعاشرتهن وفي ذكر أدوية وأغذية وفي الأدب والحكمة .

وكان الفراغ من نسخ وتحقيق هذا الجزء الخميس الأول من محرم ١٤٠٥ هـ ، الموافق السابع والعشرين من ديسمبر ١٩٨٤ م .

المحقق



الفهرســـت

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الايداع ١٤١/٩٢

المطبعة الشرقية ومكتبتها – مطرح – سلطنة عمان

